تفسير القرآن العظيم

لابن كثير

أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير
٧٠١هـ — ٧٧٤هـ

حقق أصوله ، وخرّج أحاديثه ، وعلق حواشيه
علي محمد البجاوي

الجزء الأول

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

بسم الله نقدم هذا الكتاب، وبعونه نرجو أن يسدد خُطانا، ويوفّقنا إلى إتمامه على خير ما نرجو ونأمل، حتى يكون النفع به أعم، والفائدة منه أعظم.

وتفسير ابن كثير من خير كتب التفسير، وأدقها، وهو يمتاز بما يأتى:

١ — يفسر القرآن بالقرآن، ويتبع الآية بجميع الآيات التى توضحها، أو تتفق مع معناها.

٢ — ثم يعقب على ذلك بكل حديث يؤيد معناها، ويساعد فى فهمها، أو يعين على شرحها، ويجلى معانيها.

وهو لا يكتفى بحديث واحد، وإنما يأتى بكل الأحاديث التى تناسب موضوع الآية.

٣ — وإنه ليذكر هـذه الأحاديث غالبا بأسانيدها، وكثيراً ما يذكر تعليل الضعيف منها، ولكنه يحرص على أن يذكر الأحاديث الصحاح، وإن ذكر معها الضعاف أحيانا.

وقد شرح منهجه هذا فى مقدمته حيث يقول[١]:

إن أصح طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن؛ فما أُجمل فى مكان فإنه قد بسط فى موضع آخر. فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له...

---

(١) صفحة ٤ من هذه المطبوعة

وإذا لم نجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة رجعنا إلى أقوال الصحابة ، فإنهم أدرى بذلك ؛ لما شاهدوا من القرائن والأحوال التى اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام ، والعلم الصحيح ، والعمل الصالح ، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم . . .

٤ — وإذا كان بعض المفسرين قد حاول أن يفسر القرآن بالمأثور ، كما فعل السيوطى فى كتابه « الدر المنثور » .

وإذا كان بعضهم قد فسر القرآن بما يجلى معانيه ، ويشرح مراميه ، معتمداً على اللغة والبيان كالزمخشرى فى كتابه « الكشاف » .

وإذا كان بعضهم قد عنى بالأحكام الفقهية التى تستنبط من آيات القرآن الكريم ، كالقرطبى فى كتابه « الجامع لأحكام القرآن » .

إذا كانت هذه المناهج قد توزعت فى كتب التفسير ، فإنا نجد هذا الكتاب قد جمعها أو كاد .

٥ — وهو يعنى دائما بالتنبيه على الإسرائيليات ، ولا يغفل عما هو مدسوس فى ثنايا بعض كتب التفسير منها .

وهو يقول فى مقدمة كتابه[1] ، بعد أن ذكر حديث : بلّغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار :

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تُذْكر للاستشهاد لا للاعتضاد ؛ فإنها على ثلاثة أقسام :

أحدها — ما علمنا صحته مما بأيدينا مما نشهد له بالصدق ؛ فذاك صحيح .

والثانى — ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه .

والثالث — ما هو مسكوت عنه ، لا مِنْ هذا القبيل ولا من هذا القبيل ؛ فلا نؤمن به ولا نكذبه ، وتجوز حكايته لما تقدم .

(١) صفحة ٨ من هذه الطبعة .

وغالبُ ذلك مما لافائدة فيه تعود إلى أمر دينى. ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب فى مثل هذا كثيراً ، ويأتى عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون فى مثل أسماء أصحاب الكهف ، ولون كلبهم وعدتهم . وعصا موسى من أى شجر كانت . وأسماء الطيور التى أحياها الله لإبراهيم . وتعيين البعض الذى ضُرب به القتيل من البقرة . ونوع الشجرة التى كلم الله منها موسى . إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى فى القرآن ، مما لا فائدة فى تعيينه تعود على المكلَّفين فى دنياهم ولا دينهم ، ولكن نَقْلَ الخلاف عنهم فى ذلك جائز ، كما قال تعالى[1] : سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم . . .

وهو حين يورد هذه الإسرائيليات ، يعنى دائما بالتنبيه عليها . وقد وضح رأيه هذا فى كتابه « البداية والنهاية » جزء أول صفحة ٦ أيضا إذ قال :

ولسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما أذن الشارع فى نقله مما لا يخالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وهو القسم الذى لا يصدق ولا يكذب، مما فيه بسط مختصر عندنا، أو تسمية لمُبْهَم وردَ به شَرْعُنا مما لا فائدة فى تعيينه لنا ، فنذكره على سبيل التحلِّى به، لا على سبيل الاحتياج إليه، والاعتماد عليه ؛ وإنما الاعتماد والاستناد على كتاب الله وسنة رسوله ، ما صح نقله ، أو حسن ؛ وما كان فيه ضعف نبيّنه . والله المستعان ، وعليه التكلان .

كما فصل هذا الرأى فى مواضع كثيرة من كتابه ؛ ففى تفسير الآية ٥٠ من سورة الكهف قال ـ بعد أن ذكر أقوالا فى «إبليس» واسمه ، ومن أى قبيل هو: « وقد رُوى فى هذا آثار كثيرة عن السَّلَف ، وغالبها من الإسرائيليات التى تُنْقَل ليُنظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها . ومنها ما يقطع بكذبه ، لمخالفته للحق الذى بأيدينا .

وفى القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة ؛ لأنها لا تكاد تخلو

(١) سورة الكهف ، آية ٢٢

من تبديل وزيادة ونقصان ، وقد وضع فيها أشياء كثيرة ، وليس لهم من الحفّاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريفَ الغالين وانتحالَ المبطلين ، كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء ، والسادة والأتقياء ، والبَرَرَة والنُّجباء ، من الجهابذة النقاد ، والحفاظ الجياد ، الذين دوّنوا الحديث وحرّرُوه ، وبيّنوا صحيحه من حَسَنه من ضعيفه ، من مُنْكَره وموضوعه ، ومتروكه ومكذوبه ، وعرفوا الوضّاعين والكذّابين والمجهولين . وغَيْرَ ذلك من أصناف الرجال .

كلُّ ذلك صيانة للجناب النبوى والمقام المحمدى، خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ أن يُنْسَبَ إليه كذبٌ أو يحدّث عنه بما ليس منه ؛ فرضى الله عنهم وأرضاهم ، وجعل جنات الفردوس مأواهم . وقد فعل .

وفى تفسير الآيات : ٥١ ـ ٥٦ من سورة الأنبياء :

والذى نسلكه فى هذا التفسير الإعراضُ عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية ، لما فيها من تضييع الزمان ، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروّج عليهم ؛ فإنهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها ، كما حرر الأئمة الحفّاظ المتقنون من هذه الأمة .

وفى تفسير الآية ٤٦ من سورة العنكبوت قال : ثم ليعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذبٌ وبهتان ؛ لأنه قد دخله تحريف وتبديل ، وتغيير وتأويل ، وما أقل الصدق فيه ، ثم ما أقل فائدته لو كان صحيحا .

ومن أمثلة تعقيبه :

فى تفسير الآية ٤١ من سورة هود : وقال اركبوا فيها . . . إذ قال : وهذا من الإسرائيليات . والله أعلم بصحته .

وفى تفسير الآية ٢١ من سورة يوسف : وكذلك مَكّنّا ليوسف . . . قال :

وهو من الإسرائيلياب التى لا تصدق ولا تكذب .

وفى تفسير الآية ٢٨ من سورة الحجر : وإذ قال ربُّك للملائكة إنى خالق بشَرًا من صَلْصَال من حَمَأ مَسْنُون ، إذ قال : والظاهر أنه إسرائيلى . والله أعلم .

وغير هـذه الأمثلة كثير مما ينبه عليه دائما ، ويذكر أنه من الإسرائيليات ، ويعقب عليه برأيه ، ويوضح مذهبه .

٦ — ومنهجه الذى أشرنا إليـــــه فيما سبق يساعد على بحث أى موضوع ، وجلاء أى حكم ؛ فهو إذ يقبع كل آية بكل الآيات التى تساعد على فهمها ، ثم بالأحاديث التى تتصل بمعناها، وهو بذلك يهيئ السبيل لكل باحث، ويساعد كل قارئ ، ويضع أمام كل راغب فى بحث موضوع مّا ـ جميعَ موادّ البحث ، ومآخذ الأحكام .

وهذه طريقة علمية قلّ أن تجدها فى كتاب .

٧ — وهو يعقِّب كثيراً على الأحاديث التى يوردها ، فنراه مثلا يقول : حسن غريب . وقد ورد فيه حديث غريب جداً . وقد روى ابن جرير هنا أثرا غريبا . وفيه حديث مرفوع لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة . وقال الترمذى : حسن صحيح . وسنده ضعيف . وروى عنه مرفوعا ، ولا يصح .

وهكذا ينبه على مرتبة الأحاديث التى يوردها ، ويعنى دائما برواتها ، وينسبها غالبا إلى كتبها .

٨ — وهو موسوعة للتفسير ، فهو يذكر رأيه ، ثم آراء غيره من المفسرين ؛ فنراه ينقل عن القرطبى ، والزمخشرى ، والطبرى ، وابن عباس ، وابن مردويه ، وغيرهم .

وهو لايقتصر على نقل آراء هؤلاء المفسرين ؛ بل يؤيد ويضعف ، بل يسفّه أحيانا ، وكل ذلك بالحجة الدامغة والبرهان القوى .

٩ — وهو موسوعة فقهية ؛ فنراه يتبع كل آية اشتملت على حكم من الأحكام بالآيات والأحاديث التى تتصل بهذا الحكم ، ويعقب عليها بالجرح والتعديل .

فهو بهذا يجمع لك فى مكان واحد كل مايتعلق بهذا الحكم ، ويعرض عليك بحوثا كاملة .

وهو لايعنى فى هذه الأحكام الفقهية بمذهب دون مذهب ، مع أنه شافعى ، ولكنه يوردُ الأحكام كما وردت فى المذاهب المختلفة .

١٠ — وهو يورد كثيرا من الأخبار التى وردت فى كتب التاريخ الإسلامى ، والسيرة النبوية ، إذا كانت من أسباب النزول ، أو توضح الآيات ، وتبين علل الأحكام .

ولا يقتصر على إيرادها ؛ بل يمحصها وينقدها ، ويبين رأيه فيها ، بل يعقِّب على ذلك كله برأى غيره من المحدثين والفقهاء .

١١ — وابن كثير يورد أكثر المرويات ، ثم يوازن بينها بميزان الإسناد ، ليمكن معرفة حالها .

وبذلك يبرئ ساحته،ويخلى تبعته وذلك عمل لاريب فى فائدته فى مجال الرواية.

وقد يضيق بهذه الطريقة بعض الناس فى هذا العصر ، ويودون لو كان أغْفَلَه .

وما يضيق به بعضُ الناس يجعله الآخرون ميزةً خاصة جعلت هذا الكتاب من أوسع المراجع فى التفسير ، والفقه ، والحديث .

١٢ — هذا ، وأسلوبُ الكتاب سهل ، وعباراته واضحة ومورده عذب ، وعَرْضه يخلو من تعقيدات بعض النحويين واللغويين .

هذا هو الكتاب الذى نقدمه إلى المسلمين فى أقطار الأرض .

مؤلف الكتاب*

أما مؤلفه ابن كثير فهو الإمام الحافظ المحدث المؤرخ الثقة أبو الفداء إسماعيل ابن عمر بن كثير القرشي الدمشقي الشافعي .

وُلد بقرية مَجْدَل من أعمال بُصْرَى من أعمال دمشق . وقومه كانوا ينسبون إلى الشرف .

وقد ولد سنة ٧٠١ هـ[١] ، وكان أبوه من العلماء الفقهاء الخطباء ، وقد قال عن أبيه : اشتغل بالعلم ، وعني بالنحو واللغة ، وحفظ أشعار العرب ، قال : وتوفي في جمادى الأولى سنة ٧٠٣ هـ .

وابن كثير قد اجتهد في تحصيل العلوم على يد العلماء الكبار في عصره ، وحفظ القرآن الكريم ، وقرأ بالقراءات ، وسمع الحديث من أئمة الحفاظ في عصره ، وتفقه على الشيخين برهان الدين الفزاري ، وكمال الدين ابن قاضي شهبة .

ولزم الحافظ المزّي ، وقرأ عليه مؤلفه العظيم في الرجال « تهذيب الكمال » .

وكان من تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية ، ولازمه وتخرّج على يديه ، وكان له اتّباع في كثير من آرائه .

وذكره الحافظ الذهبي في طبقات الحفاظ[٢] فقال :

وسمعت مع الفقيه المفتي المحدّث ذي الفضائل عماد الدين إسماعيل بن عُمر بن كثير البُصْروي الشافعي ، له عناية بالرجال ، والمتون والفقه ، خرّج وصنّف وفسّر .

وقال عنه تلميذه شهاب الدين بن حجي : كان أحفظ من أدركناه لمتون

---

* رجعنا في هذه الترجمة إلى البداية والنهاية . وتذكرة الحفاظ للذهبي ، والدرر الكامنة لابن حجر ، وذيل تذكرة الحفاظ للسيوطي ، وشذرات الذهب . والأعلام للزركلي .

(١) وقيل سنة ٧٠٠ .

(٢) صفحة ٥٧ ، ٢٦١ .

الأحاديث ، وأعرفهم بتخريجها ورجالها ، وصحيحها وسقيمها ، وكان فقيها ، جيِّدَ الفهم ، يشارك فى العربية مشاركة جيدة .

وقال عنه ابن حجر فى الدر الكامنة : سارت تصانيفه فى البلاد فى حياته ، وانتفع بها الناس بعد وفاته .

وقد أضر فى آخر عُمره . ثم مات يوم الخميس ٢٦ من شعبان سنة ٧٧٤ هـ ، ودُفن بمقبرة الصوفية ، خارج باب النصر من دمشق .

مؤلفاته

وله مؤلفات كثيرة منها :

هذا التفسير هذا العظيم ، وقد حدثناك عنه . والبداية والنهاية ، وهو التاريخ المعروف ، أرخ فيه من بدء الخليقة إلى أثناء سنة ٧٦٨ هـ . السيرة النبوية مطولة ومختصرة . اختصار علوم الحديث . جامع المسانيد والسنن . التكميل فى معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل . وغيرها .

طبعات الكتاب

١ — طبع هذا الكتاب على هامش كتاب فتح البيان فى مقاصد القرآن فى المطبعة الأميرية سنة ١٣٠٠ هـ .

وقد رجعنا إلى هذه الطبعة ، ورمزنا إليها بالحرف (ب) .

ثم طبع بعناية السيد محمد رشيد رضا ، ومعه تفسير البغوى فى مطبعة المنار سنة ١٣٤٣ — ١٣٤٧ هـ .

ثم تداولت المطابع فى مصر طبعه طبعات خَلَتْ من التصحيح والتحقيق .

ولهذا كان لابد من أن يعاد طبعه طبعة علمية محققة ، يرجع فيها إلى النسخ المخطوطة ، ثم إلى مصادر السنة التى ينقل عنها ، وإلى الكتب التى نقل عنها ، وتخرّج أحاديثه ، وتضبط أعلامه .

مخطوطات الكتاب

وقد وقفنا من مخطوطات الكتاب على النسخ الآتية :

١ — مخطوطة دار الكتب برقم ١ تفسير ، وهى فى سبعة مجلدات كبار ، وقد أعانتنا هذه النسخة على تصحيح كثير من الأخطاء التى وقعت فى الكتاب ، وقد أثبتنا أرقام صفحاتها فى طبعتنا هذه ، ورمزنا إليها بالحرف ا .

٢ — مخطوطة دار الكتب رقم ٨٥ ، وهى جزء واحد من أول سورة آل عمران ، وخطها نسخى واضح ، وفيه بعض الضبط ، ورمزنا إليها بالحرف د .

٣ — مخطوطة الأزهر ، وهى تحت رقم ١٦٨ تفسير بمكتبة الأزهر ، فى سبعة مجلدات ، وهى كاملة إلا خرما فى المجلد الثالث منها . فرغ من كتابتها سنة ٨٢٥ هـ . وهذه النسخة يغلب عليها الصحة، والخطأ فيها قليل. وقد رمزت إليها بالحرف ز.

عملى فى الكتاب

١ — رجعت إلى النسخ الخطية التى سبق الحديث عنها، كما رجعت إلى مطبوعات الكتاب المختلفة ، وبخاصة طبعة بولاق الأولى للكتاب ، وأشرت إلى الاختلاف — إن كان — فى هوامش الكتاب .

٢ — خرجت أحاديث الكتاب، وتجد فى هوامشه مايشير إلى مراجع الأحاديث.

٣ — رجعت إلى كتب التفسير الأخرى التى رجع إليها ابن كثير ، وأثبتُّ الاختلاف إن وجد .

٤ — رجعت إلى كتب التاريخ لأوثّق ما رواه من حوادث التاريخ الإسلامى.

٥ — واعتدت فى ضبط الأعلام على كتب الأعلام والرجال مثل : المشتبه ، والتبصير ، والتهذيب ، والتقريب ، والاستيعاب ، والإصابة ، والإكمال ، وغيرها .

وتجد ثبتا بأسماء هذه المراجع فى فهرس الكتاب .

٦ — خرجتُ ما أورده من شعر وأمثال،بالرجوع إلى كتب الأدب،والأمثال واللغة ، ودَواوين الشعراء .

٧ — ضبطت ما يحتاج إلى ضبط ، وشرحت بعض ما رأيت أنه فى حاجة إلى شرح .

٨ — عنيت بإحالات المؤلف،فحددت صفحاتها لهداية الباحث والقارئ؛ للرجوع إليها ، ولربط مواد الكتاب وموضوعاته .

٩ — هذا إلى ترقيم الآيات ، ووضع عنوانات فى أعلى الصفحات ، وتحديد سور وأرقام الآيات المستشهد بها .

١٠ — وأخيرا جعلت لكل جزء فهرساً خاصا بالآيات ، والمسائل الهامة .

وأرجأت الفهارس الفنية العامة إلى آخر الكتاب .

(١١) وبمراجعة الكتاب على تلك النسخ المخطوطة والمطبوعة، وكتب التفسير، والحديث ، والتاريخ ، والأدب ، واللغة ، والرجال ، تكون طبعتنا هذه قد تهيأت لها وسائل التحقيق أو كادت ، فلم يُطبع هذا الكتاب طبعة رجع فيها إلى هذه المراجع مجتمعة إلى الآن .

١٢ — هذا جهد المقل فى هذا الكتاب الجليل ، الذى أقدمت عليه مستعيناً بالله وحده ، ضارعاً إليه أن يجنبنى الزلل،ويوفقنى،ويسدد خطاى . إنه سميع مجيب .

على محمد البجاوى

مصر الجديدة : ١٠ من رمضان سنة ١٣٩٨هـ
١٩ من أغسطس سنة ١٩٧٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام الأوحد ، البارع الحافظ المُتْقِن ، عماد الدين أبو الفداء : إسماعيل ابن الخطيب أبي حفص عمر بن كثير ، الشافعي ، رحمه الله تعالى ورضي عنه :

الحمد لله الذى افتتح كتابه بالحمد ، فقال (الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العالمين . الرحمن الرحيم . مالكِ يَوْمِ الدِّين) . وقال تعالى[1] : (الحمدُ لله الذى أنزلَ على عَبْدِه الكتابَ ولم يَجْعَلْ له عِوَجًا . قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بأسًا شديداً من لَدُنْهُ ويُبَشِّرَ المؤمنين الذين يعملون الصالحاتِ أَنّ لهم أجراً حسناً . ماكثين فيه أبدا . ويُنْذِرَ الذين قالوا اتَّخذ اللهُ وَلدا . ما لَهُمْ به مِنْ عِلْمٍ ولا لآبائهم كَبُرَتْ كلمةً تخرجُ مِنْ أفواههم إنْ يقولونَ إلّا كَذِبًا) .

وافتتح خَلْقه بالحمد ، فقال تعالى[2] : (الحمدُ لله الذى خلق السمواتِ والأرضَ وجعل الظلماتِ والنورَ ثُمّ الذين كفروا بربهم يَعْدِلُونَ) .

واختتمه بالحمد ، فقال ، بعد ما ذكر مآلَ أهلِ الجنة وأهل النار[3] : (وترى الملائكةَ حافِّينَ مِنْ حَوْلِ العرش يسبّحُونَ بحمد ربِّهم وقُضِيَ بينهم بالحق وقِيلَ الحمدُ لله ربِّ العالمين) .

ولهذا قال تعالى[4] : (وهُوَ اللهُ لا إلهَ إلّا هو له الْحَمْدُ فى الأولى والآخرةِ وله الْحُكْمُ وإليه تُرْجَعون) . كما قال [تعالى][5] : ([6]الحمد لله الذى له مافى السمواتِ وما فى الأرْضِ وله الْحَمْدُ فى الآخرةِ وهو الحكيمُ الخبيرُ) ؛ فله الْحَمْدُ فى الأولى والآخرة ؛ أى فى جميع ما خلق وما هو خالق ، وهو المحمودُ فى ذلك كله ، كما يقول المصلِّى :

---

(١) سورة الكهف ، آية ١ – ٥
(٢) سورة الأنعام ، آية ١
(٣) سورة الزمر ، آية ٧٥
(٤) سورة القصص ، آية ٧٠
(٥) ليس فى ز .
(٦) سورة سبأ ، آية ١

« اللهم ربَّنا لك الحمد ، ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئتَ من شىء بعد » [٣] .

ولهذا يُلهم أهلُ الجنة تسبيحَه وتحميده ، كما يلهمون النَّفَس ؛ أى يسبحونه ويحمدونه عددَ أنفاسهم ؛ لما يرون من[١] عظيم نعمه عليهم ، وكمال قدرته ، وعظيم سلطانه ، وتوالى مِنَنه ، ودوام إحسانه [إليهم][٢] ، كما قال تعالى[٣] : (إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ يَهْدِيهم ربُّهم بإيمانهم تَجْرى من تحتهم الأنهارُ فى جناتِ النعيم . دَعْوَاهم فيها سبحانكَ اللهمَّ وتحيتُهم فيها سلامٌ وآخِرُ دَعْوَاهم أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين) .

والحمد لله الذى أرسل رسُلَه (مُبَشِّرِين[٤] ومُنْذِرِين لئلا يكونَ للناسِ على الله حجةٌ بعد الرسل) . وختمهم بالنبى الأمى العربى ، المكى الهادى لأوضح السبل ، أرسله إلى جميع خَلْقه من الإنْسِ والجنّ من لدن بعثته إلى قيام الساعة ، كما قال تعالى[٥] : (قُلْ يأيُّها الناسُ إنّى رسولُ الله إليكم جميعا الذى له مُلْكُ السمواتِ والأرضِ لا إلٰهَ إلا هُو يُحْيِي ويُميت، فآمِنُوا بالله ورسولِهِ النبيِّ الأمّيِّ الذى يُؤْمِنُ بالله وكلماته واتَّبِعُوه لعلكم تَهْتَدُون) . وقال تعالى[٦] : (لأُنْذِرَكم به ومَنْ بَلَغَ)؛ فمن بلغه هذا القرآنُ من عرب وعَجم، وأسود وأحمر ، وإنْس وجانّ ، فهو نذير له ؛ ولهذا قال تعالى[٧] : (ومَنْ يَكْفُرْ به مِنَ الأحزاب فالنارُ مَوْعِدُه) ؛ فمن كفر بالقرآن ممَّنْ ذكرنا فالنارُ موعِدُه بنصّ الله تعالى ؛ كما قال[٨] تعالى[٩] : (فَذَرْنى

(١) فى ز : فى .
(٢) ليس فى ز .
(٣) سورة يونس ، آية ٩ ، ١٠
(٤) سورة النساء ، آية ١٦٥
(٥) سورة الأعراف ، آية ١٥٨
(٦) سورة الأنعام ، آية ١٩
(٧) سورة هود ، آية ١٧
(٨) فى ز : وكما قال . . . .
(٩) سورة القلم ، آية ٤٤

ومَنْ يكذِّبُ بهذا الحديثِ سنَسْتَدْرِجهُم مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ)[١] .

وقال رسـول الله ﷺ[٢] : « بُعِثْتُ إلى الأحمر والأَسْوَد » ؛ قال مجاهد : يعني الإنس والجن ؛ فهو ، صلواتُ الله وسلامُه عليه ، رسولُ الله إلى جميع الثقَلين الإنس والجن ، مبلِّغا لهم عن الله تعالى ما أوحاه إليه من هـذا الكتاب العزيز الذى[٣](لا يَأْتيه الباطلُ مِنْ بين يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِه تنزيلٌ مِنْ حكيم حَميد) .

وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه ندبهم[٤] إلى تَفَهُّمِه ؛ فقال تعالى[٥] : (أفلا يتدَبَّرُونَ القرآنَ ولو كان مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لوجَدُوا فيه اختلافاً كثيرا) . وقال تعالى[٦] : (كِتَابٌ أنزلناه إليكَ مُبَارَكٌ ليَدَّبَّرُوا آياتِه وليتذكَّرَ أُولو الألباب). وقال تعالى[٧] : (أفَلا يتدبَّرون القرآنَ أم على قلوبٍ أَقْفَالُها) .

فالواجب على العلماء الكشفُ عن معاني كلام الله ، وتفسيرُ ذلك ، وطلبُه من مظانّه ، وتعلّمُ ذلك وتعليمُه ؛ كما قال تعالى[٨] : (وإذْ أخذَ اللهُ ميثاقَ الذين أُوتُوا الكتاب لَتُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا تَكْتُمُونَه فنَبَذُوه وراءَ ظهورِهم واشتَرَوْا به ثمنا قليلا فبِئْسَ ما يَشْتَرُون) .

وقال تعالى[٩] : (إنَّ الذين يَشْتَرُون بعَهْدِ اللهِ وأَيْمانِهم ثمناً قليلًا أولئك

(١) فى ز : زيادة « وأملى لهم »
(٢) صحيح مسلم : ٣٧١ ، ومسند أحمد : ١ – ٢٥٠ ، ٤ – ٤١٦ ، ٥ – ١٤٥
(٣) سورة فصلت ، آية ٤٢
(٤) فى ز : ندبهم فيه . ندبهم : ندبه إلى الأمر – كنصره : دعاه وحثه (القاموس) .
(٥) سورة النساء ، آية ٨٢
(٦) سورة ص ، آية ٢٩
(٧) سورة محمد ، آية ٢٤
(٨) سورة آل عمران ، آية ١٨٧
(٩) سورة آل عمران ، آية ٧٧ . لاخلاق لهم : الخلاق : الحظ والنصيب من الخير (معجم ألفاظ القرآن) .

لا خَلاقَ لهم فى الآخرةِ ولا يكلّمُهم اللهُ ولا يَنْظُرُ إليهم يومَ القيامةِ ولا يُزَكّيهم ولهم عذابٌ أليم) ؛ وذمّ الله تعالى أهلَ الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله المنزل[1] عليهم ، وإقبالِهم على الدنيا وجَمْعِها ، واشتغالهم بغير ما أُمروا به من اتباع كتاب الله .

فعلينا أيها المسلمون أنْ ننتهيَ عما ذمّهم الله تعالى به ، وأَنْ نأْتمر بما أُمرنا به من تعلُّم كتاب الله المنزلِ إلينا وتعليمه ، وتفهُّمِه وتفهيمه ؛ قال الله تعالى[2] : (ألم يأْنِ للذين آمنوا أنْ تخشَعَ قلوبُهم لذكْرِ اللهِ وما نزَلَ من الحق ولا يكونُوا كالذين أُوتوا الكتابَ من قبْلُ فطال عليهم الأَمَدُ فقَسَتْ قلوبُهم ، وكَثِيرٌ منهم فاسقون. اعلموا أنَّ اللهَ يُحيي الأرضَ بعد موتها قد بيَّنَّا لكم الآياتِ لعلكم تَعْقِلُون) ؛ ففى ذِكْره تعالى لهذه الآية بعد التى قبلها تنبيهٌ على أنه تعالى كما يُحْيِى الأرضَ بعد موتها كذلك يُلين القلوبَ بالإيمان والهدى بعد قَسْوتها من الذنوب والمعاصى ؛ والله المؤمل المسئول أن يفعل بنا هذا[3] ، إنه جواد كريم .

فإنْ قال قائلٌ : فما أحسنُ طرقِ التفسير ؟

فالجواب أَنّ أصحّ الطرق[4] فى ذلك أن يفسَّر القرآنُ بالقرآن، فما أُجمل فى مكان فإنه قد بُسِط[5] فى موضع آخر . فإن أعياكَ ذلك فعليك بالسنّة ، فإنها شارحةٌ للقرآن وموضّحة له ؛ بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى رحمه الله تعالى : كلُّ ماحكَمَ به رسولُ الله ﷺ فهو مما فَهِمه من القرآن ؛ قال الله تعالى :

(١) فى ز : عن كتاب الله إليهم .

(٢) سورة الحديد ، آية ١٦ ، ١٧ : وأنى كأنى : حان ، وأدرك ، وكل شىء أدرك وبلغ غايته فقد أنى (المعجم) . (٣) فى ز : ذلك . (٤) فى ب : الطريق . والمثبت فى أ ، ز

(٥) فى ا ، ز : فسر .

(١) إنَّا أنزلْنَا إليكَ الكتابَ بالحق لتَحْكُمَ بين الناسِ بما أَراكَ اللهُ ولا تَكُنْ للخائنين خَصِيما) . وقال تعالى[٢] : (وما أَنْزَلْنا عليكَ الكتابَ إلّا لتبيِّنَ لهم الذى اختلفوا فيه وهُدًى ورحمةً لقوم يُؤْمنون) . وقال تعالى[٣] : (وأَنزلنا إليكَ الذِّكْرَ لتبيِّنَ للناس ما نُزِّل إليهم ولعلَّهم يتفكّرون) .

ولهذا قال رسولُ الله ﷺ[٤] : « ألا إنى أُوتيتُ القرآنَ ومِثْلَه معه » : يعنى السنّة .

والسنة أيضا تنزل عليه بالوحى ، كما ينزَّل القرآن ، إلا أنها لا تُتْلَى كما يُتْلَى القرآن . وقد استدل الإمام الشافعى رحمه الله وغيره من الأئمة على ذلكَ بأدلةٍ كثيرة ليس هذا موضع ذلك .

والغرض [٤] أنكَ تطلبُ تفسير القرآن منه ، فإنْ لم تجده فمن السنة كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن[٥] : « فبم تحكم ؟ قال : بكتابِ الله . قال : فإنْ لم تجدْ ؟ قال : بسنّة رسولِ الله ، قال : فإنْ لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيى . قال : فضرب رسولُ الله ﷺ فى صدره، وقال:الحمد لله الذى وفّق رسولَ رسولِ الله لما يُرضى رسول الله » .

وهذا الحديث فى المسند[٦] والسنن بإسناد جيد كما هو مقرر فى موضعه .

وحينئذ إذا لم نجد التفسير فى القرآن ولا فى السنّة رجعنا فى ذلك إلى أقوال الصحابة ؛ فإنهم أدْرَى بذلك ؛ لما شاهدوا من القرائن والأحوال التى اختصوا بها، ولما لهم من الفَهْم التام ، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لاسيما علماؤهم وكبراؤهم[٧]،

(١) سورة النساء آية ١٠٥ . خصيما : مجادلا عنهم (المعجم) .

(٢) سورة النحل ، آية ٦٤ (٣) سورة النحل، آية ٤٤ (٤) مسند أحمد : ٤-١٣١

(٥) سنن الترمذى : ٣ - ٦٠٧ ، وأبو داود : ١١ ، ومسند أحمد : ٥ - ٢٣٠

(٦) فى أ ، ز : فى المسانيد . (٧) فى ب : علماءهم وكبراءهم - أى بالنصب .

كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهتدين المَهْدِيِّين ، وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهم .

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير[١] : حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا جابر بن نوح، حدثنا الأعمش ، عن أبي الضحى، عن مسروق ؛ قال: قال عبدالله - يعنى ابن مسعود: والذى لا إلهَ غيره ، ما نزلت آيةٌ من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت ، وأين نزلَتْ ، ولو أعلم أحداً أعلمَ بكتاب الله منّى تناله المطايا لأَتَيْتُهُ .

وقال الأعمش أيضاً ، عن أبي وائل ، عن ابن مسعود ، قال[٢] : كان الرجل منا إذا تعلّم عشر آيات لم يجاوزهنّ حتى يعرفَ معانيهن والعمل بهنّ .

وقال أبو عبد الرحمن[٢] السلمى : حدثنا الذين كانوا يُقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبى ﷺ ، وكانوا[٣] إذا تعلّموا عشر آيات لم يخلّفوها حتى يعملوا بما فيها من العمَل ، فتعلمنا القرآن والعَمَل جميعا .

ومنهم الحبر البَحْر عبد الله بن عباس ابن عمِّ رسول الله ﷺ وترجمان القرآن ببركة[٤] دعاء رسولِ الله ﷺ له حيث قال: « اللهم فَقّهه فى الدين وعَلّمه التأويل » .

---

(١) تفسير الطبرى : ١ - ٢٨ . وعبد الله بن مسعود صحابى جليل ، من أكابرهم فضلا وعقلا ، وقربا من رسول الله ، وهو من السابقين إلى الإسلام ، وكان خادم رسول الله ، ورفيقه فى حله وترحاله وغزواته ، ولى بعد وفاة النبى بيت مال الكوفة ، ثم قدم المدينة فى خلافة عثمان فتوفى فيها عن ستين عاما سنة ٣٢ هـ .

(٢) تفسير الطبرى : ١ - ٢٧

(٣) فى أ ، ز ، والطبرى : فكانوا .

(٤) فى ز : وببركة .

وعبد الله بن عباس ، قرشى هاشمى ، صحابى جليل ، ولد بمكة ، ونشأ فى بدء عصر النبوة ، فلازم رسول الله ، وروى عنه الأحاديث الصحيحة، وكف بصره فى آخر عمره فسكن الطائف ، وتوفى بها سنة ٦٨ هـ ، وكان آية فى الحفظ .

وقال ابن جرير[١] : حدثنا محمد بن بشار ، وحدثنا وكيع ، حدثنا سفيان عن الأعمش ، عن مسلم — قال[٢] — قال عبد الله — يعنى ابن مسعود : نعم ترجمان القرآن ابن عباس . ثم رواه عن يحيى بن داود ، عن إسحاق الأزرق ، عن سفيان ، عن الأعمش ، [عن مسلم بن صُبَيح][٣]، عن أبي الضُّحى ، عن مسروق، عن ابن مسعود أنه قال : نعم الترجمان للقرآن ابن عباس . ثم رواه عن بُنْدار ، عن جعفر بن عون ، عن الأعمش ، به ، كذلك .

فهذا إسنادٌ صحيح إلى ابن مسعود أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة . وقد مات ابن مسعود رضى الله عنه فى سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح ، وعُمِّر بعده عبدُ الله بن عباس ستا وثلاثين سنة ؛ فما ظنُّك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود.

وقال الأعمش ، عن أبي وائل : استخلف عليّ عبدَ الله بن عباس على الموسم ، فخطب الناس ، فقرأ فى خطبته سورةَ البقرة ؛ وفى رواية سورةَ النور ، ففسرها تفسيرا لو سمعه الرومُ والترك والديلم لأسلموا .

ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدِّيّ الكبير فى تفسيره عن هذين الرجلين : ابن[٤] مسعود ، وابن عباس؛ ولكن فى بعض الأحيان ينقلُ عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التى أباحها رسولُ الله ﷺ حيث قال : « بَلِّغُوا عنّى ولو آيةً ، وحدِّثوا عن بنى إسرائيل ولا حَرَج ، ومن كذَب علىّ متعمِّداً فليتبَوَّأْ مَقْعَده من النار » رواه[٥] البخارى عن عبد الله بن عمرو .

(١) تفسير الطبرى : ١ — ٣١ (٢) فى ب : كذا قال . والمثبت فى ا ، ز ، والطبرى .

(٣) ليس فى تفسير الطبرى ، والضبط فى التقريب ، وفى ا : عن مسلم ، عن أبي الضحى .

(٤) فى ز : عبد الله بن مسعود . والسدى: إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبى كريمة السدى، أبو محمد الكوفى ، صدوق يهم . من الرابعة ، مات سنة سبع وعشرين (التقريب) .

(٥) صحيح البخارى : ٢ — ٦٧ ، ١ — ٣٧

ولهذا كان عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما قد أصاب يوم اليَرْمُوك زَامِلتين[1] من كتب أهلِ الكتاب ، فكان يحدِّث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذْن فى ذلك .

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تُذْكر للاستشهاد لا للاعتضاد ؛ فإنها على ثلاثة أقسام :

أحدها ـ ما علمنا صحَّتَه مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق ، فذاك صحيح .

والثانى ـ ما علمنا كذِبه مما عندنا مما يخالفه .

والثالث ـ ما هو مسكوت عنه ، لا من هذا القبيل ولا مِنْ هـذا القبيل ، فلا نُؤْمِنُ به ولا نكذبه ؛ ويجوز حكايته لما تقدم ؛ وغالبُ ذلك مما لا فائدة فيه تَعُودُ إلى أمْرٍ دينى .

ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب فى هذا كثيرا ؛ ويأتى عن المفسرين خلافٌ بسبب ذلك، كما يذكرون فى مثل هذا أسماءَ أصحابِ الكهف، ولَوْن كلبهم ،وعِدَّتهم، وعصا موسى من أى الشجر كانت ، وأسماء الطيور التى أحياها الله لإبراهيم ، وتعيين البعض الذى ضُرِبَ به القتيل من البقرة ، ونوع الشجرة التى كلَّمَ اللهُ منها موسى ، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى فى القرآن ، مما لا فائدةَ فى تعيينه تعودُ على المكلَّفين فى دينهم ولا دنياهم ؛ ولكنَّ نَقْلَ الخلاف عنهم فى ذلك جائز ، كما قال تعالى[2] : (سيقولون ثلاثةٌ رابعُهم كَلْبهم ، ويقولون خمسةٌ سادِسهم كَلْبُهم، رَجْمًا بالغيب [٥] ، ويقولون سبعةٌ وثامِنُهم كَلْبهم ، قل رَبِّى أَعلمُ بِعِدَّتِهم ما يَعْلَمُهم

(١) الزاملة : التى يحمل عليها من الإبل وغيرها (القاموس) .

(٢) سورة الكهف ، آية ٢٢ . الرجم بالغيب : القذف بالظن . وماراه فى خبره مراء ومماراة : جادله فيه وناظره ، برده عليه ، وطلبه إليه الحجة عليه ، إذا كان غير مقتنع به شاكا فيه (المعجم) .

إلا قليل . فلا تُمارِ فيهم إلّا مِراءً ظاهرا ولا تَسْتَفْتِ فيهم منهم أحداً) ؛ فقد اشتملت هذه الآيةُ الكريمة على الأدب فى هذا المقام ، وتعليمِ ما ينبغى فى مِثْلِ هذا ؛ فإنه تعالى حكى[1] عنهم ثلاثةَ أقوال ، ضعَّف القولين الأولين ، وسكت عن الثالث؛ فدلّ على صحته ؛ إذ لو كان باطلا لردَّه كما ردّها .

ثم أرشد على أنّ الاطلاع على عِدَّتهم لا طائلَ تحته ؛ فقال فى مثل هـــذا : (قُلْ رَبِّى أَعلمُ بِعِدَّتهم) ؛ فإنه ما يعلم ذلك[2] إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه؛ فلهذا قال : (فلا تُمارِ فيهم إلّا مِراءً ظاهرا) ؛ أى لا تجهد نفسك فيما لا طائلَ تحته، ولا تسألهم عن ذلك ؛ فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رَجْم الغيب .

فهذا أحسنُ ما يكون فى حكاية الخلاف : أن تَسْتَوْعِب الأقوالَ فى ذلك المقام ، وأن تُنَبّه على الصحيح منها ، وتبطل الباطل ، وتذكر فائدةَ الخلاف وثمرته ؛ لئلا يطول النزاعُ والخلافُ فيما لا فائدةَ تحته ؛ فتشتغل به عن الأهم فالأهم .

فأما مَنْ حكى خلافاً فى مسألة ، ولم يستوعب أقوالَ الناس فيها ، فهو ناقص ؛ إذ قد يكون الصوابُ فى الذى تركه ؛ أو يحكى الخلاف ويطلقه، ولا ينبّه على الصحيح من الأقوالِ ، فهو ناقص أيضاً ، فإنْ صحَّحَ غَيْرَ الصحيح عامدا فقد تعمَّد الكذب ، أو جاهلا فقد أخطأ ؛ وكذلك مَنْ نصب الخلافَ فيما لا فائدةَ تحته ، أو حكى أقوالا متعددة لفظا ويرجع حاصلها إلى قولٍ أو قولين معنًى فقد ضيَّعَ الزمان ، وتكثّرَ بما ليس بصحيح ، فهو كلابس ثَوْبَى زُور . والله الموفق للصواب .

---

(١) فى ز : أخبر . . . بثلاثة .

(٢) فى ز : بذلك

فصـــل

إذا لم تجد التفسير فى القرآن ولا فى السنّة ، ولا وجدته عن الصحابة ، فقد رجع كثير من الأئمة فى ذلك إلى أقوال التابعين ؛ كمجاهد بن جبر ؛ فإنه كان آية فى التفسير ، كما قال محمد بن إسحاق : حدثنا أبان بن صالح ، عن مجاهد ؛ قال[1] : عرضت المصحف على ابن عباس ثلاثَ عرضات مِنْ فاتحته إلى خاتمته ، أوقفه عند كل آيةٍ منه ، وأسأله عنها.

وقال ابن جرير[1] : أنبأنا[2] أبو كُرَيب ، أنبأنا[2] طَلْق بن غنّام ، عن عثمان المكى ، عن ابن أبى مُليكة ؛ قال : رأيتُ مجاهدا سأل ابْنَ عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحُه ؛ قال : فيقول له ابن عباس : اكتب ، حتى سأله عن التفسير كلّه .

ولهذا كان سفيان الثورى يقول : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحَسْبُك به .

وكسعيد بن جُبير ، وعِكْرمة مولى ابن عباس ، وعَطاء بن أبى رباح ، والحسن البصرى ، ومسروق بن الأَجْدع ، وسَعيد بن المسيّب ، وأبى العالية ، والربيع بن أنس ، وقَتَادة ، والضحاك بن مُزَاحم ، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومَنْ بعدهم ؛ فتذكر أقوالُهم فى الآية فيقَعُ فى عباراتهم تباينٌ فى الألفاظ يحسبُها مَنْ لا عِلْمَ عنده اختلافا فيحكيها أقوالا ؛ وليس كذلك ؛ فإنّ منهم من يعبِّرُ عن الشىء بلازمه أو بنظيره ، ومنهم من ينصّ على الشىء بعينه ، والكلّ بمعنى واحد فى أكثر الأماكن ، فليتفطّن اللبيبُ لذلك . والله الهادى .

وقال شعبة بن الحجاج وغيره : أقوال التابعين فى الفروع ليست حجةً ، فكيف

---

(١) تفسير الطبرى : ١–٣١ . ومجاهد بن جبر مولى السائب بن أبى السائب ، روى عن على ، وسعد بن أبى وقاص ، والعبادلة الأربعة وغيرهم . ولد سنة ٢١ هـ فى خلافة عمر ، وتوفى بمكة سنة اثنتين أو ثلاث ومائة (التهذيب) .

(٢) فى الطبرى ، ز : حدثنا .

تكون حجةً فى التفسير ؟ يعنى أنها لاتكون حجةً على غيرهم ممن خالفهم . وهذا صحيح . أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتابُ فى كونه حجة ؛ فإن اختلفوا فلا يكون قولُ بعضهم حجة على قول بعض[١] ، ولا على مَنْ بعدهم ؛ ويرجع فى ذلك إلى لغةِ القرآن ، أو السنّة ، أو عموم لغةِ العرب ، أو أقوال الصحابة فى ذلك .

* * *

فأما تفسير القرآن بمجرّدِ الرأى فحرامٌ لما رواه محمد بن جرير رحمه الله تعالى حيث قال[٢] : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا سفيان ، حدثنى[٣] عبد الأعلى – هو ابن عامر الثعلبى ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ ؟ قال : « مَنْ قال فى القرآن برأيه ، أو بما لا يعلم ، فليتبوأ مقعده من النار » .

وهكذا أخرجه الترمذى[٤] ، والنسائى من طرق عن سُفيان الثورى ، به ؛ ورواه أبو داود عن مسدّد ، عن أبى عَوانة ، عن عبد الأعلى ، به ، مرفوعا . وقال الترمذى[٤] : هذا حديث حسن .

وهكذا رواه ابن جرير[٥] أيضا عن يحيى بن طلحة اليَرْبُوعى ، عن شَريك ، عن عبد الأعلى ، به ، مرفوعا ؛ ولكن رواه عن محمد بن حُميد ، عن الحكم بن بشير ، عن عمرو بن قيس المُلَائى ، عن عبد الأعلى ، عن سعيد ، عن ابن عباس فوقفه ، وعن محمد بن حُميد ، عن جرير ، عن ليث ، عن بكر ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس من قوله . فالله أعلم .

وقال ابن جرير[٥] : أنبأنا[٦] العباس بن عبد العظيم العَنْبَرى ، حدثنا حَبّان[٧]

(١) فى ز : على بعض .
(٢) تفسير الطبرى : ١ – ٢٧
(٣) فى تفسير الطبرى : حدثنا .
(٤) سنن الترمذى : ٥ – ١٩٩
(٥) تفسير الطبرى : ١ – ٢٧
(٦) فى الطبرى : حدثنا .
(٧) فى ب : حيان . وفى ا : حسان . والمثبت فى الإكمال (٢ – ٣٥) ، والمشتبه : ١٣١ ، والتقريب : ١٤٦

ابن هلال ، حدثنا سهيل أخو[١] حزم ، حدثنا أبو عمران الجونى ، عن جُنْدب — أنَّ رسول الله ﷺ قال : « مَنْ قال فى القرآن برأيه فقد أخطأ » .

وقد روى هذا الحديث أبو داود ، والترمذى[٢] ، والنسائى ، مِنْ حديث سهيل ابن أبى حَزْم القُطعى[٣] .

وقال الترمذى[٢] : غريب . وقد تكلم بعض أهلِ العلم فى سُهَيْل .

وفى لفظ لهم : « من قال فى كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ » ؛ أى لأنه قد تكلّف [٦] مالا عِلْمَ له به ، وسلك غيرما أُمر به ، فلو أنه أصاب المعنى فى نفْسِ الأمر لكان قد أخطأ ؛ لأنه لم يأتِ الأمرَ من بابه ، كمن حكم بين الناس على جَهْل فهو فى النار ، وإنْ وافق حكمُه الصوابَ فى نفس الأمر ، لكن يكون أخفَّ جُرْما ممن أخطأ . والله أعلم .

وهكذا سمى الله القذَفة كاذبين؛ فقال[٤] : (فإذْ لم يأْتوا بالشهداء فأولئكَ عند اللهِ هم الكاذبون) ؛ فالقاذفُ كاذب ولو كان قد قذف من زنى فى نفس الأمر ؛ لأنه أخبر بما لا يحلُّ له الإخبارُ به؛ ولو كان أخبر بما يعلم؛لأنه تكلّف مالا علم له به. والله أعلم .

---

(١) هذا فى ز ، ب ، ا . وفى تهذيب التهذيب (٤ — ٢٦١) : سهيل بن أبى حزم ، واسمه مهران ، ويقال عبد الله ، القطعى ، أبو بكر البصرى .
وسيأتى كذلك بعد قليل .

(٢) سنن الترمذى : ٥ — ١٩٩

(٣) فى ب : القطيعى . وانظر الهامش السابق . وفى سنن الترمذى (٥ — ٢٠٠):حدثنا سهيل بن عبد الله ، وهو ابن أبى حزم ، أخو حزم القطعى . وفى سنن الترمذى : من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ . وستأتى هذه الرواية بعد .

(٤) سورة النور ، آية ١٣ . والقذف : من قولهم قذف بقوله : تكلم من غير تدبر ولا تأمل .

ولهذا تحرّج جماعةٌ من السلَف عن تفسير ما لا عِلْمَ لهم به ، كما روى شعبة ، عن سليمان ، عن عبد الله بن مُرّة ، عن أبى مَعْمَر ؛ قال : قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه[١] : أىُّ أرضٍ تُقِلّنى ، وأىُّ سماء تظلّنى ، إذا قلتُ فى كتاب الله[٢] ما لا أعلم .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : حدثنا محمد بن يزيد[٣] ، عن العوّام بن حَوْشب ، عن إبراهيم التيمى ، أن أبا بكر الصديق سُئل عن قوله تعالى[٤] : (وفاكهةً وأَبًّا) ؛ فقال : أى سماء تظلّنى ، وأى أرض تقلّنى ، إذا أنا قلتُ فى كتاب الله ما لا أعلم[٥] . منقطع .

وقال أبو عبيد أيضا : حدثنا يزيد ، عن حُميد ، عن أنس ـ أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر (وفاكهة وأَبّا) ، فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها ، فما الأبّ ؟ ثم رجع إلى نفسه ، فقال : إن هذا لهو التكلّف يا عمر .

وقال[٦] عبد بن حميد : حدثنا[٧] سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد ، عن ثابت ، عن أنس ؛ قال : كنّا عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه وفى ظهر قميصه أربع رِقاع ، فقرأ : (وفاكهةً وأَبًّا) فقال : فما الأبّ ؟ ثم قال : إن هذا لهو التكلف ؛ فما عليك أن لا تَدْرِيه ؟

وهذا كلُّه محمول على أنهما رضِىَ الله عنهما إنما أرادا استكشافَ عِلْمِ كيفية

(١) تفسير الطبرى : ١ ـ ٢٧ . تقلنى : أقله : حمله ورفعه (القاموس) .
(٢) فى ز ، والطبرى : بما . . . (٣) وتهذيب التهذيب : ٨ ـ ١٦٤
(٤) سورة عبس ، آية ٣١ . والأب : المرعى المتهيء للرعى والجز . (المفردات) .
(٥) سيأتى هذا الحديث فى تفسير « الأب » فى سورة عبس فى الكتاب .
(٦) فى ب : وقال محمد بن سعد والمثبت فى ا ، ز . (٧) فى ز : أنبأنا .

الأبّ ، وإلا فكونُه نبتا من الأرض ظاهرٌ لا يُجْهَل ؛ كقوله[١] تعالى[٢] : (فأنبتنا فيها حَبّا . وعِنَبا . . .) الآية .

وقال ابن[٣] جرير : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عُلَيَّة ، عن أيوب ، عن ابن أبى مُليكة - أنّ ابنَ عباس سئل عن آية لو سُئل عنها بعضُكم لقال فيها ، فأبى أن يقولَ فيها .

إسناده صحيح .

وقال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، عن أيوب، عن ابن أبى مُليكة، قال: سأل رجل ابْنَ عباس عن (يوم[٤] كان مقداره ألف سنة) ؟ فقال له ابن عباس: فما (يوم[٥] كان مقداره خمسين ألف سنة) ؟ فقال له الرجل: إنما سألتك لتحدّثني؛ فقال ابن عباس : هما يومان ذكرهما اللهُ فى كتابه الله أعلم بهما ، فكره أن يقولَ فى كتاب الله مالا يعلم .

وقال ابن جرير[٦] أيضا : حدثنى يعقوب - يعنى ابن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة ، عن مَهْدى بن ميمون ، عن الوليد بن مسلم ؛ قال : جاء طَلْق بن حبيب إلى جُنْدُب ابن عبد الله ، فسأله عن آيةٍ من القرآن . فقال : أُحرج[٧] عليكَ إن كنْتَ مسلما لما قمْتَ عنى - أو قال : أن تجالسنى .

وقال[٦] مالك ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيَّب - أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال : إنا لانقول فى القرآن شيئا .

(١) فى ز : لقوله .

(٢) سورة عبس ، آية ٢٧ ، ٢٨

(٣) تفسير الطبرى : ١ - ٢٨

(٤) سورة السجدة ، آية ٥

(٥) سورة المعارج ، آية ٤

(٦) تفسير الطبرى : ١ - ٢٩

(٧) أحرجت فلانا : آثمته ، وإليه ألجأته . وأحرجت الشيء : حرمته .

وقال الليث[1] عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيَّب — إنه كان لا يتكلم إلا فى المعلوم من القرآن .

وقال[1] شعبة ، عن عمرو بن مرة ؛ قال : سأل رجلٌ سعيدَ بن المسيَّب عن آية من القرآن ، فقال : لا تسألنى عن القرآن ، وسَلْ مَنْ يزعم أنه لا يخفى عليه منه شىء — يعنى عِكْرمة .

وقال ابن[1] شَوْذَب : حدثنى يزيد بن أبى يزيد ، قال : كنا نسألُ سعيدَ ابن المسيّب عن الحرام والحلال ، وكان أعلمَ الناس ، فإذا سألناه عن تفسير آيةٍ من القرآن سكت كأن لم يسمع .

وقال[1] ابن جرير : حدثنى أحمد بن عَبْدة الضبى ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا عبيد الله بن عمر ؛ قال : لقد أدركتُ فقهاء المدينة وإنهم ليعظّمون القولَ فى التفسير ؛ منهم سالم بن عبد الله ، والقاسم بن محمد ، وسعيد بن المسيّب ، ونافع .

وقال أبو عبيد : حدثنا عبد الله بن صالح ، عن ليث ، عن هشام بن عُرْوَة ، قال : ما سمعت أبى يؤوِّل آيةً من كتاب الله قطّ .

وقال أيوب ، وابن عَوْن ، وهشام الدَّسْتُوائى ، عن محمد بن سيرين ؛ سألتُ عَبِيدة — يعنى السلمانى — عن آية من القرآن ، فقال : ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أُنْزِل القرآن . فاتق الله ، وعليك بالسداد .

وقال أبو عُبيد : حدثنا معاذ ، عن ابن عَوْن ، عن عبد الله بن مسلم بن يَسَار ، عن أبيه ؛ قال : إذا حدّثتَ عن الله حديثا فقِفْ حتى تنظر ما قبله وما بعده .

(١) تفسير الطبرى ١ — ٢٩

حدثنا هُشَيم ، عن مُغيرة ، عن إبراهيم ؛ قال : كان أصحابنا يتَّقُون التفسير ويهابُونَه .

وقال شعبة عن عبد الله[١] بن أبى السَّفَر ؛ قال : قال الشعبى : والله ما من آيةٍ إلا وقد سألتُ عنها ، ولكنها الرواية عن الله عز وجل .

وقال أبو عُبيد : حدثنا هُشَيم ، حدثنا عمرو بن أبى زائدة ، عن الشعبى ، عن مسروق ؛ قال : اتقوا التفسير ؛ فإنما هو الرواية عن الله .

فهذه الآثارُ الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولةٌ على تحرُّجهم عن الكلام فى التفسير بما [٧] لا علم لهم فيه .

فأما مَنْ تكلَّم بما يعلم من ذلك لغةً وشرعا فلا حَرَج عليه ؛ ولهذا رُوِى عن هؤلاء وغيرهم أقوالٌ فى التفسير ؛ ولا منافاة ؛ لأنهم تكلموا فيما علموه وسكَتُوا عما جهلوه . وهذا هو الواجب على كل أحد ؛ فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به فكذلك يجبُ القول فيما سئل عنه بما يعلمه ؛ لقوله تعالى[٢] : (لَتُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا تكتمونَه) ؛ ولِمَا جاء فى الحديث الذى روى[٣] من طرق[٤] : « من سُئل عن علمٍ فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار » .

وأما[٥] الحديث الذى رواه أبو جعفر بن جرير[٦] : حدثنا عباس بن عبد العظيم ، حدثنا محمد بن خالد بن عَثْمة ، حدثنا جعفر[٧] بن محمد الزُّبيرى ، حدثنى هشام ابن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ؛ قالت : ما كان النبى ﷺ يفسر شيئا من القرآن

---

(١) فى ا : عن أبى السفر .
(٢) سورة آل عمران ، آية ١٨٧
(٣) فى ز : المروى .
(٤) مسند أحمد : ٢ — ٢٩٦
(٥) فى ا ، ز : فأما .
(٦) تفسير الطبرى : ١ — ٢٩
(٧) فى ب : أبو جعفر . والمثبت فى الطبرى ، ز ، ا .

إلا آيًا[1] تعدّ ، علمهنّ إياه جبريل عليه السلام ، ثم رواه[2] عن أبي بكر محمد ابن يزيد الطَّرَسُوسى ، عن مَعْن بن عيسى ، عن جعفر بن خالد ، عن هشام ، به — فإنه حديث منكر غريب .

وجعفر هذا هو ابن محمد بن خالد بن الزبير بن العوام القُرشى الزبيرى . قال البخارى : لايتابع فى حديثه . وقال الحافظ أبو الفتح الأَزْدى : منكر الحديث ، وتكلّم عليه الإمام أبو جعفر بما حاصله أنَّ هذه الآياتِ مما لايعلم إلا بالتوقيف عن الله تعالى مما وقفه عليها جبرائيل .

وهذا تأويلٌ صحيح لو صحّ الحديثُ فإنّ من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه .

ومنه ما يعلمه العلماء ، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها ، ومنه مالا يعذر أحد فى جهالته ؛ كما صرح بذلك ابن عباس فيما قال ابن جرير[3] : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا مُؤَمَّل ، حدثنا سفيان ، عن أبى الزّناد ؛ قال : قال ابن عباس : التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لايُعْذَر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لايعلمه [أحد][4] إلا الله .

وقال ابنُ جرير[5] : وقد روى نحوه فى حديث فى إسناده نظر ؛ حدثنى يونس بن عبد الأعلى الصّدفى ، أنبأنا وهب [قال][6] : سمعتُ عمرو بن الحارث

(١) فى ا ، ب : بعدد .
(٢) تفسير الطبرى : ١ — ٢٩
(٣) تفسير الطبرى : ١ — ٢٦
(٤) ليس فى ا ، ز ، ولا فى الطبرى .
(٥) تفسير الطبرى : ١ — ٢٦
(٦) من ز ، والطبرى .

يحدّث عن الـكلبي ، عن أبي صالح مولى[(١)] أم هانئ عن ابن عباس ـ أن رسول الله ﷺ قال : « أنزل القرآن على أربعة أحرف حلال وحرام ـ لا يُعْذَر أحد بالجهالة به ، وتفسير تفسره العرب ، وتفسير تفسره العلماء ، ومتشابه لا يعلمه إلا الله عز وجل ، ومن ادّعى علمه سوى الله فهو كاذب .

والنظرُ الذى أشار إليه فى إسناده هو من جهة محمد بن السائب الـكلبى ، فإنه متروكُ الحديث ، لـكن قد يكون إنما وهم فى رَفعه ؛ ولعله من كلام ابن عباس كما تقدم . والله أعلم[(٢)] .

[مقدمة مفيدة تذكر فى أول التفسير قبل الفاتحة[(٣)]]

قال أبو بكر بن الأنبارى : حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضى ، حدثنا حجاج ابن مِنْهال ، حدثنا همام ، عن قَتادة ؛ قال : نزل فى المدينة من القرآن : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، وبراءة ، والرعد ، والنحل ، والحج ، والنور ، والأحزاب ، ومحمد ، والفتح ، والحجرات ، والرحمن ، والحديد ، والمجادلة، والحشْر ، والممتحنة ، والصف ، والجمعة ، والمنافقون ، والتغابُن ، والطلاق و[(٤)] (يأيها النبىّ لم تُحَرِّم) إلى رأس العشر ، و(إذا زُلزلت) ، و(إذا جاء نَصْرُ الله) : هؤلاء السور نزلت بالمدينة ، وسائرُ السورِ بمكة .

فأما عدَدُ آياتِ القرآن العظيم فستةْ آلاف آية ؛ ثم اختلف فيما زاد على ذلك على أقوال ؛ فمنهم من لم يزِدْ على ذلك ، ومنهم من قال : ومائتى آية وأربع آيات ،

(١) فى ا ، ز : عن أم هانئ . والمثبت فى ب ، وتفسير الطبرى .

(٢) فى ا ، ن : والله أعلم بالصواب .

(٣) من ب وحدها وهذه المقدمة كلها ساقطة فى ا ، ز .

(٤) سورة التحريم .

وقيل : وأربع عشرة آية . وقيل : ومائتان وتسع عشرة آية . وقيل: ومائتان وخمس وعشرون آية ، أو ستّ وعشرون آية. وقيل : ومائتان وست وثلاثون ، حكى ذلك أبو عمرو الدانى فى كتابه البيان .

وأما كلماته فقال الفضل بن شاذان، عن عطاء بن يسار : سبع وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة .

وأما حروفهُ فقال عبد الله بن كثير ، عن مجاهد : هذا ما أحصينا من القرآن ، وهو ثلثمائة أَلْف حَرْف وأحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفا .

وقال الفضل بن عطاء بن يسار : ثلثمائة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألفا وخمسة عشر حرفا .

وقال سلام أبو محمد الحِمّانى : إن الحجاج جمع القرّاء والحفّاظ والكتاب ؛ فقال : أخبرونى عن القرآن كلِّه ؛ كم مِنْ حرفٍ هو ؟ قال : فحسبنا فأَجمعوا أنه ثلثمائة ألف وأربعون ألفا وسبعمائة وأربعون حرفا .

قال: فأخبرونى عن نِصْفه فإذا هو إلى الفاء من قوله فى الكهف[1] : (وليتلطَّفْ) . وثلثه الأول عند رأس مائة آية من براءة ، والثانى على رأس مائة أو إحدى ومائة من الشعراء ، والثالث إلى آخره .

وسُبْعه الأول إلى الدال من قوله تعالى[2] : (فمنهم مَنْ آمنَ ومنهم مَنْ صَدّ). والسبع الثانى إلى التاء من قوله تعالى فى سورة الأعراف[3] : (أولئكَ حبِطَتْ). والثالث إلى الألف الثانية من قوله تعالى فى الرعد[4] : (أكلها) . والرابع إلى الألف فى الحج من قوله[5] : (جعلنا مَنْسَكا) . والخامس إلى الهاء من قوله

(١) آية ١٩ من الكهف . (٢) سورة النساء ، آية ٥٥ (٣) آية ٢٢
(٤) آية ٣٥ (٥) آية ٣٤

فى الأحزاب[١] : (وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنة) . والسادس إلى الواو من قوله تعالى فى الفتح[٢] : (الظانّين بالله ظنَّ السوء) . والسابع إلى آخر القرآن .

قال سلام أبو محمد : عملنا ذلك فى أربعة أشهر ؛ قالوا : وكان الحجاج يقرأ فى كل ليلة ربع القرآن ؛ فالأول إلى آخر الأنعام ، والثانى إلى[٣] : (وليتلطَّفْ) من سورة الكهف ، والثالث إلى آخر الزمر ، والرابع إلى آخر القرآن .

وقد حكى الشيخ أبو عمرو الدانى فى كتابه (البيان) خلافا فى هــذا كلّه . فالله أعلم .

وأما التحزيب والتجزئة فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين كما فى الربعات بالمدارس وغيرها ، وقد ذكرنا فيما تقدم الحديثَ الوارد فى تحزيب الصحابة للقرآن ؛ والحديث فى مسند الإمام أحمد ، وسنن أبى داود ، وابن ماجه ، وغيرهم ؛ عن أوس ابن حذيفة[٤] أنه سأل أصحابَ رسولِ الله ﷺ فى حياته : كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : ثلاث ، وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة[٥] ، وحزب المفصل حتى تختم .

فصـــل

واختلف فى معنى السورة مِمَّ هى مشتقّة ؛ فقيل من الإبانة والارتفاع ؛ قال النابغة[٦] :

ألم تر أنَّ اللهَ أعطاك سورةً ترى كلَّ مَلْكٍ دونها يتذبذبُ

فكأن القارئ ينتقلُ بها من منزلة إلى منزلة . وقيل لشرفها وارتفاعها كسُورِ

---

(١) آية ٣٦ (٢) آية ٦ (٣) آية ١٩ (٤) مسند أحمد : ٤ – ٩

(٥) فى ز : وأحد عشرة ، وفى ب : وثلاثة عشر . والمثبت فى مسند أحمد أيضاً .

(٦) ديوانه : ٧٨ ، وتفسير الطبرى : ١ – ٣٦

البلدان . وقيل : سُميت سورة لكونها قطعةً من القرآن وجزءا منه مأخوذ من أسْآر الإناء وهو البقية . وعلى هذا فيكون أصلها مهموزا ؛ وإنما خففت الهمزة ، فأبدلت الهمزة واوا لانضمام ما قبلها . وقيل لتمامها وكمالها ، لأنّ العرب يسمون الناقة التامة سُورة .

قال : ويحتمل أن يكون من الجمع والإحاطة لآياتها ، كما يسمى سُور البلد ، لإحاطته بمنازله ودوره .

وجمع السورة سور – بفتح الواو ، وقد يُجمع على سُوْرَات وسُوَرَات[1] .

وأما الآية فمن العلامة على انقطاع الكلام الذى قبلها عن الذى بعدها ، وانفصالها ؛ أى هى بائنة عن أختها ومنفردة. قال الله تعالى[2]: (إنّ آيةَ مُلْكِه).
وقال النابغة[3] :

توهمتُ آياتٍ لها فعرفْتُها لستّةِ أعوامٍ وذا العامُ سابعُ

وقيل : لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه ، كما يقال : خرج القوم بآياتهم ؛ أى بجماعاتهم ؛ قال الشاعر[4] :

خرَجْنا من النّقْبَيْنِ لا حيَّ مثْلُنا بآيتنا نُزْجِى اللقاحَ المَطَافِلا

وقيل : سُميت آية ، لأنها عجَب يعجزُ البشر عن التكلم بمثلها ؛ قال سيبويه : وأصلها أَيَيَة مثل أكمة وشجَرة ، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقُلبت ألفا ، فصارت آية بهمزة بعدها مدة . وقال الكسائى : أصلها آيِيَة ، على وزن آمنة ، فقلبت ألفا ، ثم حذفت لالتباسها . وقال الفراء : أصلها أَيِّيَة بتشديد الياء الأولى ، فقلبت ألفا

(١) واللسان – سور . وفى ب : وسوارات – تحريف .
(٢) سورة البقرة ، آية ٢٤٨ (٣) ديوانه : ٤٣
(٤) البيت فى اللسان (١٨ – ٦٦) ، ونسبه إلى برج بن مسهر الطائى .

كراهية التشديد(١) ، فصارت آية . وجمعها آيٌ ، وآيات ، وآياى .

وأما الكلمة فهى اللفظة الواحدة ، وقد تكون على حرفين مثل : ما ، ولا ، ونحو ذلك . وقد تكون أكثر ، وأكثر ما تكون عشرة أحرف مثل : (لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم) ، و (أَنُلْزِمُكُمُوها) ، (فَأَسْقَيْنَاكُموه) .

وقد تكون الكلمة الواحدة آية مثل : والفجر . والضحى . والعصر . وكذلك آلم ، وطه ، ويس ، وحم ، فى قول الكوفيين . وحم عسق عندهم كلمتان . وغيرُهم لا يسمِّى هذه آيات ؛ بل يقول : هذه فواتحُ السور .

وقال أبو عمرو الدانى : لا أعلم كلمةً هى وحدها آية إلا قوله تعالى(٢) : (مُدْهَامَّتَانِ) بسورة الرحمن .

فصل

قال القرطبى(٣) : أجمعوا على أنه ليس فى القرآن شىء من التراكيب الأعجمية، وأجمعوا أنَّ فيه أعلاما من الأعجمية ؛ كإبراهيم ، ونوح ، ولوط . واختلفوا : هل فيه شىء من غير ذلك بالأعجمية ؟ فأنكر ذلك الباقلانى ، والطبرى ؛ وقالا : ما وقع فيه مما يوافق الأعجمية فهو من باب ما توافقت فيه اللغاتُ .

---

(١) فى ب : كراهية للتشديد . وارجع إلى اللسان ، ففيه هذه الأقوال كلها .

(٢) آية : ٦٤ من سورة الرحمن . (٣) تفسير القرطبى : ١ – ٦٨

سُورَةُ الفَاتِحَة

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ[١] ﴾

[٢][يقال لها الفاتحة ، أى فاتحة الكتاب خطًّا ، وبها تُفتح القراءة فى الصلوات، ويقال لها أيضا أُمّ الكتاب عند الجمهور ؛ ذكره أَنس . والحسن ، وابنُ سيرين ؛ كرها تسميتها بذلك ؛ قال الحسن ، وابن سيرين : إنما ذلك اللوح المحفوظ .

وقال الحسن : الآياتُ المحكمات هنّ أُم الكتاب ، ولذا كرها أيضا أنْ يقال لها أمّ القرآن .

وقد ثبت فى الصحيح عند الترمذى[٣] ، وصحّحه عن أبى هريرة ؛ قال : قال رسولُ الله ﷺ : « الحمد لله ربِّ العالمين » أُمُّ القرآن ، وأمُّ الكتاب ، والسبع المثانى ، والقرآن العظيم .

ويقال لها « الحمد »، ويقال لها « الصلاة » ؛ لقوله ﷺ عن ربه[٤] : « قسَمْتُ الصلاةَ بينى وبين عبدى نِصْفَيْن ؛ فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ، قال الله : حمدنى عَبْدى . . . » الحديث ؛ فسميت الفاتحةُ صلاة ، لأنها شرط فيها .

ويقال لها « الشفاء » لما رواه الدارمى ، عن أبى سعيد ، مرفوعا : « فاتحة الكتاب شفاءٌ من كل سم » . ويقال[٥] لها « الرُّقْية » لحديث أبى سعيد فى الصحيح حين رُقى بها الرجل السليم ، فقال له رسولُ الله ﷺ : « وما يُدْريك أنها رُقية ؟

وروى الشعبى عن ابن عباس أنه سماها « أساس القرآن » ؛ قال : وأساسها

---

(١) فى ز : فاتحة الكتاب . (٢) مابين القوسين ليس فى ز .

(٣) سنن الترمذى : ٥ ـ ٢٩٧ (٤) سنن الترمذى : ٥ ـ ٢٠١

(٥) الدر المنثور : ١ ـ ٤ ، وتفسير القرطبى : ١ ـ ١١٣

بسم الله الرحمن الرحيم . وسماها سفيان بن عُيينة «بالواقية». وسماها يحيى بن أبى كثير « الكافية » ؛ لأنها تكفى عمّا عداها ، ولا يكفى ما سِوَاها عنها ، كما جاء فى بعض الأحاديث المرسلة : « أم القرآن عِوَضٌ من غيرها ، وليس من غيرها عوض منها » . ويقال لها سورة الصلاة ، والكنز ؛ ذكرهما[1] الزمخشرى فى كشافه][2] .

وهى مكية؛ [قاله ابن عباس ، وقتادة ، وأبو العالية][2] ، وقيل مدنية ؛ [قاله أبو هريرة ، ومجاهد ، وعطاء بن يسار ، والزهرى][2] .

ويقال : نزلت مرتين ؛ مرة بمكة ، ومرة بالمدينة . والأول أشبه؛ [لقوله تعالى[3] : (ولقد آتيناكَ سبْعاً من المَثَانى)][2] . والله تعالى أعلم .

وحكى أبو الليث السمرقندى أنَّ نصفها نزل بمكة ، ونصفها الآخر نزل بالمدينة ؛ وهو غريب جدًّا، نقله القرطبى[4] عنه][2] .

وهى سبع آيات بلا خلاف [وقال عمرو بن عبيد : ثمان . وقال حسين الْجُعْفى : ستة . وهذان القولان شاذان][2] . وإنما اختلفوا فى البَسملة ؛ هل هى آية مستقلة من أولها كما هو[5] عند جمهور قرّاء الكوفة، وقولُ جماعة من الصحابة والتابعين، وخَلْقٌ من الخلف . أو بعض آية ، أو لا تعدّ[6] من أولها بالكلية ، كما هو قولُ أهلِ المدينة من القراء والفقهاء ؛ على ثلاثة أقوال ، كما سيأتى تقريرها فى موضعه إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

قالوا : وكلماتها خمس وعشرون كلمة ، وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفا .

---

(١) الكشاف : ١ – ٤ ، وانظر فى هذه الأسماء أيضا تفسير القرطبى : ١ – ١١٣

(٢) مابين القوسين ليس فى ز . (٣) سورة الحجر ، آية ٨٧

(٤) تفسير القرطبى : ١ – ١١٥

(٥) فى ز : كما هو المشهور عند جمهور . . .

(٦) فى ز : ولا تعد . . .

قال البخارى فى أول كتاب التفسير [١] : وسُميت أم الكتاب ؛ لأنه يبدأ بكتابتها فى المصاحف ، ويبدأ بقراءتها فى الصلاة .

وقيل : إنما سُمّيت بذلك لرجوع معانى القرآن كلّه إلى ما تضمنته .

قال ابن جرير[٢] : والعربُ تسمى كل جامع أمرا ، أو مقدمٍ لأمر، إذا كانت له توابع تتبعُه هو لها إمام جامع ـ أمّا ؛ فتقول للجلدة التى تجمَعُ الدماغ أمّ الرأس ، ويسمون لواء الجيش ورايتهم التى يجتمعون تحتها أُمّا ؛ واستشهد بقول ذى الرمة[٣]:

على رأســه أمٌّ لنا نَقْتَدِى بها   جِمَاعَ أمورٍ ليس[٤] نعصى لها أمراً

يعنى الرمح .

قال[٥] : وسُميت مكة أم القرى ، لتقدمها أمام جميعها ، وجَمْعها ما سواها . وقيل : لأنّ الأرضَ دحيت[٦] منها .

ويقال لها أيضا الفاتحة، لأنها تُفْتتح بها القراءة ، وافتتحت الصحابةُ بها كتابةَ المصحف الإمام ، وصَحّ تسميتها بالسبع المثانى ؛ قالوا : لأنها تثنّى فى الصلاة ، فتقرأ فى كل ركعة ، وإن كان للمثانى معنى آخر غير هذا كما سيأتى بيانُه فى موضعه إن شاء الله تعالى .

---

(١) صحيح البخارى : ٦ ـ ٦٣٠   (٢) تفسير الطبرى : ١ ـ ٣٦

(٣) تفسير الطبرى : ١ ـ ٣٦ ، وديوان ذى الرمه : ١٨٣ .

(٤) فى الديوان : . . . أم له يهتدى بها . . . لا يعاصى . . . وفى تفسير الطبرى : . . . لا نعاصى . وكذلك فى ز .

(٥) تفسير الطبرى : ١ ـ ٣٧

(٦) فى ز : من تحتها . والمثبت فى تفسير الطبرى أيضا ؛ قال : لأن الأرض دحيت منها فصارت لجميعها أما . دحيت : دحا الشىء : بسطه ومهده (المعجم) .

قال الإمام أحمد[١] : حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا ابن أبى ذِئْب ، وهاشم ابن هاشم ، عن ابن أبى ذِئْب ، عن المَقْبُرى ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ ـ أنه قال فى أم القرآن : « هى أمُّ القرآن [٨]، وهى السبْعُ المثانى ، وهى القرآن العظيم » .

ثم رواه[١] عن إسماعيل بن عمر ، عن ابن أبى ذِئْب، به .

وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى[٢]: حدثنى يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا[٣] ابن وهب ، أخبرنى ابنُ أبى ذِئْب، عن سعيد المَقْبُرى، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ ؛ قال : « هى أمّ القرآن ، وهى فاتحة الكتاب ، وهى السبعُ المثانى » .

وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن موسى بن مَرْدويه فى تفسيره : حدثنا أحمد بن محمد ابن زياد ، حدثنا محمد غالب بن حَرْب[٤] ، حدثنا إسحاق بن محمد بن عبد الواحد الموصلى، حدثنا المُعافى بن عِمْران ، عن عبد الحميد بن جعفر ، عن نوح بن أبى بلال ، عن المَقْبُرى ، عن أبى هريرة ؛ قال : قال رسولُ الله ﷺ : « الحمد لله رَبّ العالمين سبع آيات : بسم الله الرحمن الرحيم إحداهن ، وهى السبعُ المثانى والقرآن العظيم ؛ وهى أمُّ الكتاب ، وفاتحة الكتاب » .

وقد رواه الدارقُطْنى أيضا عن أبى هريرة مرفوعا بنحوه أو مثله ؛ وقال : كلّهم ثقات .

وروى البيهقى عن علىّ، وابن عباس ، وأبى هريرة ـ أنهم فسروا قوله تعالى[٥]:

(١) مسند أحمد : ٢ ـ ٤٤٨ (٢) تفسير الطبرى : ١ ـ ٣٦

(٣) فى ز : أخبرنا . وفى تفسير الطبرى : حدثنا .

(٤) فى ب : بن حارث . والمثبت فى ا ، ز .

(٥) سورة الحجر ، آية ٨٧

(سَبْعاً من المثانى) بالفاتحة ، وأنّ البسملة هى الآيةُ السابعة منها ، وسيأتى تمامُ هذا عند البسملة .

وقد[١] روى الأعمش ، عن إبراهيم ؛ قال : قيل لابن مسعود : لِمَ لم تكتب الفاتحة فى مُصْحَفك ؟ فقال : لو كتبتها لكتبتها فى أول كل سورة . قال أبو بكر ابن أبى داود : يعنى حيث يقرأ فى الصلاة ، قال : واكتفيتُ بحفْظِ المسلمين لها عن كتابتها .

وقد قيل : إن الفاتحة أول شىء أُنزل من القرآن ، كما ورد فى حديث رواه البيهقى فى دلائل النبوة ، ونقلَه الباقلّانى أحدَ أقوال ثلاثة .

وقيل : (يا أيها المدثر) ؛ كما فى حديث جابر فى الصحيح . وقيل : (اقرأ باسْمِ رَبِّكَ الذى خَلَقَ) . وهذا هو الصحيح كما سيأتى تقريره فى موضعه ، والله المستعان[٢] .

ذكر ما ورد فى فضل الفاتحة

قال الإمامأحمد بن محمدبنحنبل رحمه الله تعالى فى مسنده: «حدثنا يحيى بن سعيد، عن شُعْبة ، حدثنى خُبَيْب بن عبد الرحمن ، عن حفص بن عاصم ، عن أبى سعيد ابن المُعَلَّى رضى الله عنه؛ قال[٣] : كنتُ أصلى ،فدعانى رسولُ الله ﷺ فلم أجبه حتى صليتُ؛قال : فأتيته[٤] فقال : ما منعك أَنْ تأتينى ؟ قال : قلت : يارسولَ الله ؛ إنى كنتُ أُصلى . قال : ألم يقل الله تعالى[٥] : (يا أيُّها الذين آمَنُوا استجيبُوا

(١) وارجع فى ذلك أيضاً إلى القرطبى صفحة ١١١ — ١١٣
(٢) مابين القوسين ساقط فى ز
(٣) فى المسند: ٤ — ٢١١ ، ٥ — ١١٤،وتفسير القرطبى : ١ — ١٠٨
(٤) فى ز : وأتيته ، وفى البخارى : ثم أتيته .
(٥) سورة الأنفال ، آية ٢٤

لله وللرسول إذا دَعاكم لما يُحْييكم) . ثم قال : لأعلمنَّكَ أعظمَ سورةٍ فى القرآن قبل أن تخرجَ من المسجد ؛قال : فأخذ بيدى ، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلتُ : يا رسولَ الله ؛ إنك قلتَ : لأعلمنك أعظمَ سورةفى القرآن . قال : نعم، « الحمد لله رب العالمين ؛ هى السبع المثانى ، والقرآن العظيم الذى أوتيته » . وهكذا رواه البخارى[1] عن مُسَدَّد ، وعلى بن المدينى ، كلاهما عن يحيى بن سعيد القطان ، به .

ورواه فى موضع آخر من التفسير ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه ، من طرق عن شعبة ، به .

ورواه الواقدى عن محمد بن مُعاذ الأنصارى ، عن خُبيب بن عبد الرحمن ، عن حفص بن عاصم ، عن أبى سعيد بن المُعَلّى ، عن أبى بن كعب ، فذكر نحوه .

وقد وقع[2] فى الموطأ للإمام مالك بن أنس رحمه الله ما ينبغى التنبيهُ عليه ؛ فإنه رواه مالك عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب[3] الحُرَقى أنّ أبا سعيد مولى عامر[4] بن كُرَيز ، أخبرهم أن رسول الله ﷺ نادى أُبيَّ بن كعب وهو يصلّى فى المسجد ، فلما فرغ من صلاته لحقه ؛ فوضع النبىُّ ﷺ يده على يدى وهو يريد أن يخرجَ من باب المسجد ، ثم قال ﷺ : « إنى لأرجو أن لا تخرجَ من باب المسجد حتى تعلمَ سورةً ما أنزل فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى القرآن مثلها .

قال أُبىّ رضى الله عنه : فجعلت أُبطِئ فى المشى رجاء ذلك ؛ ثم قلت : يا رسول الله ، ما السورةُ[5] التى وعدتنى ؟ قال : « كيف تقرأُ إذا افتتحتَ الصلاةَ ؟ قالَ :

---

(١) صحيح البخارى : ٦ — ١٧٧

(٢) الموطأ : ٨٣ ، وتفسير القرطبى : ١ — ١٠٩ ، وسنن الترمذى : ٥ — ١٥٥

(٣) والتقريب .

(٤) فى ب : مولى ابن عامر . والمثبت فى ا ، والموطأ أيضا .

(٥) فى الموطأ : السورة .

فقرأت عليه : (الحمد لله رَبِّ العالمين) ، حتى أتيتُ على آخرها ؛ فقال رسول الله ﷺ : هى هذه السورة ، وهى السَّبْعُ المثانى ، والقرآن العظيم الذى أعطيتُ » .

فأبو سعيد هذا ليس بأبى سعيد بن المعلى كما اعتقده ابن الأثير فى جامع الأصول ومَنْ تبعه ؛ فإن ابنَ المعلى صحابى أنصارى ، وهذا تابعى من موالى خزاعة ، وذاك الحديثُ متصل صحيح ، وهذا ظاهره أنه منقطع إنْ لم يكن سمعه أبو سعيد هذا من أبى بن كعب ؛ فإن كان قد سمعه منه فهو على شَرْط مسلم . والله أعلم .

على أنه قد رُوى عن أبىّ بن كعب من غير وَجْه ، كما قال الإمام أحمد [1] : حدثنا عفّان ، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم ، حدثنا العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ؛ قال : خرج رسولُ الله ﷺ على أبىّ ابن كعب وهو يصلى ؛ فقال ، يا أبىّ . فالتفتَ ثم لم يُجِبْه ؛ ثم قال : أُبىّ ، فخفّف أُبىّ ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ ، فقال [2] : السلامُ عليك أىْ رسول الله . فقال : وعليك السلام . ما منعك أى أُبى إذْ دعوتُكَ أنْ تجيبنى ؟ فقال : أى رسول الله ؛ إنى كنْتُ فى الصلاة . قال : أولستَ تجدُ فيما أوحى الله تعالى إلىّ [3] : (استَجِيبُوا للهِ وللرسول إذا دعاكم لما يُحْيِيكم) ؟ قال : بلى يا رسول الله ؛ لا أعود ، قال : أتحبُّ أن أعلّمك سورةً لم يُنَزَّلْ لا فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى الفرقان مثلها ؟ قلت : نعم أى رسول الله . قال رسول الله ﷺ : إنى لأرجو ألّا أخرجَ من هذا الباب حتى تَعْلَمها . قال : فأخذ رسولُ الله ﷺ بيدى يحدثنى [٩] وأنا أتبطأ مخافةَ أنْ يبلغَ قبل أن يقضى الحديث . فلما دنونا من الباب قلت : أى رسول الله ؛ ما السورة التى وعدتنى ؟ قال : ما تقرأ فى الصلاة ؟ قال : فقرأت عليه

(١) فى المسند : ٥ — ١١٤ (٢) فى ب : قال .
(٣) سورة الأنفال ، آية ٢٤

أم القرآن . قال : والذى نفسى بيده ما أنزل اللهُ فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى الفرقان مثْلُها ؛ إنها السَّبْعُ المَثَانى .

ورواه الترمذى[1] ، عن قُتَيْبة عن الدراوَرْدِى ، عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، فذكره .

وعنده أنها من السبع المثانى ، والقرآن العظيم الذى أعطيته .

ثم قال : هذا حديث حسن صحيح .

وفى الباب عن أنس بن مالك ، ورواه عبد الله ابن الإمام أحمد[2] ، عن إسماعيل بن أبى مَعْمَر ، عن أبى أسامة ، عن عبد الحميد بن جعفر ، عن العلاء ، عن أبيه عن أبى هريرة ، عن أبىّ بن كعب فذكره مطولا بنحوه أو قريبا منه .

وقد رواه الترمذى والنسائى جميعا عن أبى عمار حسين بن حُرَيث ، عن الفضل ابن موسى ، عن عبد الحميد بن جعفر ، عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، عن أبى بن كعب ؛ قال : قال رسولُ الله ﷺ : ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل مِثْلَ أُمّ القرآن ، وهى السبع المثانى ؛ وهى مقسومةٌ بينى وبين عبدى نصفين . هذا لفظ النسائى .

وقال الترمذى : حديث حسن غريب .

وقال الإمام أحمد[2] : حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا هاشم – يعنى ابن البَرِيد ، حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن ابن[3] جابر ؛ قال : انتهيتُ إلى رسول الله ﷺ وقد أهراق الماء ، فقلت : السلام عليكَ يا رسول الله ، فلم يردّ على . قال :

---

(١) فى سنن الترمذى : ٥ – ١٥٥ ، وهو فى البخارى أيضا : ٦ – ٢٣١

(٢) مسند أحمد : ٤ – ١٧٧

(٣) فى ب : عن جابر ، والمثبت فى ا ، ز ، والمسند .

فقلت : السلامُ عليك يا رسول الله ، فلم يرد عليّ . قال : فقلتُ : السلام عليك يا رسول الله، فلم يردّ عليّ . قال:فانطلق رسولُ الله ﷺ يمشى وأنا خَلْفه حتى دخل رَحْلَه ، ودخلتُ أنا المسجد ، فجلستُ كئيبا حزينا ، فخرج عليّ رسول الله ﷺ قد[1] تطهّر ، فقال : عليك السلام ورحمة الله [وبركاته][2] ، وعليك السلام ورحمة الله [وبركاته][2] ، وعليك السلام ورحمة الله ؛ ثم قال : ألَا أُخبرك ياعبدالله ابن جابر بأَخْيَر[3] سورةٍ فى القرآن ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : اقرأ الحمد لله رب العالمين حتى تختمها .

هذا إسناد جيّد ، وابنُ عَقيل هذا يحتجُّ به الأئمة الكبار ، وعبد الله بن جابر هذا الصحابى[4] ذكر ابن الجوزى أنه هو العبدى . والله أعلم . ويقال: إنه عبدالله ابن جابر الأنصارى البياضى فيما ذكره الحافظ ابن عساكر .

واستدلوا بهذا الحديثِ وأمثالِه على تفاضُل بعض الآيات والسور على بعض ، كما هو المحكى عن كثير من العلماء ؛ منهم إسحاق بن رَاهويه، وأبو بكر بن العربى، وابن الحَصّار[5] من المالكية .

وذهبت طائفة أخرى إلى أنه لا تفاضُلَ فى ذلك ؛ لأن الجميع كلام الله ، ولئلا يوهم التفضيل نَقْص المفضّل عليه ، وإنْ كان الجميع فاضلا . نقله القُرطبى[6] عن الأشعرى ، وأبى بكر الباقلانى ، وأبى حاتم بن حِبّان البُسْتى ؛[وأبى حيان][7] ، ويحيى بن يحيى ، ورواية عن الإمام مالك [أيضا][7] .

(١) فى ب : وقد تطهر . (٢) زيادة فى ب ، ليست فى ا ، ز .
(٣) فى المسند : بخير . (٤) فى ز : هذا هو الصحابى .
(٥) فى ب : الحضار ، وفى ا : وابن القصار ؛ والمثبت فى القرطبى أيضا : ١ — ١١
(٦) تفسير القرطبى : ١ — ١٠٩ (٧) ليس فى ا ، ز .

حديث آخر : قال البخارى[١] فى فضائل القرآن : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا وَهْب ، حدثنا هِشَام ، عن محمد ، عن معبد ، عن أبى سعيد الخُدْرى ؛ قال : كنّا فى مسير لنا ، فنزلنا فجاءت جارية فقالت : إن سيِّدَ الحى[٢] سليم ، وإن نَفَرنا غُيَّب ، فهل منكم راق ؟ فقام معها رجل ما كنّا نأْبِنُهُ[٣] برُقْية ، فرقاه فبرأ ؛ فأمر له بثلاثين شاة ، وسقَانا لبنا ؛ فلما رجع قلنا له : أكنتَ تحسِنُ رُقْية ؟ أو كنتَ ترْقى ؟ قال : لا ما رقيتُ إلا بأُمّ الكتاب. قلنا : لا تُحْدِثوا شيئا حتى نأتى ونسأل رسولَ الله ﷺ .

فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبى ﷺ ، فقال : وما كان يَدْرِيه أنها رقية ، اقْسِمُوا واضربوا لى بسهم .

وقال أبو مَعْمَر : حدثنا عبد الوارث ، حدثنا هشام ، حدثنا محمد بن سيرين ، حدثنى مَعْبَد بن سيرين عن أبى سعيد الُخدرى بهذا .

وهكذ رواه مسلم[٤] ، وأبو داود ، من رواية هشام ـ وهو ابن حسان ، عن ابن سيرين ، به .

وفى بعض روايات[٥] مسلم لهذا الحديث أن أبا سعيد الُخدْرى هو الذى رقى ذلك السليم ، يعنى اللديغ ؛ يسمونه بذلك تفاؤلا .

حديث آخر : روى مسلم[٦] فى صحيحه ، والنسائى فى سُنَنه ، من حديث أبى الأحوص سلام بن سليم ، عن عمار بن رُزَيق ، عن عبد الله بن عيسى

---

(١) صحيح البخارى : ٦ ـ ٢٣١

(٢) السليم : اللديغ ، وسيأتى هذا التفسير بعد قليل .

(٣) ما كنا نأبنه برقية : أى ما كنا نعلم أنه يرقى فنعيبه بذلك (النهاية)

(٤) صحيح مسلم : ١٧٢٨ (٥) فى صحيح مسلم : ١٧٢٧

(٦) صحيح مسلم : ٥٥٤

ابن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس ؛ قال : بينا رسول الله ﷺ وعنده جبرائيل إذ سمع نَقِيضا[١] فوقه ، فرفع جبريلُ بصره إلى السماء ، فقال : هذا باب قد فُتِح من السماء ما فُتِح قط . قال : فنزل منه ملك ، فأتى النبىّ ﷺ ، فقال : أبشر بنُورين قد أُوتيتهما لم يُؤْتهما نبىٌّ قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لم تَقْرَأْ حرفا منها إلا أُوتيته .

وهذا لفظ النسائى .

ولمسلم نحوه حديث آخر : قال مسلم[٢] : حدثنا [١٠] إسحاق بن إبراهيم الحَنْظَلى — هو ابن رَاهويه ، حدثنا سفيان بن عُيَينة ، عن العلاء — يعنى ابن عبد الرحمن ابن يعقوب[٣] الحُرَقى[٤] ، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « مَنْ صَلَّى صلاةً لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فهى خِدَاج — ثلاثا — غير تمام » .

فقيل لأبى هريرة : إنَّا نكون خَلْفَ الإمام فقال : اقرأ بها فى نفسك ، فإنى سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : قال الله عز وجل : قسمْتُ الصلاةَ بينى وبين عَبْدى نِصْفَين ، ولعبدى ماسأل ؛ فإذا قال : (الحمد لله رب العالمين) قال اللهُ : حمدنى عبدى ، وإذا قال : (الرحمن الرحيم) قال الله : أثنى علىّ عبدى ، فإذا قال : (مالك يَوْم الدين) قال [الله][٥] : مجّدنى عبدى . وقال مرةً : فوّضَ إلىّ عبدى ، فإذا قال : (إياكَ نَعْبُدُ وإياكَ نستعين) قال : هذا بينى وبَيْنَ عبدى ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال : (اهدنا الصراطَ المستقيم صِرَاطَ الذين أنعمْتَ عليهم غَيْرِ المغضوبِ عليهم ولا الضالّين) قال [الله][٥] : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل .

(١) نقيضا : صوتا كصوت الباب إذا فتح . (٢) صحيح مسلم : ٢٩٦

(٣) فى مسلم : عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبى هريرة .

(٤) الضبط فى الإكمال : ١ — ٢٧١ . وفى ب : الخرقى — بالخاء المعجمة — تحريف .

(٥) ليس فى ز ، ومسلم .

وهكذا رواه النسائى عن إسحاق بن راهويه ، وقد روياه أيضا عن قتيبة عن مالك ، عن العلاء ، عن أبى السائب مولى هشام بن زهرة، عن أبى هريرة، [به][1] .

وفى هذا السياق : « فنصفُها لى ونصفُها لعبدى ، ولعَبْدِى ما سأل » .

وهكذا[2] رواه ابنُ إسحاق عن العلاء .

وقد رواه مسلم من حديث جُريج ، عن العلاء ، عن أبى السائب هكذا .

ورواه أيضا من حديث ابن أبى أويس ، عن العلاء ، عن أبيه وأبى السائب ، كلاهما عن أبى هريرة .

وقال الترمذى[3] : هذا حديثٌ حسن . وسألت أبا زُرْعةَ عنه ، فقال : كلا الحديثين صحيح : مَنْ قال : عن العلاء عن أبيه ، وعن العلاء عن أبى السائب .

وقد روى هذا الحديث عبد الله ابن الإمام أحمد من حديث العلاء عن أبيه ، عن أبىّ بن كعب مطوّلا .

وقال ابن جرير : حدثنا صالح بن مسمار المروزى، حدثنا زيد بن الْحُبَاب، حدثنا عَنْبَسَة بن سعيد ، عن مُطَرِّف بن طريف ، عن سعيد بن إسحاق ، عن كعب بن عُجْرَة ، عن جابر بن عبد الله ؛ قال : قال رسولُ الله ﷺ : « قال الله تعالى : قسمت الصلاةُ بينى وبين عبدى نصفين ، وله ماسأل ؛ فإذا قال العبد: (الحمد لله رب العالمين) قال : حمدنى عبدى . وإذا قال : (الرحمن الرحيم) قال: أثنى علىّ عبدى. ثم قال : هذا لى ولَهُ ما بقى » .

وهذا غريب من هذا الوجه .

---

(١) من ز . (٢) فى ز : وكذا .

(٣) سنن الترمذى : ٥ - ٢٠١

الكلام [١] على ما يتعلق بهذا الحديث مما يختص بالفاتحة من وجوه :

أحدها ـ أنه قد أُطلق فيه لفظ الصلاة ، والمراد القراءة ؛ كقوله تعالى[٢] : (ولا تَجْهَرَ بصلاتك ولا تُخَافِتْ بها وابْتَغِ بين ذلكَ سبيلا) ؛ أى بقراءتك ، كما جاء مصرحا به فى الصحيح ، عن ابن عباس . وهكذا قال فى هذا الحديث : « قسمْتُ الصلاةَ بينى وبين عبدى نصفين ، فنصفها لى ، ونصفها لعبدى ، ولعبدى ما سأل » .

ثم بَيَّن تفضيل [٣] هذه القسمة فى قراءة الفاتحة ؛ فدلَّ على عِظَم [٤] القراءة فى الصلاة ، وأنها من أكبر أركانها إذ أُطْلِقَت العبادةُ وأُريد بها جزء واحد منها ؛ وهو القراءة ، كما أطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة فى قوله [٥] : (وقرآن الفَجْرِ إنَّ قرآنَ الفَجْرِ كان مشهودا)،والمراد صلاة الفجر ، كما جاء مصرحا به فى الصحيحين: « إنه [٦] يشهدها ملائكةُ الليل وملائكة النهار » .

فدلّ هذا كلُّه على أنه لابد من القراءة فى الصلاة . وهو اتفاق من العلماء ، ولكن اختلفوا فى مسألة نذكرها فى الوجه الثانى :

وذلك أنه هل يتعين للقراءة فى الصلاة غَيْرُ فاتحة الكتاب أم تجزئ هى أو غيرها؟ على قولين مشهورين ؛ فعند أبى حنيفة ومَنْ وافقه من أصحابه وغيرهم ؛ أنها لا تتعيَّن، بل مهما قرأ به من القرآن أجزأه فى الصلاة . واحتجوا بعموم قوله تعالى[٧] : (فاقرءوا ماتيسَّر من القرآن) وبما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة فى قصة المسىء فى صلاته ـ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال له[٨] : « إذا قمتَ إلى الصلاة فكبِّر، ثم اقرأ ما تيَسَّرَ معكَ

(١) فى ا ، ز : ثم الكلام . . .
(٢) سورة الإسراء ، آية ١١٠
(٣) فى ب : تفصيل .
(٤) فى ز : عظيم .
(٥) سورة الإسراء ، آية ٧٨
(٦) فى ز : من أنه . . .
(٧) سورة المزمل ، آية : ٢٠
(٨) صحيح مسلم : ٢٩٨ ، ومسند أحمد : ٢ ـ ٤٣٧

من القرآن»؛قالوا : فأمره بقراءة ماتيسّر،ولم يعيّن له الفاتحة ولا غيرها،فدلّ على ماقلنا.
والقول الثانى ـ أنه تتعيّنُ قراءةُ الفاتحة فى الصلاة ، ولا تجزئُ الصلاةُ بدونها؛ وهو قول بقية الأئمة: مالك، والشافعى ، وأحمد بن حنبل، وأصحابهم، وجمهور العلماء.
واحتجوا على ذلك بهذا الحديث المذكور حيث قال صلوات الله وسلامه عليه[1] : « مَنْ صلّى صلاةً لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فهى خِدَاج » . والخِدَاج : هو الناقص ، كما فسر به فى الحديث « غير تمام » .
واحتجّوا أيضا بما ثبت فى الصحيحين من حديث الزُّهْرى، عن محمود بن الربيع ، عن عبادة بن الصامت ؛ قال : قال رسول الله ﷺ[2] : « لا صلاةَ لمن لم يَقْرَأ بفاتحةِ الكتاب » .
وفى صحيح ابن خزيمة ، وابن حبان ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسولُ الله ﷺ : « لا تجزىء صلاةٌ لا يقرأ فيها بأمّ القرآن » . والأحاديثُ فى هذا الباب كثيرة ، ووَجْهُ المناظرةِ هٰهنا يطولُ ذكره . وقد أشرنا إلى مأخذهم فى ذلك رحمهم الله .
ثم إنَّ مذهبَ الشافعى وجماعة من أهل العلم أنه تجب [١١] قراءتُها فى كل ركعة . وقال آخرون : إنما تجبُ قراءتُها فى معظم الركعات . وقال الحسن، وأكثر البصريين: إنما تجبُ قراءتُها فى ركعةٍ واحدة من الصلوات أخْذاً بمطلق الحديث[2] : «لا صلاةَ لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»،وقال أبو حنيفة وأصحابه، والثورى، والأوزاعى: لا تتعين قراءتُها ؛ بل لو قرأ بغيرها أجزأه، لقوله تعالى[3] : (فاقرءوا ما تيسَّر من القرآن) . والله أعلم .

(١) صحيح مسلم : ٢٩٦ ، وقد تقدم . وتفسير القرطبى : ١ — ١١٩
(٢) سنن الترمذى : ٢ — ٢٥ ، وابن ماجه : ١ — ٢٧٣ ، وتفسير القرطبى : ١ — ١١٩
(٣) سورة المزمل . آية ٢٠

وقد روى ابن ماجه [١] ، من حديث أبى سفيان السَّعْدى ، عن أبى نَضْرة ، عن أبى سعيد ـ مرفوعا : « لا صلاة لمَن لم يقرأ فى كل ركعة بالحمد [٢] وسورةٍ فى فريضة أو غيرها » . وفى صحة [٣] هذا نَظَر . وموضِعُ تحرير هذا كله فى كتاب الأحكام الكبير . والله أعلم .

والوجه الثالث ـ هل تجبُ قراءةُ الفاتحة على المأموم ؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء :

أحدها ـ أنه تجب عليه قراءتُها ، كما تجب على إمَامه ، لعموم الأحاديث المتقدمة.

والثانى ـ لا تجبُ على المأموم قراءةٌ بالكلية للفاتحة [٤] ولا غيرها ، لا فى الصلاة الجهرية ولا فى الصلاة السرية ، لما رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده ، عن جابر ابن عبد الله ، عن النبى ﷺ أنه قال [٥] : « مَنْ كان له إمامٌ فقراءة الإمام له قراءة» . ولكن فى إسناده ضعف .

ورواه مالك عن وهب بن كيسان ، عن جابر من كلامه ؛ وقد رُوِى هذا الحديث من طرق ، ولا يصحُّ شىء منها عن النبى ﷺ، والله أعلم .

والقول الثالث ـ أنه تجب القراءة على المأموم فى السرية لما تقدم ، ولا يجب ذلك فى الجهرية ، لما ثبت فى صحيح مسلم ، عن أبى موسى الأشعرى ؛ قال:قال رسولُ الله ﷺ [٦] : « إنما جعل الإمام ليؤتَمّ به،فإذا كبّر فكبِّروا،وإذا قرأ فأنصتوا... » وذكر بقية الحديث .

---

(١) سنن ابن ماجه : ١ ـ ٢٧٤ (٢) فى ابن ماجه : « الحمد لله » .

(٣) فى ابن ماجه (١ ـ ٢٧٤) فى الزوائد : ضعيف . وفى إسناده أبو سفيان السعدى . قال ابن عبد البر : وأجمعوا على ضعفه ، لكن تابع أبا سفيان قتادة ، كما رواه ابن حبان فى صحيحه .

(٤) فى ز : لا الفاتحة .

(٥) الحديث فى ابن ماجه : ١ ـ ٢٧٧ ، وقال بعده : والحديث مخالف لما رواه الستة من حديث عبادة . ولم أهتد إليه فى المسند .

(٦) صحيح مسلم : ٣٠٤

وهكذا رواه بقية أهل السنن : أبو داود والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ أنه قال : « وإذا قرأ فأنْصِتوا » . وقد صححه مسلم ابن الحجاج أيضا ، فدلّ هذان الحديثان على صحة هذا القول ؛ وهو قولٌ قديم للشافعى رحمه الله ؛ والله أعلم ، وروايةٌ عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى .

والغرضُ من ذكر هذه المسائل ههنا بيانُ اختصاصِ سورة الفاتحة بأحكامٍ لاتتعلّقُ بغيرِها من السور .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى ، حدثنا غسان ابن عبيد ، ، عن أبى عمران الجَوْنى ، عن أنس رضى الله عنه ؛ قال : قال رسولُ الله ﷺ : « إذا وضعت جَنْبَكَ على الفراش ، وقرأْتَ فاتحةَ الكتاب ، و«قل هو الله أحد » فقد أمِنْتَ من كل شىء إلا الموت » .

تفسير الاستعاذة وأحكامها[1]

قال الله تعالى[2] : (خُذ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأَعْرِض عن الجاهلين . وإما ينزغَنَّكَ من الشيطان نَزْغٌ فاستَعِذْ بالله إنه سَميع عليم) . وقال تعالى[3] : (ادْفَعْ بالتى هى أحسنُ السيئةَ نحن أعلم بما يَصِفُون . وقل رَبِّ أعوذُ بك من همزَات الشياطين . وأعوذُ بكَ رَبِّ أن يَحْضُرُون) . وقال تعالى[4] : (ادْفَع بالتى هى أَحْسنُ فإذا الذى بينك وبينه عداوةٌ كأنه ولى حميم . وما يُلَقَّاها إلا الذين صَبَرُوا وما يلقَّاها إلا ذو حظٍّ عظيم . وإما ينزغَنَّكَ من الشيطانِ نَزْغٌ فاستعِذْ بالله إنه هو السميعُ العليم) .

(١) فى ز : الكلام على تفسير الاستعاذة . (٢) سورة الأعراف ، آية ١٩٩ ، ٢٠٠
(٣) سورة المؤمنون ، آية ٩٦ — ٩٨ (٤) سورة فصلت ، آية : ٣٤ — ٣٦

فهذه ثلاثُ آيات ليس لهن رابعةٌ في معناها ؛ وهو أنّ الله تعالى يأمر بمصانعة العدوّ الإنسيّ، والإحسان إليه، ليردّه عنه طبعه الطيبُ الأصل إلى الموالاة والمصافاة ، ويأمُرُ بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة ؛ إذ لا يقبل مُصانعة ولا إحسانا ، ولا يبتغي غَيْرَ هلاكِ ابن آدم ، لشدّة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل ؛ كما قال تعالى[1] : (يابني آدم لايفتننّكمُ الشيطانُ كما أخْرَج أبويكم من الجنة) . وقال تعالى[2] : (إنّ الشيطانَ لكم عدوٌّ فاتّخذُوه عدوّا ، إنما يدعو حِزْبَه ليكونوا من أصحاب السعير). وقال تعالى[3] : (أفتتّخِذُونه وذرّيته أولياءَ من دوني وهم لكم عدوٌّ بئس للظالمين بَدَلا) .

وقد أقسم للوالد آدم عليه السلام أنه له لمن الناصحين وكذب ، فكيف معاملته لنا ؛ وقد قال[4] : (فبعزّتِكَ لأُغوِيَنّهم أجمعين . إلّا عِبَادَكَ منهم المخلصين) . وقال تعالى[5] : (فإذا قرأت القرآنَ فاستَعِذْ بالله من الشيطان الرّجيم . إنّه ليس له سُلْطانٌ على الذين آمَنُوا وعلى رَبّهم يتوكّلون . إنما سُلْطَانُه على الذين يتولّوْنَه والّذِين هُمْ به مُشْرِكُونَ) .

قالت طائفةٌ من القراء وغيرهم : يتعوّذ[6] بعد القراءة ، واعتمدوا على ظاهر سياق الآية ، ولدَفْع الإعجابِ بعد فراغ العبادة، وممن ذهب إلى ذلك حمزة فيما نقله عنه ابن قلوقا[7] ، وأبو حاتم السجستاني ، حكى ذلك أبو القاسم يوسف بن علي بن جنادة

(١) سورة الأعراف ، آية : ٢٧

(٢) سورة فاطر ، آية ٦ (٣) سورة الكهف ، آية ٥٠

(٤) سورة ص ، آية ٨٢ ، ٨٣ (٥) سورة النحل ، آية ٩٨ – ١٠٠

(٦) في ز : يتعوذ . (٧) في ب : ابن فلوفا – بالفاء . وهي غير منقوطة في ا .

الهُذَلى المغربى فى كتاب العبادة(1) « الكامل » ؛ وروى عن أبى هريرة أيضا، وهو غريب .

[ونقله(2) محمد بن عُمر الرازى فى تفسيره ، عن ابن سيرين فى رواية عنه ، قال : وهو قولُ إبراهيم النخَعى ، وداود بن على الأصبهانى الظاهرى .

وحكى القرطبى(3) عن أبى بكر بن العربى ، عن « المجموعة » ، عن مالك رحمه الله : أنَّ القارئ يتعوَّذ بعد الفاتحة . واستغربه ابن العربى ؛ وحكى قولا ثالثا ؛ وهو الاستعاذةُ أولا وآخراً جَمْعاً بين الدليلين ، نقله الرازى](2) .

والمشهور الذى عليه الجمهور أنَّ الاستعاذة إنما تكونُ قبل التلاوة لدَفْع الوَسْوَاس(4) عنها ؛ ومعنى الآية عندهم : (فإذا قرأْتَ القرآن فاستَعِذْ بالله من [١٢] الشيطان الرجيم) ؛ أى إذا أردْتَ القراءة ؛ كقوله تعالى(5) : (إذا قُمْتُمْ إلى الصلاةِ فاغْسِلُوا وجوهَكم وأيديكم . . .) الآية ؛ أى إذا أردتم القيام .

والدليلُ على ذلكَ الأحاديث عن رسول الله ﷺ بذلك ؛ قال الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله(6) : حدثنا محمد بن الحسن بن أنس ، حدثنا جعفر بن سليمان ، عن على بن على الرفاعى اليَشْكُرى ، عن أبى المتوكل الناجى ، عن أبى سعيد الخُدْرى ؛ قال : كان رسولُ الله ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح صلاتَه وكبَّر قال : سبحانكَ اللهم وبحمدك ، وتباركَ اسْمُك ، وتعالى جَدُّك ، ولا إله غيرك - ثم يقول : لا إله إلا الله - ثلاثا ؛ ثم يقول - أعوذُ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرَّجيم ، من هَمْزِه ونَفْخِه ونَفْثِه .

---

(1) فى ز : فى كتابه الكامل .
(2) ما بين القوسين ساقط فى ز ، ا .
(3) تفسير القرطبى : ١ - ٨٨
(4) فى ب : الموسوس .
(5) سورة المائدة ، آية ٦
(6) المسند : ٤ - ٨٥

وقد رواه أهل السنن الأربعة من رواية جعفر بن سليمان ، عن على بن على وهو الرفاعى . وقال الترمذى : هو أشهرُ شىء فى هذا الباب ، وقد فسر الهمز بالموتة ، وهى الخنق ، والنفخ بالكبر ، والنفث بالشعر . كما رواه أبو داود ، وابن ماجه[1] ، من حديث شُعْبة ، وعن عمرو بن مرة ، عن عاصم العَنَزِى[2] ، عن نافع بن جبير ابن مُطْعِم ، عن أبيه ؛ قال : رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم حين دخل فى الصلاة قال : « الله أكبر كبيراً ــ ثلاثاً ، الحمد لله كثيراً ــ ثلاثاً ، سبحان الله بُكْرَة وأصيلا ــ ثلاثاً[3] ، اللهم إنى أعوذُ بكَ من الشيطان ، من هَمْزِه ونَفْخِه ونَفْثِه .

قال عمرو : هَمْزُه : الْمُوتَة . ونَفْخه : الكِبْر . ونفثه الشعر .

وقال ابن[4] ماجه : حدثنا على بن المنذر ، حدثنا ابن فُضَيل ، حدثنا عطاء ابن السائب ، عن أبى عبد الرحمن السُّلَمِى ، عن ابن مسعود ، عن النبى ﷺ ؛ قال : « اللهم إنى أعوذُ بكَ من الشيطان الرجيم ، وهَمْزِه ونَفْخِه ونَفْثِه .

قال : هَمْزُه المُوتَة ، ونَفْخُه الكبر . ونَفْثُه الشِّعْر .

وقال[5] الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن يوسف ، حدثنا شَرِيك ، عن يَعْلَى ابن عطاء ، عن رجُل حدثه ــ أنه سمع أبا أُمَامة الباهلى يقول : كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة كبَّر ثلاثا ، ثم قال : « لا إله إلا الله ــ ثلاث مرات ، وسبحان الله وبحمده ــ ثلاث مرات » ، ثم قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من هَمْزِه ونَفْخِه ونَفْثِه .

---

(١) سنن ابن ماجه : ١ ــ ٢٦٥

(٢) فى ب : العزى ــ تحريف ــ والصواب فى ا ، ز ، وسنن ابن ماجه .

(٣) فى ابن ماجه : ثلاث مرات .

(٤) فى سنن ابن ماجه : ١ ــ ٢٦٦

(٥) فى مسند أحمد : ٥ ــ ٢٥٣

وقال الحافظ أبو يَعْلى أحمد بن على بن المثنى الموصلى فى مسنده : حدثنا عبد الله ابن عمر بن أَبَان الكوفى ، حدثنا على بن هاشم بن الْبُرَيد ، عن يزيد بن زياد ، عن عن عبد الملك بن عُمير ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن أُبَىّ بن كعب رضى الله عنه ؛ قال : تَلَاحى رجلان عند النبى ﷺ فتمَزَّع[1] أنف أحدهما غضباً ؛ فقال رسول الله ﷺ : « إنى لأعلم شيئا لو قاله لذهب عنه ما يجد : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

وكذا رواه النسائى فى اليوم والليلة عن يوسف بن عيسى المروزى ، عن الفَضْل ابن موسى ، عن يزيد بن زياد بن أبى الجعْد ، به[2] .

وقد روى هذا الحديث أحمد بن حنبل[3] ، عن أبى سعيد ، عن زائدة . وأبو داود ، عن يوسف بن موسى ، عن جرير بن عبد الحميد ، والترمذى ، والنسائى فى اليوم والليلة ، عن بُنْدار ، عن ابن مهدى ، عن الثورى . والنسائى أيضا من من حديث زائدة بن قُدامة ، ثلاثتهم عن عبد الملك بن عُمير ، عن عبد الرحمن ابن أبى ليلى ، عن معاذ بن جبل رضى الله عنه ؛ قال : استبَّ رجلان عند النبى ﷺ ، فغضب أحدُهما غضباً شديداً حتى يخيل إلىّ أن أحدهما يتمزَّع أنفُه من شدة غضبه ؛ فقال النبى ﷺ : « إنى لأعلم كلمةً لو قالها لذهب عنه ما يجدُ من الغضب » . فقال : ماهى يارسول الله؟ قال : يقول : «اللهم إنى أعوذُ بك من الشيطان الرجيم» .

قال : فجعل معاذٌ يأمره ، فأبى ، وجعل يزداد غضباً . وهذا لفظ أبى داود .

قال الترمذى[4] : مرسل ، يعنى أن عبد الرحمن بن أبى ليلى لم يَلْقَ معاذ ابن جبل ، فإنه مات قبل سنة عشرين .

(١) تمزع : تشقق وتقطع . يريد اشتد غضبه . (٢) وتهذيب التهذيب : ١١ – ٣٢٨
(٣) مسند أحمد : ٥ – ٢٤٠ ، وتفسير القرطبى : ١ – ٨٨
(٤) سنن الترمذى : ٥ – ٥٠٤

قلت : وقد يكون عبد الرحمن بن أبى ليلى سمعه من أبىّ بن كعب ، كما تقدم ، وبلغه عن معاذ بن جبل ؛ فإنّ هذه القصة شهدها غَيْرُ واحد من الصحابة رضى الله عنهم .

قال البخارى(١) : حدثنا عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن عدى بن ثابت ؛ قال : قال سليمان بن صُرَد رضى الله عنه : استبَّ رجُلان عند النبى ﷺ ونحن عنده جلوسٌ ، فأحدهما يسبُّ صاحبه مغضبًا قد احمرّ وجهه ؛ فقال النبىُّ ﷺ : « إنى لأعلم كلمةً لو قالها لذهب عنه ما يجده ؛ لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » . فقالوا للرجل : ألا تسمع ما يقولُ رسول الله ﷺ ؟ قال : إنى لست بمجنون .

وقد رَوَاه أيضًا مع مسلم وأبى داود والنسائى من طرق متعددة عن الأعمش، به .

وقد جاء فى الاستعاذة أحاديث كثيرة يطولُ ذكرها هاهنا ، وموطنُها كتاب الأذكار وفضائل الأعمال . والله أعلم .

وقد روى أنَّ جبريل عليه السلام أول مانزل بالقرآن على رسول الله ﷺ أمره بالاستعاذة ، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير(٢) [١٣] : حدثنا أبو كُريب ، حدثنا عثمان بن سعيد ، حدثنا بشر بن عمارة ، حدثنا أبو رَوْق ، عن الضحاك ، عن عبد الله بن عباس ؛ قال : أول مانزل جبريل على محمد ﷺ قال : « يا محمد استَعِذْ » . اقال : « أستعيذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم » ؛ ثم قال : « قل بسم الله الرحمن الرحيم » . ثم قال : (اقرأ باسم رَبِّك الذى خلقَ) .

قال عبد الله : وهى أول سورة أنزلها الله على محمد ﷺ بلسان جبريل .

وهذا الأثر غريب ، وإنما ذكرناه ليُعْرف ؛ فإن فى إسناده ضَعْفًا وانقطاعا . والله أعلم .

(١) صحيح البخارى : ٨ – ١٩ ، ٣٥ (٢) تفسير الطبرى : ١ – ٤٨

[مسألة[1]

وجمهور العلماء على أن الاستعاذة مُستحبّة ليست بمتحتمة يأثم تاركها. وحكى الرازى عن عطاء بن أبى رَبَاح وجوبَها فى الصلاة وخارجها كلما أراد القراءة ! قال: وقال ابن سيرين. إذا تعوّذ مرةً واحدة فى عمره فقد كفى فى إسقاطِ الوجوب. واحتجّ الرازى لعطاء بظاهر الآية: (فاسْتَعِذْ)؛ وهو أمرٌ ظاهره الوجوب؛ وبمواظبة النبى ﷺ عليها؛ ولأنها تَدْرَأُ شَرّ الشيطان؛ وما لايتم الواجبُ إلا به فهو واجب؛ ولأن الاستعاذة أحوط، وهو أحَدُ مسالك الوجوب.

وقال بعضهم: كانت واجبة على النبى ﷺ دون أمته. وحكى عن مالك أنه لا يتعوّذ فى المكتوبة، ويتعوذ لقيام رمضان فى أول ليلة منه.

مسألة

وقال الشافعى فى الإملاء: يجهر بالتعوذ، وإن أسرّ فلا يضر.

وقال فى الأم بالتخيير، لأنه أسرّ ابن عمر، وجهر أبو هريرة.

واختلف قولُ الشافعى فيما عدا الركعة الأولى؛ هل يستحبّ التعوذ فيها على قولين؛ ورجّحَ عدمَ الاستحباب. والله أعلم.

فإذا قال المستعيذ: أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم، كفى ذلك عند الشافعى، وأبى حنيفة.

زاد بعضهم: أعوذ بالله السميع العليم.

وقال آخرون: بل يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إنّ الله هو السميع العليم؛ قاله الثورى، والأوزاعى.

وحكى عن بعضهم أنه يقول: أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم؛ لمطابقة أمْر الآية، ولحديث الضحاك عن ابن عباس المذكور. والأحاديثُ الصحيحة ـ كما تقدم ـ أولى بالاتباع من هذا. والله أعلم.

(١) ما بين القوسين ساقط فى ز، ا، وهو فى ب وحدها.

مسألة

ثم الاستعاذة فى الصلاة إنما هى للتلاوة ، وهو قولُ أبى حنيفة ومحمد . وقال أبو يوسف : بل للصلاة ؛ فعلى هذا يتعوّذُ المأموم وإن كان لا يقرأ ، ويتعوذ فى العيد بعد الإحرام وقَبْلَ تكبيرات العيد . والجمهور بعدها قبل القراءة .

ومن لطائف الاستعاذة أنها طهارةٌ للفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفَث ، وتطييب له . وهو لتلاوةِ كلامِ الله وهى استعانةٌ بالله واعترافٌ له بالقدرة ، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطنى الذى لا يقدرُ على منعه ودفعه إلا الله الذى خلقه ، ولا يقبل مصانعة ، ولا يُدارى بالإحسان ، بخلاف العدو من نوع الإنسان كما دلّت على ذلك آياتٌ من القرآن فى ثلاث من المثانى. وقال تعالى[1] : (إنَّ عِبَادِى ليس لك عليهم سلطانٌ وكفى بربِّكَ وَكيلا) .

وقد نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البَشرى،فمن قتله العدوُّ الظاهرى البشرى كان شهيدا ، ومَنْ قتله العدو الباطنى كان طَريدا ، ومَنْ غلبه العدوُّ الظاهرى كان مأجورا ، ومن قهره العدوُّ الباطنى كان مفتونا أو مَوْزورا ، ولما كان الشيطان يرى الإنسانَ من حيث لا يراه استعاذ منه بالذى يَرَاه ولا يراه الشيطان .

فصل

والاستعاذة هى الالتجاء إلى الله تعالى ، والالتصاق بجنابه ، مِنْ شر كلِّ ذى شر ، والعياذة تكون لِدَفْع الشر ، واللياذ يكون لطلب جَلْب الخير ، كما قال المتنبى[2] :

---

(١) سورة الإسراء ، آية ٦٥ (٢) ديوان المتنبى : ٢ – ١٢٢

يا مَنْ أَلُوذُ به فيما أُؤَمِّـــلُه ومَنْ أعـــوذُ به ممن أُحاذِرهُ
لا يَجْبُرُ الناسُ عَظْمًا أنْتَ كاسِرُهُ ولا يَهِيضُون(١) عَظْمًا أنت جابِرُهُ](٢)

ومعنى أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم ؛ أى أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أَنْ يضرنى فى دينى أو دنياى ، أو يَصُدّنى عن فعلِ ما أمرت به ، أو يحثنى على فعلِ ما نهيت عنه؛ فإن الشيطان لا يكفُّه عن الإنسان إلا الله ، ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطانِ الإنس ومُدَاراته بإسداء الجميل إليه ، ليردّه طبعه عما هو فيه من الأذى ، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجنّ ؛ لأنه لا يقبل رشوة ، ولا يؤثِّر فيه جميل ؛ لأنه شرِّير بالطبع ، ولا يكفّه عنكَ إلا الذى خلقه .

وهذا المعنى فى ثلاث آيات من القرآن ، لا أعلم لهنّ رابعة .

قوله فى الأعراف(٣) : (خُذِ العفو وأْمُرْ بالعرف وأَعْرِض عن الجاهلين) ؛ فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البَشر .

ثم قال(٤) : (وإما ينزغَنَّكَ من الشيطان نَزْغٌ فاستَعِذْ بالله إنه سميع عليم) .

وقال تعالى فى سورة قد أفلح المؤمنون(٥) : (ادفَعْ بالتى هى أحسنُ السيئةَ نحن أعلم بما يصفون . وقل رَبِّ أعوذ بك من هَمَزات الشياطين . وأعوذُ بك رب أن يَحْضُرُونِ) . وقال تعالى فى سورة حم السجدة(٦) : (ولا تَسْتَوِى الحسنةُ ولا السيئة ادْفَع بالتى هى أحسنُ فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىٌّ حميم . وما يلقَّاها إلا الذين صبروا وما يُلَقَّاها إلا ذو حظٍّ عظيم . وإما ينزغَنَّكَ من الشيطان نَزْغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) .

(١) يهيضون : يكسرون .
(٢) إلى هنا ليس فى ر ، ا . وفى ا بعده : فصل : ومعنى أعوذ بالله . . .
(٣) آية ١٩٩ من سورة الأعراف .
(٤) سورة الأعراف ، آية ٢٠٠
(٥) سورة المؤمنون ، آية ٩٦ — ٩٨
(٦) سورة فصلت ، آية ٣٤ — ٣٦

والشيطان فى لغة العرب مشتقٌ من شطَن ، إذا بعد ؛ فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر ، وبعيد بفِسْقِه عن كل خير .

وقيل مشتق من شاط ، لأنه مخلوق من نار ؛ ومنهم من يقول كلاهما صحيح فى المعنى ، ولكن الأول أصح ، وعليه يدلُّ كلام العرب ؛ قال أمية بن أبى الصلت فى ذكر ما أوتى سليمان عليه السلام[1] :

أيُّما شاطنٍ عصاهُ عَكاهُ ثم يُلْقَى فى السجْنِ والأغلال

فقال : أيما شاطن ولم يقل أيما شائط .

وقال النابغة الذبيانى ، وهو زياد بن عمرو بن[2] معاوية بن جابر بن ضِبَاب ابن يربوع بن مُرّة[3] بن سَعْد بن ذبيان[4] :

نأَتْ بسُعَاد عنك نَوًى شَطُونُ فبانت والفــؤادُ بها رَهِينُ

يقول بعدت بها طريق بعيدة .

[وقال سيبويه : العرب تقول : تَشَيْطن فلان، إذا فعل فعل الشياطين ، ولو كان من شاط لقالوا تشيّط][5] .

فالشيطان مشتق من البُعْد على الصحيح ؛ ولهذا يسمّون كل من تمرّد من جنّى

---

(١) البيت فى اللسان . شطن . وتفسير الطبرى : ١ – ٣٨ ، وديوان أمية : ٥١، وتفسير القرطبى : ١ – ٩٠ ، وفيه : ورماه فى السجن والأغلال . وعكاه فى الحديد : شده .

(٢) فى مقدمة الديوان ، وجمهرة أنساب العرب : ٢٤١ ، والشعر والشعراء : ١٥٧ ، وخزانة الأدب : ١ – ١٣٥ : اسمه زياد بن معاوية .

(٣) فى مقدمة الديوان : بن مرة بن عوف بن سعد . . .

(٤) ديوان النابغة : ٢٥٦ ، وتفسير القرطبى: ١ –٩٠ ، واللسان– شطن . وبئر شطون : بعيدة القعر .

(٥) ما بين القوسين ليس فى ا .

وإنسيّ وحيوان شيطانا . قال الله تعالى[١] : (وكذلك جعلنا لكل نبيٍّ عدوًّا شياطينَ الإنس والجنِّ يُوحى بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القولِ غُرورا) .

وفى مسند[٢] الإمام أحمد عن أبى ذَرّ رضى الله عنه ، قال : قال رسولُ الله ﷺ يا أبا ذر : « تعوّذ بالله من شياطين الإنس والجن » . فقلت : أَوَ للإنس شياطين ؟ قال : « نعم » .

وفى صحيح مسلم ، عن أبى ذر أيضا ، قال[٣] : قال رسول الله ﷺ : « يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب الأسود » . فقلت : يارسول الله ، ما بال الكلب الأسود من الأحمر والأصفر ؟ فقال : الكلب الأسود شيطان .

وقال ابن وهب : أخبرنى هشام بن سعد عن أبيه[٤] - أنّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ركب برذَوْنا ، فجعل يتبختر به ، فجعل يضربه فلا يزدادُ إلا تبخْتُرا ، فنزل عنه ، وقال : ما حملتونى إلا على شيطان ، ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسى . إسناده صحيح .

والرجيم : فعيل بمعنى مفعول ؛ أى إنه مرجوم مطرود عن الخير كله ، كما قال تعالى[٥] : (ولقد زَيَّنا السماءَ الدنيا بمصابيحَ وجعلناها رجُوما للشياطين) . وقال تعالى[٦] : (إنا زَيَّنا السماءَ الدنيا بزينةٍ الكواكب . وحِفْظاً من كل شَيْطانٍ مارِدٍ . لا يسَّمَّعون إلى الملإِ الأعلى ويُقْذَفُون من كل جانب . دُحورًا ولهم عذابٌ وَاصِب . إلّا مَنْ خَطِف الخَطْفَةَ فأتبعَه شِهابٌ ثاقِبٌ) . وقال تعالى[٦] : (ولقد جعلْنَا فى السماء

(١) سورة الأنعام ، آية ١١٢
(٢) مسند أحمد : ٥ - ١٧٩
(٣) صحيح مسلم : ٣٦٥
(٤) تفسير الطبرى : ١ - ٣٨
(٥) سورة الملك ، آية ٥
(٦) سورة الصافات ، آية : ٦ - ١٠
(٧) سورة الحجر ، آية : ١٦ - ٧٨

بُروجاً وَزَيَّنَّاها للناظِرين . وحفِظْنَاها مِنْ كلّ شَيْطانٍ رَجِيم . إلّا من اسْتَرَقَ السمع فأتبعه شِهَابٌ مبين) ؛ إلى غير ذلك من الآيات .

وقيل [1] [رجيم بمعنى رَاجِم ، لأنه يرجم الناس بالوسواس والربائث [2]. والأول أشهر وأصح] [1] .

☆ ☆ ☆

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

افتتح بها الصحابة كتاب الله،واتفق العلماء على أنها بعضُ آية من سورة النمل؛ ثم اختلفوا : هل هى آيةٌ مستقلة فى أول كلّ سورة ، أو مِنْ أول كل سورة كُتبت فى أولها ، أو أنها بعض آية من [3] كل سورة ، أو أنها كذلك فى الفاتحة دون غيرها ، أو أنها إنما كُتبت للفصل لا أنها آية — على أقوال للعلماء ؛ سلفا وخَلفا [١٤] ؛ وذلك مبسوط فى غير هذا الموضع .

وفى سنن أبى داود [4] بإسنادٍ صحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما — أنَّ رسولَ الله ﷺ كان لايعرف فَصْل السورة حتى ينزل عليه (بسم الله الرحمن الرحيم) .

وأخرجه الحاكم أبو عبد الله النيسابورى فى مستدركه أيضا . وروى مرسلا عن سعيد بن جُبير .

وفى صحيح ابن خُزَيمة ، عن أم سلمة رضى الله عنها أنَّ رسولَ الله ﷺ قرأ البسملة فى أول الفاتحة فى الصلاة ، وعدَّها آية ؛ لكنه من رواية عمر بن هارون البَلْخِى ، وفيه ضعف ، عن ابن جُريج، عن ابن أبى مُليكة عنها، وروَى له الدارقُطْنى

(١) ما بين القوسين ساقط فى ز . (٢) الربيثة : الخديعة .

(٣) فى ز : من أول كل سورة . (٤) سنن أبى داود : ١ — ٨٠

متابعا عن أبي هريرة مرفوعا . وروى مثله عن علي ، وابن عباس ، وغيرهما .

وممن حُكِيَ عنه أنها آية من كل سورة ، إلا « براءة » : ابنُ عباس ، وابن عُمر ، وابن الزبير ، وأبو هريرة ، وعليّ . ومن التابعين : عطاء ، وطاوس ، وسعيد بن جُبير ، ومكحول ، والزهري ، وبه يقول عبد الله بن المبارك ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل في رواية عنه ، وإسحاق بن راهويه ، وأبو عبيد القاسم بن سلام رحمهم الله .

وقال مالك ، وأبو حنيفة ، وأصحابهما : ليست آيةً من الفاتحة ولا من غيرها من السور .

وقال الشافعي في قولٍ في بعض طُرقِ مذهبه : هي آيةٌ من الفاتحة ، وليست من غيرها . وعنه أنها بعضُ آية من أول كل سورة ، وهما غريبان .

وقال داود : هي آية مستقلةٌ في أول كل سورة لا منها . وهذا رواية عن الإمام أحمد بن حنبل . وحكاه أبو بكر الرازي عن أبي الحسن الكرخي ، وهما من أكابر أصحاب أبي حنيفة رحمهم الله .

هذا ما يتعلق بكونها آية من الفاتحة أم لا ؟

وأما الجَهْر بها فمفرَّع على هذا ؛ فمن رأى أنها ليست من الفاتحة فلا يَجْهَر بها . وكذا من قال إنها آية[(١)] في أولها . وأما من قال بأنها من أوائل السور ، فاختلفوا ؛ فذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة والسورة ؛ وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين سلَفا وخلَفا ، فجهر بها من الصحابة أبو هريرة ، وابن عمر ، وابن عباس ، ومعاوية ، وحكاه ابن عبد البر ، والبَيْهَقي عن عمر ، وعلي . ونقله الخطيب عن[(٢)] الخلفاء الأربعة ، وهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ،

(١) في ز : من أول كل سورة . (٢) في ز : من .

وهو غريب . ومن التابعين عن سعيد بن جُبير ، وعِكْرمة، وأبى قِلَابة ، والزُّهْرى، وعلى بن الحسين[١] ، وابنه محمد ، وسعيد بن المسيَّب ، وعطاء ، وطاوس ، ومجاهد، وسالم ، ومحمد بن كعب القُرَظى،[وعبيد][٢]، وأبى بكر بن محمد بن عَمْرو بن حزم، وأبى وائل ، وابن سيرين ، ومحمد بن المُنْكَدر ، وعلى بن عبد الله بن عباس ، وابنه محمد ، ونافع مولى ابن عمر ، وزَيْد بن أسلم ، وعمر بن عبد العزيز ، والأزرق ابن قيس ، وحبيب بن أبى ثابت ، وأبى الشَّعثاء ، ومكحول ، وعبد الله بن مَعْقل ابن مُقَرِّن .

زاد البيهقى : وعبد الله بن صفوان ، ومحمد بن الحنفية .

زاد ابن عبد البر : وعمرو بن دينار .

والحجّةُ فى ذلك أنها بعضُ الفاتحة ، فيُجْهَر بها كسائر أبعاضها .

وأيضا فقد روى النسائى فى سننه ، وابن خُزيمة ، وابن حِبّان فى صحيحيهما ، والحاكم فى مستدركه ، عن أبى هريرة أنه صلَّى فجهر فى قراءته بالبسملة . وقال بعد أن فرغ : إنى لأشبهكم صلاةً برسول الله ﷺ ، وصحّحه الدارقُطْنى ، والخطيب ، والبيهقى ، وغيرهم .

وروى أبو داود والترمذى[٣] ، عن ابن عباس ـ أنّ رسول الله ﷺ كان يفتتحُ الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم .

ثم قال الترمذى :[٣] : وليس إسناده بذاك .

وقد رواه الحاكم فى مستدركه ، عن ابن عباس ، قال : كان رسول الله ﷺ يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم . ثم قال : صحيح .

(١) فى ب : بن الحسن والمثبت فى ا ، ز .
(٢) ليس فى ا ، ز
(٣) سنن الترمذى : ٢ ـ ١٤

وفى صحيح(١) البخارى ، عن أنس بن مالك، أنه سئل عن قراءة النبى ، ﷺ فقال : كانت قراءته مدًّا ، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، يمدّ بسم الله ، ويمدّ الرحمن ، ويمدّ الرحيم .

وفى مسند(٢) الإمام أحمد ، وسنن أبى داود ، وصحيح ابن خزيمة ، ومستدرك الحاكم، عن أم سلمة رضى الله عنها ؛ قالت : كان رسولُ الله ﷺ يقطع قراءته : بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين.

وقال الدارقطنى : إسناده صحيح .

وروى الإمام أبو عبد الله الشافعى ، والحاكم فى مستدركه ، عن أنس - أن معاويةَ صلى بالمدينة فترك البسملة ، فأنكر عليه من حضر(٣) من المهاجرين ذلك ، فلما صلى المرة الثانية بَسْمل .

وفى هذه الأحاديث والآثار التى أوردناها كفايةٌ ومقنع فى الاحتجاج لهذا القول عما عداها .

فأما المعارضاتُ والرواياتُ الغريبة وتطريقها وتعليلها وتَضْعيفها وتقريرها فله موضع آخر .

وذهب آخرون [إلى](٤) أنه لا يجهر بالبسملة فى الصلاة ، وهذا هو الثابتُ عن الخلفاء الأربعة ، وعبد الله بن مُغَفّل ، وطوائف من سلف التابعين والخلف ، وهو مذهبُ أبى حنيفة ، والثورى ، وأحمد بن حنبل .

وعند الإمام مالك أنه لا يقرأ البسملة بالكلية لا جَهْرًا ولا سِرًّا ، واحتجوا بما فى صحيح(٥) مسلم : [١٥] عن عائشة رضى الله عنها ، قالت: كان رسول الله ﷺ

(١) صحيح البخارى : ٦ - ٢٤١ (٢) مسند أحمد : ٦ - ٣٠٢

(٣) فى ب : من حضره . (٤) من ز .

(٥) هذا الحديث فى ابن ماجه : ١ - ٢٦٧ ، ولم أقف عليه فى صحيح مسلم .

يفتتح الصلاة بالتكبير ، والقراءة بالحمد لله رب العالمين .

وبما في الصحيحين ، عن أنس بن مالك ؛ قال : صليتُ خلف النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان ، فكانوا يفتتحون[1] بالحمد لله رب العالمين .

ولمسلم : لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها .

ونحوه في السنن عن عبد الله بن مُغَفَّل رضي الله عنه .

فهذه مآخذ الأئمة رحمهم الله في هذه المسألة وهي قريبةٌ ؛ لأنهم أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسرّ . ولله الحمد والمنة .

فصل في فضلها

قال الإمامُ العالمُ الحبر العابدُ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم رحمه الله في تفسيره : حدثنا أبي ، حدثنا جعفر بن مُسافر ، حدثنا زَيْد بن المبارك الصَّنْعاني ، حدثنا سلام بن وَهْب الجَنَدي ، حدثنا أبي ، عن طاوس ، عن ابن عباس - أنَّ عثمان بن عفان سأل رسولَ الله ﷺ عن ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ . فقال : « هو اسمٌ من أسماء الله ، وما بينه وبين اسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العينين وبياضهما من القرب » .

وهكذا رواه أبو بكر بن مَرْدويه ، عن سليمان بن أحمد ، عن علي بن المبارك ، عن زيد بن المبارك ، به .

وقد روى الحافظ بن مَرْدويه من طريقين : عن إسماعيل بن عيّاش ، عن إسماعيل بن يحيى ، عن مِسْعَر ، عن عطية ، عن أبي سعيد ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ عيسى بن مريم عليه السلام أسلمته أمُّه إلى الكتاب ليعلِّمهُ ، فقال له المعلم : اكتب . فقال[2] : ما أكتب؟ قال : بسم الله . قال له عيسى : وما باسم الله؟ قال المعلم : ما أدرى .

(١) في ز : يستفتحون . (٢) في ز : قال . وهذا الأثر في الدر المنثور : ١ - ٨

قال له عيسى : الباء بهاء الله. والسين سناؤه ، والميم مملكته، والله إله الآلهة ، والرحمن رحمن الدنيا والآخرة ، والرحيم رحيم الآخرة » .

وقد رواه [١] ابن جرير من حديث إبراهيم بن العلاء الملقب بابن [٢] زِبْرِيق ، عن إسماعيل بن عياش ، عن إسماعيل بن يحيى ، عن ابن أبى مُلَيكة ، عمن حدّثه ، عن ابن مسعود ، ومِسْعر ، عن عطية ، عن أبى سعيد ؛ قال : قال [٣] رسولُ الله ﷺ فذكره .

وهذا غريب جدًّا ، وقد يكون صحيحا إلى مَنْ دون رسول الله ﷺ . وقد يكون من الإسرائيليات لا من المرفوعات . والله أعلم .

وقد روى جُوَيبر عن الضحاك نحوه من قبله .

وقد روى ابن مردويه من حديث يزيد بن خالد ، عن سليمان بن بُرَيْدة ، وفى رواية عن عبد الكريم أبى أمية عن أبى [٤] بُرَيْدة عن أبيه ، أنَّ رسول الله ﷺ قال : « أُنْزِلت على آيةٌ لم تنزل على نبىّ غير سليمان بن داود وغيرى ، وهى : بسم الله الرحمن الرحيم » .

وروى بإسناده عن عبد الكريم [الكبير] [٥] بن المعافى بن عِمْران ، عن أبيه ، عن عمر بن ذَرّ ، عن عطاء بن أبى رباح ، عن جابر بن عبد الله ؛ قال : لما نزل (بسم الله الرحمن الرحيم) هرب الغيم إلى المشرق ، وسكنت الرياح ، وهاج البحر ، وأصغت البهائم بآذانها ، ورجمت الشياطين من السماء ، وحلف اللهُ تعالى بعزّته وجلاله ألّا يسمى اسمه على شىء إلا بارك فيه [٦] .

(١) تفسير الطبرى : ١ — ٤١ . وفى ا : وقد رواه ابن جرير من حديث إبراهيم بن المعلى.
(٢) فى ا : الملقب زبريق .
(٣) فى ز : عن النبى صلى الله عليه وسلم . والمثبت فى الطبرى أيضاً .
(٤) فى ز : عن ابن بريدة .
(٥) ليس فى ز .
(٦) ما بين القوسين ساقط فى ز ، ا .

[وقال وَكيع ، عن الأعمش ، عن أبي وائل، عن ابن مسعود ، قال : من أراد أنْ يُنجيه اللهُ من الزبانية التسعة عشر فليقرأ : (بسم الله الرحمن الرحيم) ؛ فيجعل اللهُ له من كل حرف منها جُنّةً من كل واحد . ذكره ابن عطية ، والقُرْطبى[1] .

ووجّهه ابن عطية[1] ونصره بحديث: لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكا يَبْتَدِرُونها لقول الرجل : ربنا ولك الحمد حَمْداً كثيرا طيبا مباركا فيه ، من أجل أنها بضعة وثلاثون حرفا وغير ذلك][2] .

وقال الإمام أحمد بن حنبل[3] في مسنده : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عاصم ؛ قال : سمعت أبا تميمة يحدِّث عن رَدِيف النبي ﷺ ؛ قال: عثر بالنبي ﷺ [حماره][4] ؛ فقلتُ : تَعس الشيطان . فقال النبي ﷺ :« لا تَقُلْ تعس الشيطان ؛ فإنك إذا قلت : تعس الشيطان ـ تعاظَم ، وقال: بقوّتي صرعته ، وإذا قلْتَ باسم الله تصاغَر حتى يصير مِثْلَ الذباب .

هكذا وقع في رواية الإمام أحمد .

وقد روى النسائي في اليوم والليلة ، وابن مردويه في تفسيره ، من حديث خالد الحذّاء ، عن أبي تَميمة ، وهو الهُجَيمى، عن أبي المَليح بن أسامة بن عمير ، عن أبيه؛ قال : كنت رَديف النبي ﷺ فذكره؛ وقال: « لا تقل هكذا ، فإنه يتعاظم حتى يكونَ كالبيت ؛ ولكن قل باسم الله ، فإنه يصغر حتى يكون كالذبابة » .

فهذا من تأثير بَرَكة « باسم الله » ؛ ولهذا تستحب في أول كل عمل وقَوْلٍ ؛ فتستحب في أول الخطبة لما جاء : « كلُّ أمر لا يُبْدَأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم

---

(١) تفسير القرطبي : ١ ـ ٩٢ (٢) إلى هنا ساقط في ز .

(٣) مسند أحمد : ٥ ـ ٥٩ ، وتفسير القرطبي : ١ ـ ٩١

(٤) من السنن .

فهو أَجْذَم »[١] . [وتستحب البسملة عند دخول الخلاء ، لما ورد من الحديث في ذلك][١] .

وتستحب في أول الوضوء لما جاء في مسند الإمام أحمد ، والسنن ، من رواية أبي هريرة ، وسعيد بن زيد ، وأبي سعيد ـ مرفوعا[٢] : « لاوضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه » . وهو حديث حسن .

ومن العلماء من أوجبها عند الذكر هاهنا ، ومنهم من قال بوجوبها مطلقا ، وكذا تستحبّ عند الذبيحة في مذهب الشافعي وجماعة،وأوجبها آخرون عند الذكر ومطلقا في قول بعضهم كما سيأتي بيانه في موضعه[١] [إن شاء الله .

وقد ذكر الرازي في تفسيره في فضل البسملة أحاديث منها : عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال : « إذا أتيتَ أهلك فسمِّ الله ، فإنه إن وُجد لك ولد كُتب لك بعدد أنفاسه وأنفاس ذريته حسنات » . وهذا لا أصل له ، ولا رأيته في شيء من الكتب المعتمد عليها ولا غيرها][١] .

وهكذا تستحبُّ عند الأكل لما في صحيح مسلم[٣] : إنّ رسولَ الله ﷺ قال لربيبه عُمَر بن أبي سَلَمة : « قل باسم ، وكل بيمينك ، وكُلْ مما يليك » .

ومن العلماء مَنْ أوجبها والحالة هذه ، وكذلك تستحبُّ عند الجماع لما في الصحيحين عن ابن عباس أنّ رسول الله ﷺ قال[٤] : « لو أنّ أحدكم إذا أرادَ أنْ يأتيَ أهلَه قال باسم الله ، اللهم جَنِّبنا الشيطان وجَنِّب الشيطان [١٦] ما رزقتنا فإنه إنْ يقدَّر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبدا » .

---

(١) مابين القوسين ليس في ز .

(٢) مسند أحمد : ٢ – ٤١٨

(٣) صحيح مسلم : ١٥٩٩

(٤) سنن الترمذي : ٣ – ٣٩٢

ومن هاهنا ينكشف لك أنّ القولين عند النحاة فى تقدير المتعلق بالباء فى قوله[1]: باسم الله ؛ هل هو اسم أو فعل — متقاربان ، وكلٌّ قد ورد به القرآن ؛ أما مَنْ قدّره باسمٍ تقديره باسم الله ابتدائى ؛ فلقوله تعالى[2] : (وقال اركبوا فيها بِسْمِ الله مجريها ومرساها إنّ ربى لغفورٌ رحيم). وَمَنْ قدره بالفعل[3] [أمراً أو خبراً؛ نحو: أبدأ باسم الله ، أو ابتدأت باسم الله][3] فلقوله تعالى[4] : (اقرأ باسْمِ رَبِّكَ الذى خَلَق) ، وكلاهما صحيح؛فإنّ الفعلَ لابدّ له من مصدر ؛ فلك أن تقدر الفعل ومصدره، وذلك بحسب الفعل الذى سميت قبله إنْ كان قياماً أو قعوداً ، أو أكلا أو شربا ، أو قراءة أو وضوءا أو صلاة ؛ فالمشروع ذكر [اسم][3] الله فى الشروع فى ذلك كله ؛ تبرّكا وتيمّنا واستعانةً على الإتمام والتقبل . والله أعلم .

ولهذا روى ابن[5] جرير ، وابن أبى حاتم ، من حديث بشر بن عمارة ، عن أبى رَوْق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ؛ قال : إنّ أول ما نزل به جبريل على محمد ﷺ قال : يا محمد ؛ قل أستعيذُ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم . ثم قال : قل (بسم الله الرحمن الرحيم) . قال : قال له جبريل : [قل][6] باسْمِ الله يا محمد . يقول: اقرأْ بذِكْرِ اللهِ ربِّك ، وقُم واقعد بذكر الله تعالى. لفظ ابن جرير[6] .

وأما مسألة الاسم ؛ هل هو المسمى أو غيره، ففيها للناس ثلاثة أقوال[7] :

أحدها — أنّ الاسم ؛ هل هو المسمى، وهو قَوْلُ أبى عبيدة ، وسيبويه؛ واختاره الباقلانى ، وابن فُورك[8] . وقال الرازى — وهو محمد بن عمر المعروف بابن خطيب

(١) فى ز : قولك .
(٢) سورة هود ، آية ٤١
(٣) مابين القوسين ليس فى ز .
(٤) سورة العلق ، آية ١
(٥) تفسير الطبرى : ١ — ٣٩
(٦) من الطبرى .
(٧) مابين القوسين ساقط فى ز ، ومكانه بياض فى ا .
(٨) وتفسير القرطبى : ١ — ١٠١

الرى فى مقدمات تفسيره : قالت الحشوية ، والكرّامية ، والأشعرية : الاسمُ نَفْسُ المسمى ، وغير نفس التسمية ، وقالت المعتزلة : الاسم غير المسمّى ونفس التسمية .

والمختار عندنا أنّ الاسم غَيْرُ المسمى وغير التسمية ، ثم نقول : إنْ كان المرادُ بالاسم هذا اللفظ الذى هو أصواتٌ متقطعة وحروف مؤلّفة فالعلم الضرورى حاصل أنه غير المسمّى ، وإن كان المراد بالاسم ذات المسمى فهذا يكون من باب إيضاح الواضحات ، وهو عَبَث ، فثبت أنّ الخوض فى هذا البحث على جميع التقديرات يجرى مجرى العبث .

ثم شرع يستدلّ على مغايرة الاسم المسمّى بأنه قد يكون الاسْمُ موجودا والمسمّى مفقودا ، كلفظة المعدوم ، وبأنه قد يكون للشىء أسماء متعددة ، كالمترادفة ، وقد يكون الاسمُ واحدا والمسمياتُ متعددة كالمشترك ؛ وذلك دالٌّ على تغاير الاسم والمسمى .

وأيضاً فالاسمُ لفظٌ وهوعَرَض . والمسمى قد يكون ذاتا ممكنة أو واجبة بذاتها . وأيضا فلفظُ النار والثلج لو كان هو المسمّى لوجد اللافظُ بذلك حَرَّ النار أو بَرْدَ الثلج ونحو ذلك ؛ ولا يقوله عاقل .

وأيضاً فقد قال الله تعالى[1] :(ولله الأسماء الحُسْنَى فادْعُوهُ بها). وقال النبى ﷺ : « إنَّ لله تسعة وتسعين اسما » ؛ فهذه أسماء كثيرة والمسمّى واحد ، وهو الله تعالى .

وأيضاً فقوله : (ولله الأسماء) أضافها إليه ، كما قال[2] : (فَسَبِّح باسْمِ رَبْك العظيم) . ونحو ذلك ؛ فالإضافة تقتضى المغايرة . وقوله تعالى : (فادْعُوه بها) ؛ أى فادْعُوا الله بأسمائه ؛ وذلك دليل على أنها غيره .

واحتجّ مَنْ قال الاسم هو المسمى بقوله تعالى[3] : (تبارك اسْمُ رَبِّكَ ذى الجلالِ والإكرام) . والمتبارك هو الله تعالى .

---

(١) سورة الأعراف ، آية ١٨٠ (٢) سورة الواقعة ، آية ٧٤

(٣) سورة الرحمن ، آية ٧٨

والجوابُ أنَّ الاسم معظّم لتعظيم الذات المقدسة .

وأيضاً فإذا قال الرجل : زينب طالق ـ يعنى امرأته ـ طلقت ، ولو كان الاسم غير المسمى لما وقع الطلاق .

والجواب أن المراد أنَّ الذات المسماة بهذا الاسم طالق .

[قال الرازى: وأما التسمية فإنها جعل الاسم معيّنا لهذه الذات ، فهى غير الاسم أيضاً . والله أعلم][1] .

(الله) : علم على الرب تبارك وتعالى ، يقال : إنه الاسْمُ الأعظم ، لأنه يوصف بجميع الصفات ، كما قال تعالى[2] : (هو اللهُ الذى لا إله إلّا هو عالمُ الغيبِ والشهادةِ هو الرحمنُ الرحيمُ . هو اللهُ الذى لا إلهَ إلا هو الملكُ القدُّوس السلامُ المؤمن المُهَيْمِنُ العزيزُ الجبّارُ المتكبّر سبحانَ الله عما يُشْرِكون . هو اللهُ الخالقُ البارئ المُصوِّرُ له الأسماء الحسنى يُسَبِّحُ له مافى السمواتِ والأرضِ ، وهو العزيزُ الحكيم) ؛ فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له ، كما قال تعالى[3] : (ولله الأسماء الحسنى فادْعُوه بها) . وقال تعالى[4] : (قل ادْعُوا اللهَ أو ادْعُوا الرحمنَ أيًّا ما تَدْعُوا فله الأسماء الحسنى) .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال[5] : « إنَّ لله تسعة وتسعين اسما ، مائةً إلا واحدا مَنْ أحصاها دخل الجنة » . وجاء تعدادُها فى رواية الترمذى[5] [[6] وابن ماجه ، وبين الروايتين اختلاف زيادة ونقصان .

وقد ذكر الرازى فى تفسيره عن بعضهم أنّ لله خمسة آلاف اسمٍ ، ألف

(١) إلى هنا ليس فى ا ، ز .
(٢) سورة الحشر ، آية ٢٢ ـ ٢٤
(٣) سورة الأعراف آية ١٨٠
(٤) سورة الاسراء ، آية ١١٠
(٥) سنن الترمذى : ٥ ـ ٥٣٠
(٦) من هنا ليس فى ا ، ز .

فى الكتاب والسنة الصحيحة ، وألف فى التوراة ، وألف فى الإنجيل ، وألف فى الزَّبور ، وألف فى اللوح المحفوظ][1] .

وهو اسمٌ لم يسمَّ به غيره تبارك وتعالى، ولهذا لا يُعْرَف فى كلام العرب له اشتقاق من فعل يفعل ؛ فذهب مَنْ ذهب من النحاة إلى أنه اسمٌ جامد لا اشتقاق له .

[1][وقد نقله القرطبى[2] عن جماعة من العلماء ، منهم الشافعى ، والخطابى[2] ، وإمام الحرمين، والغزالى، وغيرهم .

ورُوى عن الخليل وسيبويه أنَّ الألفَ واللام فيه لازمة ، قال الخطابى[2] : ألا ترى أنك تقول : يا الله ، ولا تقول يا الرحمن ، فلولا أنه من أصل الكلمة لما جاز إدخالُ حرْف النداء على الألف واللام][1] .

وقيل : إنه مشتق ، واستدلوا عليه بقول رُؤْبة بن العجاج[3] :

لله دَرُّ الغانيات المُدَّهِ[4] سبَّحْنَ واسترجَعْنَ من تألُّهى

فقد صرح الشاعر بلفظ المصدر ، وهو التألّه ، من أَلِهَ يَأْلَهُ إلاهة وتألّها ، كما روى عن ابن عباس أنه قرأ[5] : (ويَذرك وإلَاهتك) ؛ قال عبادتك ؛ أى إنه كان يعبَد ولا يعبُد . وكذا قال مجاهد وغيره .

[1][وقد استدلّ بعضهم على كونه مشتقًّا بقوله تعالى:(وهو الله فى السموات وفى الأرض) ، كما قال تعالى : (وهو الذى فى السماء إلهٌ وفى الأرض إلهٌ) .

ونقل سيبويه عن الخليل أنّ أصله إلَاه مثل فِعَال، فأدخلت الألف واللام بدلا من الهمزة.

---

(١) مابين القوسين ليس فى ا ، ز (٢) تفسير القرطبى : ١ - ١٠٣

(٣) تفسير الطبرى : ١ - ٤١ ، واللسان - أله ، مده ، ونسبه إلى رؤبة أيضا .

(٤) فى ب : المدة !

(٥) سورة الأعراف ، آية ١٢٧ : ويذرك وآلهتك .

قال سيبويه : مثل الناس ، أصله أناس . وقيل : أصل الكلمة لاه ، فدخلت الألف واللام للتعظيم ، وهذا اختيار سيبويه ؛ قال الشاعر[١] :

لَاهِ ابْنُ عَمِّك لا أفْضَلْتَ فى حسَبٍ عنى ولا أنْتَ دَيَّانى فتَخْزُونى

قال القرطبى[١] : بالخاء المعجمة ، أى فتسوسنى .

وقال الكسائى والفراء : أصلُه الإله ، حذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى فى الثانية[٢] ، كما قال : (لكنَّا هُوَ اللهُ ربّى) ، أى لكن أنا . وقد قرأها كذلك الحسن .

قال القرطبى[١] : ثم قيل هو مشتق من وَلَه إذا تحيّر . والوَلَه : ذهاب العقل . يقال رجل وَالِهٌ ، وامرأة[٣] وَلْهَى ، وماء موله[٤] إذا أرسل فى الصحراء . فالله تعالى يُحير أولئك فى الفكر فى حقائق صفاته ؛ فعلى هذا يكون[٥] وِلاه ، فأبدلت الواو همزة ، كما قالوا فى وشاح إشاح ، ووسادة إسادة .

وقال الرازى : وقيل إنه مشتق من أَلِهْتُ إلى فلان ، أى سكنت إليه ؛ فالعقول لا تسكن إلا إلى ذكره ، والأرواح لا تفرح إلا بمعرفته ؛ لأنه الكامل على الإطلاق دون غيره . قال الله تعالى[٦] : (ألا بذكرِ اللهِ تطمئنُّ القلوبُ . الذين آمنوا . . .) .

قال : وقيل مِنْ لاه يَلوه ، إذا احتجب . وقيل اشتقاقه من أَلِه الفَصِيل : أولع بأمه .

(١) تفسير القرطبى : ١ – ١٠٢ (٢) فى القرطبى : فصارتا لاما مشددة .

(٣) فى القرطبى : وامرأة والهة ووالة .

(٤) فى ب : ومولوهة – تحريف . وماء موله هو بضم الميم وتخفيف اللام ، وتشدد ، وبفتح الواو .

(٥) فى القرطبى : يكون أصل إلاه ولاه . (٦) سورة الرعد ، آية ٢٨

والمعنى أنَّ العباد مَألوهون[1] مُولعون بالتضرع إليه فى كل الأحوال .

قال : وقيل مشتق من أَلِه الرجل يأله ، إذا فزِع من أمْرٍ نزل به ، فأَلَهَه ؛ أى أجاره ، فالمجيرُ لجميع الخلائق من كل المضار هو الله سبحانه ؛ لقوله تعالى[2] : (وهو يُجير ولا يُجَارُ عليه) .

وهو المُنْعِم ، لقوله تعالى[3] : (وما بكم مِنْ نعمة فمِنَ الله) .

وهو المطعم ؛ لقوله تعالى[4] : (وهو يُطْعِم ولا يُطْعَم) .

وهو الموجد ؛ لقوله تعالى[5] : (قل كلٌّ من عند الله) .

وقد اختار الرازى أنه اسمٌ غير مشتق البتة ؛ قال: وهو قولُ الخليل، وسيبويه، وأكثر الأصوليين والفقهاء ؛ ثم أخذ يستدلُّ على ذلك بوجوه ؛ منها أنه لو كان مشتقا لاشترك فى معناه كثيرون . ومنها أنَّ بقيةَ الأسماء تُذْكر صفات له ، فتقول الله الرحمن الرحيم الملك القدّوس ؛ فدلَّ أنه ليس بمشتق ؛ قال : فأما قوله تعالى[6] : (العزيزِ الحميد . الله) على قراءة الجرّ - فجعل ذلك من باب عَطْفِ البيان . ومنها : قوله تعالى[7] : (هل تَعْلَم له سَمِيًّا) .

وفى الاستدلال بهذه على كون هذا الاسم جامدا غير مشتق نظَر . والله أعلم .

وحكى الرازى عن بعضهم أنَّ اسْمَ الله تعالى عبرانى لا عربىّ ، ثم ضعفه ، وهو حقيق بالتضعيف ، كما قال . وقد حكى الرازى هذا القول ، ثم قال : واعلم أنَّ الخلائقَ قسمان : واصلون إلى ساحل بَحْرِ المعرفة ، ومحرومون قد بقوا فى ظلمات الحيرة وتيه

(١) فى اللسان : يولهون

(٢) سورة المؤمنون ، آية ٨٨

(٣) سورة النحل ، آية ٥٣

(٤) سورة الأنعام ، آية ١٤

(٥) سورة النساء ، آية ٧٨

(٦) سورة إبراهيم ، آية ١

(٧) سورة مريم ، آية ٦٥

الجهالة ؛ فكأنهم قد فقدوا عقولهم وأرواحهم . وأما الواجدون فقد وصلوا إلى عَرْصَة النور، وفُسْحة الكبرياء والجلال، فتاهُوا فى ميادين الصمدية ، وبادوا فى عرصة الفردانية ؛ فثبت أنَّ الخلائق كلهم وَالِهون فى معرفته .

وروى عن الخليل بن أحمد أنه قال : لأنَّ الخلق يأْلَهون إليه ــ بفتح اللام وكسرها ــ لغتان .

وقيل : إنه مشتق من الارتفاع ؛ فكانت العرب تقول لكل شىء مرتفع[1] : لاهاً ، وكانوا يقولون إذا طلعت الشمس لاهَتْ .

وقيـــل : إنه مشتق من أَلِهَ الرجل ، إذا تعبّد ، وتألّه إذا تنسك . وقرأ ابن عباس[2] : (ويَذَرك وإِلَاهَتَك)[3]] .

وأَصْلُ ذلك الإله ، فحذفت الهمزة التى هى فاء الكلمة ، فالتقت اللامُ التى هى عينها مع اللام الزائدة فى أولها للتعريف ، فأدغمت إحداهما فى الأخرى ، فصارتا فى اللفظ لاما واحدة مشدّدة ونفخمت تعظيما ، فقيل الله .

﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ : اسمان مشتقّان من الرحمة على وَجْه المبالغة . ورَحْمن أشدُّ مبالغة من رحيم . وفى كلام ابن جرير[4] ما يُفْهَم [منه] حكايةُ الاتفاق على هـذا . وفى تفسير بعض السلف ما يدلُّ على ذلك ، كما تقدم فى الأثر عن عيسى عليه السلام أنه قال[5] : والرحمن رحمن الدنيا والآخرة ، والرحيم رحيم الآخرة .
[[5]وزعم بعضُهم أنه غير مشتق ؛ إذ لو كان كذلك لاتّصل بذكر المرحوم ؛ وقد قال[6] : (وكان بالمؤمنين رَحيما) .

---

(١) وتفسير القرطبى : ١ ــ ١٠٣
(٢) سورة الأعراف ، آيـــة ١٢٧ ، وقراءة حفص : ويذرك وآلهتك . وقد تقدم .
(٣) إلى هنا ليس فى ا ، ز .
(٤) تفسير الطبرى : ١ ــ ٤٢
(٥) تفسير الطبرى : ١ ــ ٤٣
(٦) مابين القوسين ليس فى ا ، ز .
(٧) سورة الأحزاب ، آية ٤٣

وحكى ابن الأنبارى فى الزاهر ، عن المبرد ـ أن الرحمن اسم عَبرانى ليس بعربى.
وقال أبو إسحاق الزجاج فى معانى القرآن : وقال أحمد بن يحيى : الرحيم عربى ، والرحمن عبرانى ؛ فلهذا جمع بينهما . قال أبو إسحاق : وهذا القول مرغوب عنه .

وقال القرطبى[١] : والدليل على أنه مشتق ما خرجه الترمذى[٢] ، وصححه عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول[٣] : « قال الله تعالى : أنا الرحمنُ خلقْت الرَّحِمَ ، وشققْتُ لها اسماً من اسمى ، فمَنْ وصلَها وصلته ، ومن قطعها قطعْتُه » .

قال : وهذا نص فى الاشتقاق ، فلا معنى المخالفة والشقاق .

قال : وإنكارُ العرب لاسم الرحمن لجهلهم بالله ، وبما وجب له . قال القرطبى[٤] : ثم قيل : هما بمعنى واحد ، كنَدْمان ونَديم ؛ قاله أبو عبيد .

وقيل : ليس بناء فعلان كفعيل ؛ فإن « فعلان » لا يقع إلا على مبالغة الفعل ، نحو قولك : رجل غضبان ، للرجل الممتلىء غضبا . وفَعِيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول .

قال[٥] أبو على الفارسى : الرحمن اسم عامّ فى جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى . والرحيم إنما هو من جهة المؤمنين ؛ قال الله تعالى : (وكان بالمؤمنين رَحيما).

وقال ابن عباس : هما اسمان رقيقان ، أحدهما أرَقّ من الآخر ؛ أى أكثر رحمة.

ثم حكى عن الخطابى وغيره أنهم استشكلوا هذه الصفة ، وقالوا : لعله أرفق ، كما فى الحديث[٥] : « إنّ الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله ، وإنه يعطى على الرفق ما لا يُعْطِى على العُنْف » .

---

(١) والقرطبى : ١ ـ ١٠٤
(٢) سنن الترمذى : ٤ ـ ٣٢٤
(٣) والقرطبى : ١ ـ ١٠٤
(٤) تفسير القرطبى : ١ ـ ١٠٥
(٥) تفسير القرطبى : ١ ـ ١٠٦

وقال ابنُ المبارك : الرحمن إذا سُئل أعطى ، والرحيم إذا لم يسأل يغضب . وهذا كما جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى ، وابن ماجه ، من حديث أبى صالح الفارسى الخوزى ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ؛ قال : قال رسول الله ﷺ[1] : « من لم يسأل الله يَغْضَب عليه » . وقال بعض الشعراء[2] :

الله يغضبُ إنْ تركْتَ سؤالَه وبُنَىّ[2] آدمَ حين يُسألُ يغضب][3]

وقال ابن جرير[4] : حدثنا السرى بن يحيى التميمى ، حدثنا عثمان بن زُفَر ، سمعت العَزْرَمى يقول: الرحمن الرحيم ؛ قال:الرحمن لجميع الخلق ، الرحيم قال بالمؤمنين. قالوا : ولهذا قال[5] : (ثم اسْتَوَى على العرش الرحمنُ) ، وقال[6] : (الرحمنُ على العرش استوى) ، فذكر الاستواء باسمه الرحمن ، ليعمّ جميع خَلْقه برحمته . وقال : (وكان بالمؤمنين رَحيما) ، فخَصّهم باسمه الرحيم ؛ قالوا : فدلّ على أنّ الرحمن أشدّ مبالغة فى الرحمة ؛ لعمومها فى الدارين لجميع خلقه . والرحيم خاصة بالمؤمنين ؛ لكن جاء فى الدعاء المأثور : رَحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما .

[7][واسمُه تعالى الرحمن خاصّ به لم يسمّ به غيره ؛ كما قال تعالى[8] : (قل ادْعُوا الله أو ادْعُوا الرحمن أيا ما تَدْعُوا فله الأسماء الحُسنى) وقال تعالى[9] : (واسأل مَنْ أرسلنا من قبلك من رسُلنا أَجَعَلْنا من دون الرحمن آلهةً يُعبَدون) .

ولما تجهرم مسيلمةُ الكذاب ، وتسمَّى برحمن اليمامة ، كساه الله جلْباب

(١) تفسير القرطبى : ١ – ١٠٥

(٢) تفسير القرطبى : ١ – ١٠٦

(٣) إلى هنا ساقط فى ١ ، ز .

(٤) تفسير الطبرى : ١ – ٤٣

(٥) سورة الفرقان ، آية ٥٩

(٦) سورة طه ، آية ٥

(٧) مابين القوسين ليس فى ز .

(٨) سورة الإسراء ، آية ١١٠

(٩) سورة الزخرف ، آية ٤٥

الكذب، وشهر به، فلا يقال إلا مسيلمة الكذاب ، فسار يضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضر من أهل المدر، وأهل الوبر من أهل البادية والأعراب][٧] .

وقدزعم بعضهم أنَّ الرحيم أشدُّ مبالغة من الرحمن، لأنه أكِّد به. والمؤكِّد[١] لا يكون إلا أقوى من المؤكَّد .

والجواب أنَّ هذا ليس من باب التأكيد[٢]، وإنما هو من باب النعت ؛ ولا يلزم فيه ما ذكروه .

وعلى هذا [١٧] فيكون تقدير اسم الله الذى لم يسمَّ به أحد غيره ، ووصفه أولا بالرحمن الذى منع من التسمية به لغيره ، كما قال تعالى[٣] : (قل ادْعُوا الله أوادْعُوا الرحمنَ أيا ما تَدْعُوا فله الأسماء الحسنى)؛ وإنما تجهرمَ مسيلمةُ اليمامة فى التسمّى به ، ولم يتابعه على ذلك إلا مَنْ كان معه فى الضلالة .

وأما الرحيم فإنه تعالى وصَف به غيره حيث قال[٤] : (لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ حَريصٌ عليكم بالمؤمنين رءوف رَحِيم) ؛ كما وصف غيره بذلك من أسمائه، كما[٥] قال تعالى[٦] : (إنّا خلقنا الإنسانَ من نُطْفةٍ أمشاجٍ نبتليه فجعلناهُ سميعاً بَصِيرا) .

والحاصل أنَّ من أسمائه تعالى ما يسمَّى به غَيْرُه ، ومنها مالا يسمى به غيره ؛ كاسم الله، والرحمن ، والخالق ، والرازق ، ونحو ذلك ؛ فلهذا بدأ باسم الله، ووصفه بالرحمن ؛ لأنه أخصُّ وأعرف من الرحيم ؛ لأنَّ التسمية أولا إنما تكون بأشرف الأسماء ؛ فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص .

---

(١) فى ز : والتأكيد . (٢) فى ز: التوكيد . (٣) سورة الإسراء ، آية ١١٠

(٤) سورة التوبة، آية ١٢٨ (٥) فى ز : فى قوله تعالى.

(٦) سورة الإنسان ، آية ٢. نطفة أمشاج:فيها نطفتان مختلطتان . وقيل : نطفة أمشاج : أى أنواع مختلفة؛ إذ كانت ذات طبائع مختلفة.وقيل أمشاج : أى ذات أطوار متتابعة (المعجم) .

فإن قيل : فإذا كان الرحمن أشــدّ مبالغةً فهلاّ اكتفى به عن الرحيم ؟ فقد روى عن عطاء الخراسانى ما معناه أنه لما تسمَّى غيره تعالى بالرحمن جىء بلفظ الرحيم ؛ ليقطع الوهم[1] بذلك ؛ فإنه لا يوصفُ بالرحمن الرحيم إلا الله تعالى ، كذا رواه ابنُ جرير ، عن عطاء ؛ ووجّهه بذلك ، والله أعلم .

وقد زعم بعضُهم أن العربَ لا تعرف الرحمن حتى ردَّ الله عليهم ذلك بقوله[2] : (قل ادْعُوا اللهَ أو ادعوا الرحمنَ أيا ماتَدْعُوا فله الأسماء الحسـنى) . ولهذا قال كفَّار قريش يوم الحُدَيْبية لما قال رسولُ الله ﷺ لعلى : اكتُبْ (بسم الله الرحمن الرحيم) ؛ فقالوا : لا نعرف الرحمن ولا الرحيم . رواه البخارى . وفى بعض الروايات : لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة . وقال تعالى[3] : (وإذا قيـل لهم اسجدُوا للرحمن قالوا : وما الرحمنُ أنسجدُ لِمَا تأمرنا وزادهم نُفُورا) .

والظاهر أنَّ إنكارهم هذا إنما هو جحود وعِنَاد وتعنّت فى كفرهم ، فإنه قد وُجد فى أشعارهم فى الجاهلية تسميةُ الله تعالى بالرحمن .

قال ابن جرير[4] : وقد أنشد بعض الجاهلية الجهال[4] :

ألَا ضربَتْ تلكَ الفتاةُ هَجِينها ألَا قضَبَ الرحمنُ رَبِّى يمينها

وقال سلامة بن جندب الطُّهَوى[5] :

عجلتُم علينا إذ عجلْنَا عليكم وما يشأ الرحمن يَعْقد ويُطْلِق

وقال ابن جرير[6] : حدثنا أبو كُريب ، حدثنا عثمان بن سعيد ، حدثنا بشر بن عمارة ، حدثنا أبو رَوْق ، عن الضحاك ، عن عبد الله بن عباس ؛ قال : الرحمن الفعلان من الرحمة ،

---

(١) فى ز : التوهم . (٢) سورة الإسراء ، آية ١١٠ (٣) سورة الفرقان ، آية ٦٠

(٤) تفسير الطبرى : ١ - ٤٤ (٥) تفسير الطبرى : ١ - ٤٤ ، وفيه : عجلتم علينا عجلتينا عليكم .

(٦) فى تفسير الطبرى : ١ - ٤٤

وهو من كلام العرب ، وقال (الرحمن الرحيم) الرفيق الرقيق لمن أحبَّ أن يرْحمه ، والتعيد الشديد على مَنْ أحبَّ أن يعنف عليه ، وكذلك أسماؤه كلها .

وقال ابن جرير[١] أيضا : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا حماد بن مسعدة ، عن عوف ، عن الحسن ، قال: الرحمن اسم ممنوع[٢] .

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد يحيى بن سعيد القطّان، حدثنا زيد بن الحُباب[٣]، حدثني أبو الأشهب، عن الحسن؛ قال: الرحمن اسم لا يستطيع الناسُ أن ينتحلوه، تسمَّى به تبارك وتعالى .

[وقد جاء في حديث أم سلمة أنّ رسولَ الله ﷺ كان يقطّع قراءته حرفا حرفا : (بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين)؛ فقرأ بعضُهم كذلك، وهم طائفة . ومنهم مَنْ وصلها بقوله : (الحمد لله رب العالمين)، وكسرت الميم لالتقاء الساكنين وهم الجمهور ، وحكى الكسائي من الكوفيين عن بعض العرب أنها تُقْرَأ بفتح الميم وصلة الهمزة ، فيقولون : بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين ؛ فنقلوا حركة الهمزة إلى الميم بعد تسكينها ، كما قرئ قوله تعالى: (الم الله لا إله إلا هُوَ) .

قال ابن عطية : ولم ترد هذه قراءة عن أحد فيما علمت][٤] .

---

(١) تفسير الطبري : ١ – ٤٦ (٢) ممنوع ؛ أي من التسمية به .

(٣) في ا : الجباب . وتراه تحريفا .

(٤) ما بين القوسين ليس في ا ، ز . وحديث أم سلمة قد تقدم .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾

(١)[القراءة المتبعة(١) على ضمِّ الدال فى قوله:« الحمدُ لله » ، وهو مبتدأ وخبر .
وروى عن سفيان بن عُيينة ورؤبة بن العجاج أنهما قالا :(الحمدَ لله) ـ بالنصب، وهو على إضمار فِعْل . وقرأ ابن أبى عَبْلَة « الحمد لله »بضم الدال واللام إتباعا للثانى الأول ، وله شواهدُ ، لكنه شاذّ . وعن الحسن وزيد بن على (الحمد لله) بكسر الدال إتباعا للأول الثانى](١) .

قال أبو جعفر بن جرير(٢) : معنى (الحمد لله) : الشكرُ لله خالصا دون سائر ما يُعْبَد من دونه ، ودون كلِّ ما برأ(٣) من خلقه، بما أنعم على عباده من النعم التى لايحصيها العدد ، ولا يُحيطُ بعددها غيره أحد ، فى تصحيح الآلات لطاعته ، وتمكين جوارح أجسام المكلّفين لأداء فرائضه،مع مابسط لهم فى دنياهم من الرزق، وغذاهم به من نعيم العيش ، من غير استحقاقٍ منهم ذلك عليه ، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود فى دار المقام فى النعيم المقيم ، فلربِّنا الحمدُ على ذلك كله أولا وآخرا . (٤)[وقال ابن جرير رحمه الله(٥) : الحمد لله ثناء أثنى به على نفسه . وفى ضِمْنه أمر عباده أن يثنوا عليه ، فكأنه قال : قولوا : الحمد لله](٤) .

قال:وقد قيل:إن قول القائل:الحمد لله ثناء عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى(٦) . وقوله : الشكر لله ثناء عليه بنعمه وأياديه .

(١) والقرطبى : ١ ـ ١٣٥،والتبيان : ١ ـ ٥ ، وما بين القوسين ليس فى ا ، ز .
(٢) تفسير الطبرى : ١ ـ ٤٦ (٣) فى الطبرى : ما برى ـ تحريف .
(٤) ما بين القوسين ليس فى ز . (٥) تفسير الطبرى : ١ ـ ٤٦
(٦) فى ز ، والطبرى : بأسمائه وصفاته الحسنى .

ثم شرع فى ردّ ذلك بما حاصِلُه أنَّ جميعَ أهلِ المعرفة بلسان العرب يوقعون كلا من الحمد والشكر مكانَ الآخر . [(١)][وقد نقل السلمى هذا المذهب: أنهما سواء – عن جعفر الصادق ، وابن عطاء من الصوفية .

وقال ابن عباس: الحمد لله كلمة كل شاكر . وقد استدل القرطبى [(٢)] لابن جرير بصحة قَوْلِ القائل : الحمد لله شكرا][(١)] .

وهذا الذى ادعاه ابن جرير فيه نظر ؛ لأنه اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين أنَّ الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية ، والشكر لا يكون إلا على المتعدية ، ويكون بالجَنَان واللسان والأركان ؛ كما قال الشاعر [(٣)] :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى والضمير المحجّبا

ولكنهم اختلفوا أيهما أعم : الحمد أو الشكر ؟ على قولين: والتحقيق أنّ بينهما عموما وخصوصا ، فالحمد أعمّ من الشكر من حيثُ ما يقعان عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية ، تقول : حمدته لفروسيته ، وحمدته لكرمه ، وهو أخصّ ، لأنه لا يكون إلا بالقول ، والشكرُ أعمّ من حيث ما يقعان عليه ؛ لأنه يكون بالقول والفعل والنية كما تقدم . وهو أخَصّ لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية ، لا يقال : شكرته لفروسيته ؛ وتقول : شكرته على كرمه وإحسانه [١٨] إلخ .

هذا حاصل ما حرره بعضُ المتأخرين . والله أعلم .

وقال أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهرى : الحمد : نقيض الذم ، تقول : حمدت

---

(١) ما بين القوسين ليس فى ز . (٢) تفسير القرطبى : ١ – ١٣٣

(٣) والكشاف : ١ – ٦ ، وشواهده : ٨ ، ولم ينسبه . وفى ا : أفادتهم – بدل أفادتكم .

الرجل أَحْمَده حمدا ومَحْمَدة ، فهو حميد ، ومحمود . والتحميد : أبلغُ من الحمد ، والحمدُ أعمُّ من الشكر .

وقال فى الشكر : هو الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف ، يقال : شكرته وشكرتُ له ، وباللام أفصح . (١)[وأما المدحُ فهو أعمُّ من الحمد ؛ لأنه يكون للحىّ وللميت وللجماد أيضا ، كما يمدح الطعام والمكان ونحو ذلك . ويكون قبل الإحسان وبعده ، وعلى الصفات المتعدية واللازمة أيضا ؛ فهو أعمّ](١) .

ذكر أقوال السلف فى الحمد

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو مَعْمَر القَطِيعى ، حدثنا حفص ، عن حجاج ، عن ابن أبى مُليكة ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ؛ قال : قال عمر رضى الله عنه : قد علمنا سبحان الله ، ولا إله إلا الله ، فما الحمد لله ؟ فقال علىّ : كلمة رَضِيها اللهُ لنفسه .

ورواه غير أبى مَعْمر عن حفص ؛ فقال : قال عُمر لعلى ـ وأصحابه عنده ـ لا إله إلا الله ، وسبحان الله ، والله أكبر ـ قد عرفناها ، فما الحمد لله ؟ قال علىّ : كلمةٌ أحبَّها الله تعالى لنفسه ، ورَضِيها لنفسه ، وأحبَّ أنْ تُقال .

وقال على بن زيد بن جُدْعان ، عن يوسف بن مِهْرَان ؛ قال ابن عباس : الحمد لله كلمة الشكر ، وإذا قال العبد الحمد لله قال : شكرنى عبدى . رواه ابن أبى حاتم .

وروى أيضا هو ، وابن جرير[٢] ، مِنْ حديث بشر بن عمارة ، عن أبى رَوْق ،

(١) ما بين القوسين ليس فى ا ، ز .

(٢) تفسير الطبرى : ١ ـ ٤٦ ، والدر المنثور : ١ ـ ١١

عن الضحاك ، عن ابن عباس ـ أنه قال : الحمد لله هو الشكر لله ، والاستخذاء له ، والإقرار له بنعمته وهدايته وابتدائه وغير ذلك .

وقال كعب الأحبار: الحمد لله ثناء الله . وقال الضحاك : الحمد لله رداء الرحمن. وقد ورد الحديث بنحو ذلك .

قال ابن جرير(١) : حدثنا سعيد بن عمرو السكوني ، حدثنا بقيّة بن الوليد ، حدثني عيسى بن إبراهيم ، عن موسى بن أبي حبيب ، عن الحكم بن عُمير ، وكانت له صحبة ، قال : قال رسولُ الله ﷺ : إذا قلْتَ الحمد لله رب العالمين فقد شكرتَ الله فزادك .

وقد روى الإمام(٢) أحمد بن حنبل : حدثنا رَوح ، حدثنا عوف ، عن الحسن ، عن الأسود بن سَريع ؛ قال : قلت: يا رسولَ الله؛ألا أنشدك محامدَ حمدتُ بها ربّ تبارك وتعالى ؟ فقال : « أما إنّ ربك يحبُّ الحمد » .

ورواه النسائي عن علي بن حُجْر ، عن ابن عُلَيّة ، عن يونس بن عبيد ، عن الحسن ، عن الأسود بن سَريع ، به .

وروى (٣)[أبو عيسى الحافظ](٣) الترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه من حديث موسى بن إبراهيم بن كَثير ، عن طلحة بن خِرَاش ، عن جابر بن عبد الله ؛ قال : قال رسول الله ﷺ(٤): « أفضلُ الذكر لا إله إلا الله، وأفضلُ الدعاء الحمد لله ». وقال الترمذي : حسن غريب .

---

(١) تفسير الطبري : ١ ـ ٤٦ ، والدر المنثور : ١ ـ ١١

(٢) مسند أحمد : ٢ـ٤٣٥ (٣) ليس في ا ، ز .

(٤) سنن ابن ماجه : ١٢٤٩ ، والدر المنثور : ١ ـ ١١

[وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك رضى الله عنه ؛ قال : قال رسول الله ﷺ[١] : «ما أنعم اللهُ على عَبْدٍ نعمة ، فقال الحمد لله، إلا كان الذى أعطى أفضل مما أخذ » .

وقال القرطبي[٢] فى تفسيره : وفى نوادر الأصول ، عن أنس ، عن النبي ﷺ ؛ قال : « لو أنَّ الدنيا بحذافيرها فى يَدِ رجل من أُمتى، ثم قال الحمدُ للهِ لكان الحمدُ للهِ أفضلَ من ذلك » . قال القرطبي وغيره : أى لكان إلهامه الحمد لله أكثر نعمةً عليه من نعم الدنيا، لأن ثوابَ الحَمْدِ لايفنى، ونعيم الدنيا لا يبقى؛ قال الله تعالى[٣] : ﴿المالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدنيا والباقياتُ الصالحاتُ خَيْرٌ عند ربك ثوابا وخَيْرٌ أملا ﴾ .

وفى سنن ابن ماجه[٤] ، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ حدثهم أنَّ عبداً من عباد الله قال : يارب ؛ لك الحمْدُ كما ينبغى لجلال وجهك وعَظيم سلطانك ، فعضَّلَت[٥] بالملكين ، فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعِدَا إلى الله ، فقالا : يا ربنا ، إنَّ عبداً قد قال مقالةً لاندرى كيف نكتبها. قال الله ــ وهو أعلم بما قال عبْدُه : ماذا قال عبدى؟ قالا : يارب، إنه قال: لك الحَمْدُ يارب كما ينبغى لجلال وَجهك وعظيم سلطانك . فقال الله لهما : « اكتباها كما قال عبدى حتى يلْقانى فأَجْزِيه بها » .

وحكى القرطبي[٦] عن طائفة أنهم قالوا : قولُ العبدِ : الحمد لله رب العالمين أفضلُ من قوله: لا إله إلا الله، لاشتمال الحَمْد لله رب العالمين على التوحيد مع الحمد .

(١) سنن ابن ماجه ١٢٥ ، وتفسير القرطبي : ١ ــ ١٣١ ، والدر المنثور : ١ ــ ١٢
(٢) التفسير : ١ ــ ١٣١ (٣) سورة الكهف ، آية ٤٦
(٤) سنن ابن ماجه : ١٢٤٩ ، وتفسير القرطبي : ١ ــ ١٣٢
(٥) عضلت بالملكين : أعضلنى فلان : أعيانى أمره . وقوله : فلم يدريا كيف يكتبانها تفسير له .
(٦) تفسير القرطبي : ١ ــ ١٣٢

وقال آخرون : لا إله إلا الله أفضل ؛ لأنها تَفْصِل بين الإيمان والكفر ، وعليها يقاتَلُ الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، كما ثبت فى الحديث المتفق عليه .

وفى الحديث الآخر[١] : « أفضلُ ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وَحْدَه لاشريكَ له » .

وقد تقدم عن جابر مرفوعا : « أفضلُ الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله » . وحسّنه الترمذى][٢] .

والألف واللام فى « الحمد » لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى ، كما جاء فى الحديث : « اللهم لكَ الحمد كله ، ولك الملك كله ، وبيدك الخير كله ، وإليكَ يرجع الأمْرُ كله » . الحديث .

والرب : هو المالك المتصرف . ويطلق فى اللغة على السيد ، وعلى المتصرف للإصلاح ؛ وكلُّ ذلك صحيح فى حق الله تعالى ، [٣[ولا يستعمل الرب لغيرِ الله ، بل بالإضافة ؛ تقول : ربّ الدار ، ربّ كذا . وأما الرب فلا يقالُ إلا لله عز وجل، وقد قيل : إنه الاسم الأعظم][٣] .

والعالمين : جمع عالم ، [٣[وهو كلُّ موجود سوى الله عز وجل][٣] .

والعالَم : جمع لا واحد له من لفظه . والعوالم أصناف المخلوقات فى السموات وفى البر والبحر ، وكل قَرْن منها وجيل يسمى عالما أيضا .

قال بشر[٤] بن عمارة ، عن أبى رَوْق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « الحمد لله رب العالمين » : الحمد لله الذى له الخَلْقُ كله : السموات والأرض وما[٥] فيهنّ وما بينهن مما نعلم ومما لانعلم .

---

(١) وتفسير القرطبى : ١ – ١٣٢
(٢) إلى هنا ليس فى ز .
(٣) ليس فى ا ، ز .
(٤) تفسير الطبرى : ١ – ٤٨
(٥) فى الطبرى ، ز : ومن فيهن ..

وفى رواية سعيد بن جُبير، وعكرمة عن ابن عباس[(١)] : ربّ الجن والإنس . وكذلك قال سعيد بن جُبير، ومجاهد، وابن جُريج، وروى عن علىّ نحوه . وقال ابن أبى حاتم: بإسناد لا يعتمد عليه[(٢)]. [واستدل القرطبى[(٣)] لهذا القول بقوله تعالى[(٤)]: (ليكونَ للعالَمين نذيرا)؛ وهم الجن والإنس. قال الفراء، وأبو عُبَيْدة: العالم عبارة عما يعقل، وهم الإنس، والجنّ، والملائكة، والشياطين؛ ولا يقال للبهائم عالم .

وعن زيد بن أسلم، وأبى مُحَيْصِن : العالم كلّ ما لَه رُوح تُرَفْرِف][(٢)] .

وقال قتادة: رب العالمين كل صنف عالم. [(٢)][وقال الحافظ ابن عساكر فى ترجمة مروان بن الحكَم، وهو أحد خلفاء بنى أمية، وهو يعرف بالجَعْد، ويلقب بالحمار - أنه قال : خلق اللهُ سبعةَ عشر ألف عالَم ؛ أهل السموات وأهل الأرض عالم واحد، وسائرهم لا يعلمهم إلا الله عزّ وجل][(٢)] .

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية - فى قوله تعالى : (رب العالمين) - قال : الإنس عالم، والجن عالم، وما سوى ذلك ثمانية عشر ألف، أو أربعة عشر ألف عالم - هو يشكُّ - الملائكة[(٥)] على الأرض، وللأرض أربعُ زوايا، فى كل زاوية ثلاثة آلاف عالم وخمسمائة عالم، خلقهم الله لعبادته. رواه ابن جرير[(٥)]، وابن أبى حاتم .

[وهذا كلام غريب يحتاج مثله إلى دليل صحيح][(٦)] .

وقال ابن أبى حاتم[(٧)]: حدثنا أبى، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الوليد بن مسلم،

---

(١) تفسير الطبرى : ١ - ٤٨
(٢) ما بين القوسين ليس فى ا، ز .
(٣) تفسير القرطبى : ١ - ١٣٨
(٤) سورة الفرقان، آية ١
(٥) فى تفسير الطبرى (١ - ٤٩) : من الملائكة، وكذلك فى الدر المنثور : ١ - ١٣
(٦) ما بين القوسين ليس فى ز
(٧) والدر المنثور : ١ - ١٣

حدثنا الفرات – يعنى ابن الوليد ، عن مُعَتِّب بن سُمَىّ عن تُبَيْع[١] – يعنى الحميرى – فى قوله تعالى : (رَبِّ العالمين) ؛ قال: العالمين ألف أمة ، فستمائة فى البحر، وأربعمائة فى البر .

[٢][وحكى مثله عن سَعِيد بن المسيِّب][٢] .

وقد روى نحو هذا مرفوعا ، كما قال الحافظ أبو يَعْلَى أحمد بن على بن المثنى فى مسنده : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا عُبَيد بن واقد القَيْسى أبو عباد ، حدثنى محمد ابن عيسى بن كَيْسان ، حدثنا محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله ؛ قال : قلّ الجرادُ فى سنة من سنى عُمر التى ولى فيها ، فسأل عنه فلم يخبر بشىء ، فاغتمّ لذلك ، فأرسل راكبا يضربُ إلى اليمن ، وآخر إلى الشام ، وآخر إلى العراق ، يسألُ : هل رؤى من الجراد شىء أم لا ؟ قال : فأتاه الراكبُ الذى من قِبَل اليمن بقبضة من جَرادٍ ، فألقاها بين يديه ؛ فلما رآها كبّر ، ثم قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « خلق اللهُ ألفَ أمة [١٩] ؛ ستمائة فى البحر ، وأربعمائة فى البر ؛ فأولُ شىء يهلك من هذه الأمم الجراد، فإذا هلك تتابعت مثل النظام إذا قطع سلكه » . محمد بن عيسى هذا ، وهو الهلالى ، ضعيف .

[٢][وحكى البغوى، عن سعيد بن المسيب – أنه قال: لله ألف عالم: ستمائة فى البحر وأربعمائة فى البر . وقال وهب بن مُنَبه : لله ثمانية عشر ألف عالم ؛ الدنيا عالم منها . وقال مقاتل : العوالم ثمانون ألفاً . وقال كعب الأحبار : لا يعلم عددَ العوالم إلا الله عز وجل – نقله كله البغوى .

وحكى القرطبى[٣] عن أبى سعيد الخُدْرى أنه قال : إنّ لله أربعين ألف عالم ، الدنيا من شَرْقها إلى مغربها عالم واحد منها .

(١) فى ب : سبيع – تحريف . والمثبت فى الدر المنثور أيضا وفى ز أيضا .
(٢) ما بين القوسين ليس فى ز (٣) فى تفسيره : ١ – ١٣٨

وقال الزجاج : العالم : كلّ ما خلق الله فى الدنيا والآخرة .

قال القرطبى[١] : وهذا هو الصحيح أنه شامل لكل العالمين ؛ كقوله[٢] : (قال فرعونُ وما رَبُّ العالمين . قال ربُّ السموات والأرض وما بينهما إن كنتُم مُوقنين) .

والعالم : مشتقّ من العلامة . قلت : لأنه علم دال على وجود خالقه وصانعه ووحدانيته ؛ كما قال ابن المعتز[٣] :

فيا عجبا كيف يُعْصَى الإلـــه أم كيف يجحده الجاحدُ

وفى كل شىء له آيةٌ تدلُّ على أنه واحِـــدُ][٤]

﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٣) ﴾

وقوله تعالى : (الرحمن الرحيم) تقدم الكلام[٥] عليه فى البسملة بما أغنى عن الإعادة .

[٤][قال القرطبى[٦] : إنما وصف نفسه بالرحمن الرحيم بعد قوله : «رب العالمين» ليكون من باب قرن الترغيب بعد الترهيب ؛ كما قال تعالى[٧] : (نَبِّئْ عِبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأنَّ عذابى هو العذابُ الأليم) . وقوله تعالى[٨] : (إنَّ ربَّك سَريعُ العقاب ، وإنه لغفور رحيم) . قال : فالربُّ فيه ترهيب ، والرحمن الرحيم ترغيب .

---

(١) تفسير القرطبى : ١ – ١٣٩ (٢) سورة الشعراء ، آية ٢٣

(٣) البيت الثانى فى البحر المحيط : ١ – ١٦٩ ، والبصائر : ٣ – ٣٥٢ ، غير منسوب ، ولم أقف عليهما فى ديوانه .

(٤) مابين القوسين ليس فى ز .

(٥) صفحة ٦٤ ، وما بعدها (٦) تفسير القرطبى : ١ – ١٣٩

(٧) سورة الحجر ، آية ٤٩ ، ٥٠ (٨) سورة الأنعام ، آية ١٦٥

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة[١] قال : قال رسول الله ﷺ : « لو يَعلَمُ المؤمنُ ما عند الله من العقوبة ما طمع فى جنَّته أحدٌ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قَنطَ من رحمته أحد][٢] .

﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ(٤) ﴾

قرأ بعضُ القراء[٣] : (ملك يوم الدين) . وقرأ آخرون (مالك) ، وكلاهما صحيح متواتر فى السبع.[٢][ويقال مِلك[٤] -بكسر اللام وبإسكانها، ويقال مَليك أيضاً، وأشبَع نافع كسرةَ الكاف ؛ فقرأ (مَلكِى يوم الدين) . وقد رجَّح كلًّا من القراءتين مرجِّحُون من حيث المعنى ، وكلتاهما صحيحة حسنة . ورجَّح[٥] الزمخشرى ملك ؛ لأنها قراءة أهل الحرمين ؛ ولقوله[٦] : (لِمَنِ المُلْكُ اليوم). (قولُه[٧] الحق وله المُلك) .

وحكى عن أبى حنيفة أنه قرأ (مَلَكَ يوم الدين)،على أنه فِعْل وفاعل ومفعول. وهذا شاذٌّ غريب جداً][٢] .

وقد روى أبو بكر بن أبى داود فى ذلك شيئاً غريباً حيث قال : حدثنا أبو عبد الرحمن الأذْرمى[٨]، حدثنا عبد الوهاب بن عدى بن الفضل، عن أبى المطرف

---

(١) تفسير القرطبى: ١ - ١٣٩ ،وصحيح مسلم ٢١٠٩ (٢) مابين القوسين ليس فى ز .

(٣) وتفسير الطبرى : ١ - ٥٠ ، وتفسير القرطبى : ١ - ١٣٩ ، والتبيان : ١ - ٦ ، والكشف : ١ - ٢٥

(٤) فى ب : مالك - تحريف . (٥) الكشاف : ١ - ٧

(٦) سورة غافر ، آية ١٦

(٧) سورة الأنعام ، آية ٧٣ ، وفى الكشاف : لقوله : لمن الملك اليوم - ولقوله : ملك الناس . لأن الملك يعم ، والملك يخص .

(٨) فى ب : الأزدى - تحريف . والمثبت فى ا ، ز ، و اللباب .

عن ابن شهاب ـ أنه بلغه أنّ رسولَ الله ﷺ وأبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، ومعاوية وابنه يزيد بن معاوية ، كانوا يقرءون (مالك يوم الدين) . قال ابن شهاب: وأول من أحدث « ملك » مَرْوان .

قلت : مروان عنده علم بصحة ما قرأه ، لم يطلع عليه ابن شهاب . والله أعلم .

وقد رُوِى من طرق متعددة أوردها ابنُ مَرْدويه أنّ رسول الله ﷺ كان يقرؤها (مالك يَوْمِ الدين)، ومالك مأخوذ من الملك ، كما قال تعالى[1]: (إنَّا نحن نَرِثُ الأرض ومَنْ عليها وإلينا يرجعون). وقال[2] : (قل أعوذ بربِّ الناس مَلك الناس) . وملك مأخوذ من المُلْك . كما قال تعالى[3] : (لِمَن المُلْكُ اليومَ للهِ الواحدِ القهار) . وقال[4]: (قولُه الحقُّ وله الملك) . وقال[5]:(المُلْك يومئذ الحقُّ للرحمن وكان يوما على الـكافرين عَسِيرا) .

وتخصيص الملك بيوم الدين لاينفيه عمّا عداه ؛ لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رَبّ العالمين ، وذلك عام فى الدنيا والآخرة ، وإنما أضيف إلى يوم الدين ، لأنه لايدَّعى أحد هنالك شيئا ، ولا يتـكلم أحد إلا بإذنه، كما قال تعالى[6] : (يوم يقومُ الرُّوح والملائـكةُ صفًّا لايتـكلمون إلا مَنْ أذِنَ له الرحمنُ وقال صَوَابا). وقال تعالى[7]: (وخشعَتِ الأصواتُ للرحمن فلا تسمَعُ إلا همْسا) . وقال تعالى[8] : (يوم يأتِ لاتـكلّم نَفْسٌ إلا بإذنه فمنهم شقىّ وسعيد) .

وقال الضحاك عن ابن عباس : (مالك يوم الدين) يقول : لا يملكُ أحدٌ معه فى ذلك اليوم حكما ، كملـكهم فى الدنيا ؛ قال : ويوم الدين : يوم الحساب للخلائق؛

(١) سورة مريم ، آية ٤٠
(٢) سورة الناس ، آية ١
(٣) سورة غافر ، آية ١٦
(٤) سورة الأنعام ، آية ٧٣
(٥) سورة الفرقان ، آية ٢٦
(٦) سورة النبأ ، آية ٣٨
(٧) سورة طه ، آية ١٠٨
(٨) سورة هود ، آية ١٠٥

وهو يوم القيامة يَدِينهم بأعمالهم إنْ خيرًا فخير وإنْ شرًّا فشر ، إلا مَنْ عفا عنه . وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف ، وهو ظاهر .

وحكى ابن جرير[1] عن بعضهم أنه ذهب إلى أنّ تفسير مالكِ يوم الدين أنه القادر على إقامته ، ثم شرع يضعفه .

والظاهر أنه لا منافاة بين هذا القول وما تقدم ، وأنّ كلا من القائلين لهذا[2] القول وبما قبله يعترف بصحة القول الآخر ، ولا ينكره ؛ ولكن السياق أدلّ على المعنى الأول من هذا ؛ كما قال تعالى[3] : (الملك يومئذ الحقُّ للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً) .

والقول الثانى يشبه قوله تعالى[4] : (ويوم يقول كُنْ فيكون) . والله أعلم .

[5] [والمِلكُ فى الحقيقة هو الله عز وجل ، قال الله تعالى[6] : (هُوَ اللهُ الذى لا إلهَ إلا هو المَلِك القُدُّوس السلام . . .) .

وفى الصحيحين ، عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا[7] : « أَخْنَعُ اسم عِنْدَ الله رجلٌ تسمّى بملك الأملاك ، ولا مالك إلا الله » .

وفيهما عنه عن رسول الله ﷺ قال[8] : « يَقْبِضُ الله الأرض ، ويَطْوِى السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا المَلِكُ ، أين ملوكُ الأرض ؟ أين الجبّارون ؟ أين المتكبرون ؟ »

(١) تفسير الطبرى : ١ - ٥١
(٢) فى ز : بهذا القول .
(٣) سورة الفرقان ، آية ٢٦
(٤) سورة الأنعام ، آية ٧٣
(٥) مابين القوسين ليس فى ا ، ز .
(٦) سورة الحشر ، آية ٢٣
(٧) سنن الترمذى : ٥ - ١٣٤ ، ومسند أحمد : ٢ - ٢٤٤ ، وصحيح مسلم ١٦٨٨ ؛ وأخنع : قيل بمعنى أفجر .
(٨) صحيح مسلم : ١٤٨ ٢

وفى القرآن العظيم[١] : (لمن المُلْكُ اليومَ ؟ للهِ الواحدِ القهّار) . فأمّا تسميةُ غيره فى الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز ؛ كما قال تعالى[٢] : (إنّ الله قد بعث لكم طالوت ملكا) . (وكان وَراءهم مَلك[٣]) . (إذ جعلَ فيكم أنبياء وجعلكم مُلوكاً[٤]) . وفى الصحيحين[٥] : « مثل الملوكِ على الأسرّة » .

والدين : الجزاء والحساب، كما قال تعالى[٦] : (يومئذٍ يُوفّيهم اللهُ دِينَهم الحق). وقال[٧] : (أئنّا لَمَدِينُون) ؛ أى مجزيُّون محاسبون . وفى الحديث[٨] : « الكيِّس من دَانَ نفسه ، وعمل لما بعد الموت » ؛ أى حاسب نفسه ؛ كما قال عمر رضى الله عنه : «حاسبوا أنفسكم قبل أنْ تُحَاسبُوا ، وزنُوا أنفسكم قبل أن توزنوا،وتأهّبُوا للعَرْض الأكبر على مَنْ لا تخفى عليه أعمالكم».[٩] (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُون لاتَخْفَى منكم خافِيَةٌ)] .

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) ﴾

[[١٠]قرأ السبعة[١١] والجمهور بتشديد الياء من إيّاك. وقرأ عَمْرو بن فايد بتخفيفها مع الكسر ، وهى قراءة شاذة مردودة ؛ لأنّ « إيَا » ضوء الشمس . وقرأ بعضهم أَياك ـ بفتح الهمزة وتشديد الياء . وقرأ بعضهم هِيّاك ؛ فالهاء بدل الهمزة ، كما قال الشاعر[١١] :

(١) سورة غافر ، آية ١٦ (٢) سورة البقرة ، آية ٢٤٧
(٣) سورة الكهف ، آية ٧٩ (٤) سورة المائدة ، آية ٢٠
(٥) سنن الترمذى : ٤ ـ ١٧٨ ، ومسند أحمد : ٣ ـ ٢٦٤
(٦) سورة النور ، آية ٢٥ (٧) سورة الصافات ، آية ٥٣
(٨) سنن الترمذى : ٤ ـ ٦٣٨ ، ومسند أحمد : ٤ ـ ١٢٤
(٩) سورة الحاقة ، آية ١٨ (١٠) مابين القوسين ليس فى ا ، ز
(١١) وتفسير القرطبى : ١ ـ ١٤٦

فهيَّاكَ والأمر الذى إنْ تراحبت[1] مواردُه ضاقت عليك مصادرُه

ونستعين – بفتح النون أول الكلمة فى قراءة الجميع سوَى يحيى بن وثّاب ، والأعمش ، فإنهما كسراها ؛ وهى لغة بنى أسد وربيعة وبنى تميم].

والعبادة فى اللغة من الذلّة ، يقال : طريق معبّد ، وبعير معبّد ؛ أى مذلل .

وفى الشرع عبارة عما يجمع كمالَ المحبة والخضوع والخوف .

وقدّمَ المفعول ، وهو إياك ، وكرر ؛ للاهتمام والحصر ؛ أى لا نعبد إلا إياك ، ولا نتوكّلُ إلا عليك ؛ وهذا هو كمالُ الطاعة .

والدّين كله يرجع إلى هذين المعنيين .

وهذا كما قال بعض السلف : الفاتحة سِرُّ القرآن وسِرُّها هذه الكلمة : (إياكَ نعبد وإياك نستعين) ؛ فالأول تبرؤٌ من الشرك ، والثانى تبرؤٌ من الحوْل والقوة ، والتفويض إلى الله عز وجل . وهذا المعنى فى غير آيةٍ من القرآن ، كما قال تعالى[2] : (فاعْبُدْه وتوكَّلْ عليه ، وما ربُّكَ بغافل عما تعملون) . (قل[3] هو الرحمنُ آمنَّا به وعليه توكَّلنا) . (ربّ[4] المشرقِ والمغرب لا إلهَ إلا هو فاتخِذْهُ وَكِيلا) . وكذلك هذه الآية الكريمة : (إياكَ نعبد وإياك نستعين) .

وتحوّل الكلام من الغيبة إلىَ المواجهة بكاف الخطاب ، وهو مناسبة ؛ لأنه لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدى الله تعالى ؛ فلهذا قال : (إياك نَعْبُدُ وإياك نستعين) .

وفى هذا دليل على أنّ أول السورة خبَرٌ من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنى ، وإرشاد لعباده بأن يُثْنُوا عليه بذلك ؛ ولهذا لا تصحُّ صلاةُ

(١) فى القرطبى : إن توسعت . . .

(٢) سورة هود ، آية ١٢٣

(٣) سورة الملك ، آية ٢٩

(٤) سورة المزمل ، آية ٩

مَنْ لم يقل ذلك وهو قادر عليه ، كما جاء فى الصحيحين عن عُبادة بن الصامت ، قال: قال رسولُ الله ﷺ[1] : « لا صلاةَ لمن لم يقرأْ بفاتحة الكتاب » .

وفى صحيح[2] مسلم ، من حديث العلاء بن عبد الرحمن مولى الحُرَقة ، عن أبيه، عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى:قسمتُ الصلاةَ بينى وبين عبدى نصفين ، فنصفها لى ونصفُها لعبدى ، ولعبدى ما سأل ؛ إذا قال العبد : (الحمد لله رب العالمين) قال الله: حَمِدنى عَبْدى ، وإذا قال (الرحمن الرحيم) قال الله: أَثْنَى علىّ عبدى ،[3] فإذاقال : (مالك يوم الدين) قال الله : مجّدنى عبدى ، وإذا قال :(إياكَ نعبد وإياكَ نستعين) قال : هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل ، فإذا قال : (اهْدِنا الصراط [٢٠] المستقيم . صراطَ الذين أنعمتَ عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالّين) قال : هذا لعبدى ، ولعبدى ما سأل » .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس رضى الله عنهما : (إياك نعبد) ، يعنى إياكَ نوحّد ونخاف ونرجوك يا ربنا لا غيرك ، (وإياك نستعينُ) على طاعتك ، وعلى أمورنا كلها .

وقال قتادة : (إياكَ نعبد وإياك نستعين) : يأمرُكم أنْ تُخْلصوا له العبادة ، وأن تستعينوه على أموركم .

وإنما قدّم (إياك نعبد) على (وإياك نستعين) ؛ لأن العبادةَ له هى المقصودة ، والاستعانة وسيلةٌ إليها ، والاهتمامُ والحَزْمُ تقديمُ ما هو الأهمّ فالأهم ، والله أعلم .

[4][فإنْ قيل : فما معنى النون فى قوله تعالى : (إياكَ نعبد وإياكَ نستعين) ؟ فإنْ كانت للجمع فالداعى واحد ، وإنْ كانت للتعظيم فلا يناسبُ هذا المقام .

(١) مسند أحمد : ٢ — ٤٢٨

(٢) صحيح مسلم : ٢٩٦ — (٣) فى مسلم : وإذا .

(٤) من هنا إلى آخر القوسين ليس فى ا ، ز .

وقد أجيب بأنّ المراد من ذلك الإخبار عن جنس العباد والمصلّى فَرْدٌ منهم ، ولا سيما إن كان فى جماعة أو إمامهم ؛ فأخبر عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين بالعبادة التى خُلِقُوا لأجلها ، وتوسط لهم بخير .

ومنهم من قال : يجوز أن تكونَ للتعظيم ، كأنّ العبد قيل له : إذا كنْتَ داخلَ العبادة فأنتَ شريف وجاهُك عريض؛ فقل : (إياك نعبدُ وإياكَ نستعين) . وإنْ كنْتَ خارج العبادة فلا تقُلْ : نحن ، ولا فعلنا ، ولو كنْتَ فى مائة ألف ، أو ألف ألف ، لاحتياجِ الجميع إلى الله عز وجل وفَقْرِهم إليه .

ومنهم من قال : إياك نعبد ألطفُ فى التواضع مِن« إياك عبدنا »؛ لما فى الثانى من تعظيم نَفْسِه من جعله نفسه وحْدَه أهلا لعبادة الله تعالى الذى لا يستطيع أحدٌ أن يعبده حقّ عبادته،ولا يُثنى عليه كما يليق به ؛ والعبادةُ مقام عظيم يشرف به العبد ، لانتسابه إلى جناب الله تعالى ؛ كما قال بعضهم :

لَا تَدْعُنِى إلا بيا عبدها فإنه أشرَفُ أسمائى

وقد سمّى الله رسولَه ﷺ بعبده فى أشرف مقاماته ؛ فقال[1] : (الحمْدُ لله الذى أنزلَ على عَبْدِه الكتابَ) . ([2]وأنه لما قام عَبْدُ الله يدعوه). ([3]سبحانَ الذى أَسْرَى بِعَبْدِه ليلا) ؛ فسماه عبداً عند إنزاله عليه ، وعند قيامه فى الدعوة ، وإسرائه به ، وأرشده إلى القيام بالعبادة فى أوقاتٍ يضيقُ صدْرُه من تكذيب المخالفين حيث يقول[4] : (ولقد نَعْلَمُ أنكَ يضيقُ صَدْرُك بما يقولون . فسبِّح بحَمْدِ ربِّك وكُنْ من الساجدين . واعْبُدْ ربَّك حتى يأتِيَكَ اليَقِين) .

وقد حكى الرازى فى تفسيره عن بعضهم أنّ مقام العبودية أشرفُ من مقام

---

(١) سورة الكهف ، آية ١ (٢) سورة الجن ، آية ١٩

(٣) سورة الإسراء ، آية ١ (٤) سورة الحجر ، آية ٩٧ – ٩٩

الرسالة ، لكون العبادة تصدر من الخَلْق إلى الحق ، والرسالة من الحق إلى الخلق ؛ قال : ولأنّ الله يتولى مصالح عَبْده ، والرسول يتولى مصالح أُمته .

وهذا القول خطأ ، والتوجيه أيضا ضعيف لا حاصل له ، ولم يتعرض له الرازى بتضعيف ولا ردّ .

وقال بعض الصوفية : العبادةُ إمَّا لتحصيل ثوابٍ أو دَرْء عقاب ؛ قالوا : وهذا ليس بطائل ؛ إذ مقصوده تحصيل مقصوده ، وإما للتشريف بتكاليف الله تعالى ؛ وهذا أيضاً عندهم ضعيف ؛ بل العالى أنْ يعبد الله لذاته المقدسة الموصوفة بالكمال ؛ قالوا : ولهذا يقول المصلى : أصلّى لله ، ولو كان لتحصيل الثواب ودَرْء العقاب لبطلت الصلاة .

وقد رَدَّ ذلك عليهم آخرون ، وقالوا : كونُ العبادة لله عزَّ وجل لا يُنَافِى أن يَطْلُبَ معها ثوابا ، ولا أنْ يدفع عذابا ، كما قال ذلك الأعرابىّ : أما إنى لا أحسن دَنْدَنتك : ولا دَنْدَنة معاذ ؛ إنما أسأل الله الجنة ، وأعوذ به من النار ؛ فقال النبى ﷺ[1] : « حولها نُدَنْدِن »][2] .

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٦)

[3][قراءة الجمهور [4] بالصاد ، وقرئ السراط ؛ وقرئ بالزاى . قال الفراء : وهى لغة بنى عُذْرَة وبنى كَلْبٍ][3]. لمَّا تقدم الثناء على المسئول تبارك وتعالى ناسب أنْ يعقب بالسؤال ؛ كما قال : «فنصفُها لى ؛ ونصفها لعبدى ؛ ولعبدى ماسأل» . وهذا أكملُ أحوال السائل أنْ يمدح مسئوله ، ثم يسأل حاجته[3] [وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله : (اهدنا الصراط المستقيم)][3] ؛ لأنه أنجح للحاجة ؛ وأنجع للإجابة ؛ ولهذا

(١) مسند أحمد : ٣ - ٤٧٤ (٢) إلى هنا ليس فى ا ، ز .
(٣) مابين القوسين ليس فى ا ، ز . (٤) الكشف : ١-٣٤ ، وتفسير القرطبى : ١-١٤٨

أرشد الله إليه ؛ لأنه الأكمل؛ وقد يكون السؤال بالإخبار عن حال السائل واحتياجه، كما قال موسى عليه السلام[١] : (رب إني لما أنزلتَ إليّ من خير فقير) ؛ وقد يتقدمه مع ذلك وصف مسئول ؛ كقول ذي النون[٢] : (لا إله إلا أنتَ سبحانكَ إني كنتُ من الظالمين) . وقد يكون بمجرد الثناء على المسئول ؛ كقول الشاعر[٣] :

أأذكرُ حاجتي أم قد كفاني حياؤُك إنَّ شيمتَكَ الحياء

إذا أثنَى عليكَ المرء يوما كفاه مِنْ تَعَرُّضِه الثناء

والهداية هاهنا : الإرشاد والتوفيق ، وقد تتعدى الهداية بنفسها ، كما هنا : (اهْدِنا الصراط المستقيم) ؛ فتضمن معنى ألهِمْنا أو وَفِّقنا ، أو ارزقنا أو أعطنا[٤] : (وهديناه النَّجْدين) ؛ أي بيّنا له الخير والشر . وقد تعدى بإلى ، كقوله تعالى[٥] : (اجتباه وَهَدَاهُ إلى صراطٍ مستقيم) . (٦)[٦] فاهْدُوهم إلى صراطِ الجحيم) ؛ وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة ؛ وكذلك قوله[٧] : (وإنكَ لتَهْدِي إلى صراطٍ مستقيم) . وقد تعدى باللام ، كقول أهل الجنة[٨] : (الحمد لله الذي هدَانَا لهذا) : أي وَفّقنا لهذا ، وجعلنا له أهلا .

وأما الصراطُ المستقيم فقال الإمام أبو جعفر بن[٩] جرير : أجمعت الأمةُ من أهل التأويل جميعاً على أنَّ الصراط المستقيم هو الطريقُ الواضح الذي لااعوجاجَ فيه؛ وكذلك[١٠] في لغة جميع العرب ؛ فمن ذلك قول جرير بن عطية الخَطَفي[١١] :

(١) سورة القصص ، آية ٢٤ (٢) سورة الأنبياء ، آية ٨٧
(٣) البيتان لأمية بن أبي الصلت في ديوانه : ١٧
(٤) سورة البلد ، آية ١٠ (٥) سورة النحل ، آية ١٢١
(٦) سورة الصافات ، آية ٢٣ (٧) سورة الشورى ، آية ٥٢
(٨) سورة الأعراف ، آية ٤٣ (٩) تفسير الطبري : ١ – ٥٤
(١٠) في ب : وذلك . والمثبت في تفسير الطبري أيضاً .
(١١) وتفسير الطبري : ١ – ٥٧ ، وديوانه : ٥٠٧ ، وتفسير القرطبي : ١ – ١٤٧

أميرُ المؤمنين على صِرَاط   إذا اعوجَّ المواردُ مستقيم

قال : والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصر ؛ قال: ثم تستعير العربُ الصراطَ فتستعمله فى كل قول وعَمَل ووصْفٍ باستقامة أو اعوجاج ، فتصف المستقيم باستقامته ، والمعوجّ باعوجاجه .

ثم اختلفت عباراتُ المفسرين من السلف والخلف فى تفسير الصراط ، وإنْ كان يرجع حاصلُها إلى شىء واحد ، وهو المتابعةُ لله وللرسول ؛ فروى أنه كتابُ الله ؛ قال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنى يحيى بن يمان ، عن حمزة الزيات ، عن سعد ــ وهو أبو المختار الطائى ، عن ابن أخى الحارث الأعور ، عن الحارث الأعور ، عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الصراطُ المستقيم كتابُ الله » .

وكذلك رواه[1] ابن جرير من حديث حمزة بن حبيب الزيات ، وقد [تقدم فى فضائل القرآن فيما][2] رواه أحمد والترمذى ، من رواية الحارث الأعور عن علىّ مرفوعاً ؛ « وهو حَبْلُ اللهِ المتين ، وهو الذكْرُ الحكيم ، وهو الصراطُ المستقيم » .

وقد روى موقوفاً[3] عن على رضى الله عنه ؛ وهو أشبه . والله أعلم .

وقال الثورى ، عن منصــور ، عن أبى وائل ، عن عبد الله ، قال : الصراط المستقيم كتاب الله . وقيل : هو الإسلام .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس ؛ قال : قال جبريل لمحمد عليهما السلام : « قُلْ يا محمّد : اهدنا الصراط المستقيم » ، يقول : ألهمنا[4] الطريقَ الهادى ، وهو دينُ الله الذى لا اعوجاجَ فيه .

(١) وتفسير الطبرى : ١ ــ ٥٧   (٢) ليس فى ا ، ز .
(٣) فى ب : على . والمثبت فى ا ، ز   (٤) فى ز : اهدنا .

وقال ميمون بن مِهْران ، عن ابن عباس ـ فى قوله تعالى : (اهْدِنا الصراطَ المستقيم) ـ قال : ذاك الإسلام .

وقال إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدِّى الكبير ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مُرَّة الهمدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى ﷺ : اهدنا الصراط المستقيم ـ قالوا : هو الإسلام .

وقال عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن جابر : اهْدِنَا الصراطَ المستقيم ؛ قال : هو[1] الإسلام أَوْسع مما بين السماء والأرض .

وقال ابن الحنفية ـ فى قوله تعالى : (اهدنا الصراط المستقيم) قال : هو دينُ الله الذى لا يقْبَل من العباد غيره .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : اهدنا الصراطَ المستقيم ؛ قال : هو الإسلام .

وفى هذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده حيث قال[2] : حدثنا الحسن ابن سوّار أبو العلاء ، حدثنا ليث ـ يعنى ابن سعد ، عن معاوية بن صالح ـ أنّ عبد الرحمن بن جُبير بن نُفير حدّثه عن أبيه ، عن النوّاس بن سَمعان ، عن رسول الله ﷺ ، قال : « ضرب الله مثلا صِرَاطًا مستقيما ، وعلى جنبتى الصراط سُورَان فيهما أبوابٌ مفتحَة ، وعلى الأبواب ستور مُرْخاة ، وعلى الصراط داعٍ يقول [٢١] : يا أيها الناس ادخلوا الصراطَ جميعا ، ولا تعوجوا ، ودَاعٍ يدعو من فوق الصراط ؛ فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال : ويْحَكَ ، لا تفتحه ، فإنكَ إن تفتحه تَلِجه ـ فالصراطُ الإسلام ، والسُّورانِ حدودُ الله ،

(١) فى تفسير الطبرى (١ ـ ٥٧) : قال الإسلام ؛ قال : هو أوسع ...
(٢) مسند أحمد : ٤ ـ ١٨٢ ، ١٨٣

والأبوابُ المفتّحة محارِمُ الله ؛ وذلك الداعى على رأس الصراط كتابُ الله ، والداعى من فوق الصراط واعظُ اللهِ فى قلب كلِّ مسلم .

وهكذا رواه ابن أبى حاتم ، وابن[1] جرير ، من حديث الليث بن سعد ، به .

ورواه الترمذى ، والنسائى ، جميعا ، عن على بن حُجْر ، عن بقيّة ، عن بَحير ابن سعد ، عن خالد بن مَعْدان ، عن جُبَير بن نُفير ، عن النوّاس بن سَمعان ، به .

وهو إسناد صحيح . والله أعلم .

وقال مجاهد : اهدنا الصرطَ المستقيم – قال : الحق ، وهذا أشملُ ، ولا منافاة بينه وبين ما تقدم .

وروى ابن أبى حاتم ، وابن جرير[1] ، من حديث أبى النضر هاشم بن القاسم ، حدثنا حمزة بن[2] المغيرة ، عن عاصم[3] الأحول ، عن أبى العالية (اهْدِنا الصراطَ المستقيم) ؛ قال : هو النبىّ ﷺ وصاحباه من بَعْــدِهِ . قال عاصم : فذكرنا ذلك للحسن ، فقال : صدق أبو العالية ونَصح .

وكلٌّ هذه الأقوال صحيحةٌ ، وهى متلازمة ، فإنَّ من اتبع النبىّ ﷺ، واقتدى باللذين مِنْ بعده : أبى بكر ، وعمر – فقد اتبع الحقّ ؛ ومَن اتبع الحقَّ فقــد اتبع الإسلام ، ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن ؛ وهو كتابُ الله ، وحَبْله المتين ، وصراطه المستقيم ؛ فكلُّها صحيحة يصدّق بعضها بعضا ، ولله الحمد .

وقال الطبرانى : حدثنا محمد بن الفضل السَّقَطى ، حدثنــا إبراهيم بن مهدى المصِّيصى ، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبى زائدة ، عن الأعمش ، عن أبى وائل ، عن عبد الله ؛ قال : الصراط المستقيم الذى تركَنا عليه رسولُ الله ﷺ .

---

(١) تفسير الطبرى ١ – ٥٨ (٢) فى تفسير الطبرى : بن أبى المغيرة .

(٣) تفسير الطبرى : ١ – ٥٨ ، وتفسير القرطبى : ١ – ١٤٧

ولهذا قال الإمام أبو جعفر بن[1] جرير رحمه الله : والذى هو أولى بتأويل هذه الآية عندى أعنى ـ اهدنا الصراط المستقيم ـ أن يكون معنيا به : وفقْنا للثبات على ما ارتضيته ، ووفّقت له مَنْ أنعمتَ عليـه من عبادك مِنْ قول وعمل ؛ وذلك هو الصراط المستقيم ؛ لأن مَنْ وُفّق لما وفق لهمَنْ أنعم اللهُ عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فقد وُفّق للإسلام ، وتصديق الرسل ، والتمسك بالكتاب ، والعمل بما أمره الله به ، والانزجار عما زجره عنه ، واتباع منهاج النبى ﷺ ومنهاج الخلفاء الأربعة ، وكل عبد صالح ؛ وكلّ ذلك من الصراط المستقيم .

فإن قيل : فكيف[2] يسأل المؤمن الهدايةَ فى كل وقت من صلاة وغيرها ، وهو متّصف بذلك ؟ فهل هذا من تحصيل الحاصل أم لا ؟

فالجواب أن لا ، ولولا احتياجُه ليلا ونهارا إلى سؤال الهداية لما أرشده الله تعالى إلى ذلك ، فإنَّ العبدَ مفتقر فى كل ساعة وحالةٍ إلى الله تعالى فى تثبيته على الهداية ، ورسوخه فيها ، وتبصره وازدياده منها ، واستمراره عليها ، فإنَّ العبد لايملك لنفسه نَفْعا ولا ضرا إلا ماشاء الله ؛فأرشده تعالى إلى أنْ يسأله فى كل وقت أنْ يُمِدَّه بالمعونة والثبات والتوفيق ، فالسعيدُ من وفَّقه اللهُ تعالى لسؤاله ؛ فإنه تعالى قد تكفَّل بإجابة الداعى إذا دعاه ، ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء الليل وأطراف النهار .

وقد قال تعالى[3] : (يأيها الذين آمَنوا آمِنُوا بالله ورسولِه والكتابِ الذى نزلَ على رسوله والكتابِ الذى أَنْزَلَ من قَبْل . . .) الآية ؛ فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان ، وليس ذلك من باب تحصيل الحاصل ؛ لأن المرادَ الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال المُعِينة على ذلك . والله أعلم .

(١) تفسير الطبرى : ١ ـ ٥٧ (٢) فى ز : كيف . (٣) سورة النساء ، آية ١٣٦

[١] وقال تعالى - آمراً لعباده المؤمنين أنْ يقولوا[٢] : (رَبَّنا لا تُزِغْ قلوبَنا بعد إذْ هديتَنا ، وهَبْ لنا من لدنك رحمةً إنك أنتَ الوهاب) . وقد كان الصديق رضى الله عنه يقرأ بهذه الآية فى الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد الفاتحة سرًّا ؛ فمعنى قوله تعالى : (اهدنا الصراط المستقيم) : استمر بنا عليه ، ولا تعدِلْ بنا إلى غيره][١] .

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ (٧)﴾

قد تقدم[٣] الحديث فيما إذا قال العبد : اهدنا الصراطَ المستقيم إلى آخرها أنَّ الله يقول : « هذا لعبدى ، ولعَبْدى ما سأل » .

وقوله تعالى : (صراطَ الذين أنعمْتَ عليهم) مفَسِّر للصراط المستقيم ، وهو بدل منه عند النحاة . ويجوز أن يكون عطف بيان ، والله أعلم .

والذين أنعم اللهُ عليهم هم المذكورون فى سورة النساء حيث قال تعالى[٤] : (ومَن يُطِعِ اللهَ والرسولَ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم مِنَ النبيين والصدِّيقين والشهداءِ والصالحين وحَسُن أولئك رَفيقا . ذلك الفَضْلُ من الله وكفَى بالله عليما) .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : صراطَ الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك مِنْ ملائكتك وأنبيائك والصدّيقين والشهداء والصالحين ؛ وذلك نظير ما قال ربّنا تعالى[٤] : (ومَنْ يُطِعِ اللهَ والرسولَ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم ...) الآية.

وقال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس : (صراطَ الذين أنعمتَ عليهم) - قال : هم النبيون .

---

(١) ما بين القوسين ليس فى ا ، ز
(٢) سورة آل عمران ، آية ٨
(٣) تقدم صفحة ٨٣
(٤) سورة النساء ، آية ٦٩ ، ٧٠

وقال ابن جريج، عن ابن عباس: هم المؤمنون، وكذا قال مجاهد. وقال وَكيع: هم المسلمون. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم النبي ﷺ ومَنْ معه.

والتفسير المتقدم عن ابن عباس رضى الله عنهما أعمّ وأشملُ. والله أعلم.

وقوله تعالى: (غَيْرِ المغضوب [٢٢] عليهم ولا الضّالّين): [(١) قرأ الجمهور «غير» بالجر على النعت. قال الزمخشري(٢): وقرئ بالنصب على الحال، وهى قراءةُ رسولِ الله ﷺ، وعُمر بن الخطاب، ورُويت عن ابن كثير؛ وذو الحال الضمير فى عليهم، والعامل أنعمت](٣).

والمعنى(٤) اهدنا الصراطَ المستقيم صراطَ الذين أنعمتَ عليهم، ممن تقدّم وصْفُهم ونَعْتهم؛ وهم أهلُ الهداية والاستقامة، والطاعة لله ورسله، وامتثال أوامره، وتَرْك نواهيه وزَوَاجره، غير صراط المغضوب عليهم؛ وهم الذين فسدت إرادتُهم، فعلموا الحقّ وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين؛ وهم الذين فقدوا العلم؛ فهم هائمون فى الضلالة، لا يهتدون إلى الحق.

وأكد الكلام بلا؛ ليدلّ على أن ثَمّ مسلكين فاسدين: وهما طريقة اليهود والنصارى.

وقد زعم بعض النحاة أن «غير» هاهنا استثنائية، فيكون على هذا منقطعا لاستثنائهم من المنعم عليهم، وليسوا منهم؛ وما أوردناه أَوْلى؛ لقول الشاعر(٥):

كأنك مِنْ جِمالِ بنى أُقَيْشٍ يُقَعْقَعُ عنــد رجليه بشَنِّ

أى كأنك جمل من جمال بنى أُقيش، فحذف الموصوف، واكتفى بالصفة. وهكذا

(١) ما بين القوسين ليس فى ز. (٢) فى الكشاف: ١ – ٩

(٣) إلى هنا ساقط فى ز. (٤) فى ز: يعنى.

(٥) البيت للنابغة، وهو فى ديوانه: ١٩٨، وتفسير الطبرى: ١ – ٥٩

« غير المغضوب عليهم »؛أى غير صراط المغضوبِ عليهم ، اكتفى بالمضاف إليه عن ذِكْر المضاف . وقد دلَّ عليه سياق الكلام ؛ وهو قوله تعالى : (اهدنا الصراطَ المستقيم.صراط الذين أنعمت عليهم) . ثم قال تعالى : (غير المغضوب عليهم) .

ومنهم من زعم أن « لا » فى قوله تعالى : « ولا الضالين » زائدة ، وأن تقدير الكلام عنده غير المغضوب عليهم والضالين ؛ واستشهد ببيت العجاج(١) :

فى بِئرِ لا حُورٍ سَرَى وما شَعَرْ

أى فى بئر حُور . والصحيح ما قدمناه ، ولهذا روى أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب « فضائل القرآن » عن أبى معاوية ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن الأسود ، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ أنه كان يقرأ غير المغضوب عليهم وغير الضالين . وهذا إسنادٌ صحيح .

وكذلك حكى عن أبىّ بن كعب أنه قرأ كذلك، وهو محمول على أنه صدر منهما على وَجْه التفسير. فيدلُّ على ماقلناه من أنه إنما جىء بلا لتأكيد النفى(٢)[لئلا يتوهم أنه معطوف على الذين أنعمت عليهم](٢) ، وللفرق بين الطريقتين ؛ ليجتنَب كلّ (٢)[واحد](٢) منهما ؛ فإنَّ طريقةَ أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق ، والعمل به . واليهود فقدوا العمل ، والنصارى فقدوا العِلْم ، ولهذا كان الغضبُ لليهود ، والضلالُ للنصارى؛ لأن مَنْ علم وترك استحقّ الغضب، بخلاف مَنْ لم يعلم؛ والنصارى لما كانوا قاصدين شيئا لكنهم لا يهتدون إلى طريقه ، لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه ، وهو اتباعُ الحق ، ضَلّوا . وكلٌّ من اليهود والنصارى ضالّ مغضوب عليه ، لكن أخص

(١) البيت فى شواهد الكشاف : ٦٧ ، غير منسوب ، وهو فى اللسان ـ حور، ولم ينسبه أيضاً ؛ بل قال : قال الراجز . وقال : قال أبو عبيدة : أى فى بئر حور . والحور : الهلكة . وفى ا : فى بئر لاجور ـ بالجيم .

(٢) ما بين القوسين ليس فى ز .

أوصاف اليهود الغضب ، [1][كما قال تعالى عنهم[2] : (مَنْ لعنه الله وغَضِبَ عليه)][1]، وأخصُّ أوصاف النصارى الضلال ، [1][كما قال تعالى عنهم[3] : (قد ضَلّوا من قبل وأضَلُّوا كثيرا وضَلّوا عن سَوَاءِ السبيل)][1] .

وبهذا جاءت الأحاديث ، والآثار ؛ [1][وذلك واضح بيِّن فيما][1] قال الإمام أحمد[4] : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شُعْبة ؛ قال : سمعتُ سِمَاكَ بن حرب يقول : سمعتُ عَبّاد بن حُبَيش يحدّث عن عديّ بن حاتم ؛ قال: جاءت خيلُ رسولِ الله ﷺ فأخذوا عمتي وناسا، فلما أتوا بهم إلى رسولِ الله ﷺ صُفّوا له ، فقالت: يارسولَ الله؛ نأى[5] الوافد ، وانقطع الولد ، وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة ، فمُنّ عليّ ، مَنَّ الله عليك . قال : « مَنْ وَافِدُكِ ؟ » قالت : عديّ بن حاتم . قال : « الذي فر مِنَ الله ورسوله » ! قالت : فمُنَّ عليّ . فلما رجع ورجلٌ إلى جنبه ترى أنه عليّ ، قال : سليه حُملانا ، فسألته ، فأمر لها ؛ قال[6] : فأتتني ، فقالت : لقد فعلتِ فعلة ما كان أبوك يَفْعَلها ، فإنه قد أتاه فلان فأصاب منه ، وأتاه فلان فأصاب منه ، فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان . . . وذكر قُرْبهم من النبي ﷺ ؛ قال : فعرفتُ أنه ليس بملك كسرى ولا قَيْصَر ؛ فقال : يا عديّ ، ما أفرّك ؟ أن يقال : لا إله إلا الله ؟ فهل من إله إلا الله . ما أفرّك ؟ أن يقالَ : الله أكبر ، فهل شيء أكبر من الله عز وجل ؟ قال : فأسلمت فرأيتُ وجهه استبشر . وقال : إنَّ المغضوب عليهم اليهود، وإن الضالين النصارى . وذكر الحديث .

---

(١) ما بين القوسين ليس في ز (٢) سورة المائدة ، آية : ٦٠

(٣) سورة المائدة ، آية : ٧٧ (٤) مسند أحمد : ٤ – ٣٧٨

(٥) في ز : ناء ، والمثبت في المسند أيضاً . ونأى : بعد .

(٦) في المسند : قالت .

ورواه الترمذى[1] من حديث سِمَاك بن حرب . وقال : حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه .

قلت : وقد رواه حماد بن سلمة ، عن سِمَاك ، عن مُرى[2] بن قَطَرى ، عن عدى بن ابن حاتم ؛ قال : سألتُ رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : (غير المغضوب عليهم) — قال : هم اليهود . (ولا الضالين) ؟ قال : النصارى هم الضالون .

وهكذا رواه سفيان بن عُيينة ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن الشعبى ، عن عدى بن حاتم ، به .

وقد روى حديث عدىّ هذا من طرق ، وله ألفاظ كثيرة يطول ذكرها[3] .

وقال عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن بُدَيل العُقَيلى ، أخبرنى عبد الله بن شقيق — أنه أخبره مَنْ سَمِعَ رسول الله ﷺ وهو بوادى القرى على فرسه ، وسأله رجل من بنى القَيْن ؛ فقال : يا رسول الله ؛ مَنْ هؤلاء ؟ قال : المغضوب عليهم . وأشار إلى اليهود ، والضالون هم النصارى .

وقد رواه الُجرَيْرى ، وعُرْوَة ، وخالد الحذّاء ، عن عبد الله بن شقيق ، فأرسلوه . ولم يذكروا مَنْ سمع النبى ﷺ .

ووقع فى رواية عروة تسمية عبد الله بن عمرو . فالله أعلم .

وقد روى ابن مَرْدويه من حديث إبراهيم بن طَهْمَان ، عن بُدَيل بن ميسرة ، عن عبد الله بن شقيق ، عن أبى ذر ؛ قال : سألتُ رسولَ الله ﷺ عن المغضوب عليهم . قال : اليهود [٢٣] . قلت : الضالين ؟ قال : النصارى .

وقال السُّدِّى ، عن أبى مالك ؛ وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ؛ وعن مُرّة

(١) سنن الترمذى : ٥ — ٢٠٤ (٢) والتقريب .
(٣) روى مطولا فى سنن الترمذى : ٥ — ٢٠٣

الهمدانى، عن ابن مسعود ؛ وعن أناس من أصحاب النبى ﷺ «غير المغضوب عليهم» هم اليهود ، ولا الضالين هم النصارى .

وقال الضحاك ، وابن جُريج ، عن ابن عباس : غير المغضوب عليهم : اليهود . ولا الضالين : النصارى .

وكذلك قال الربيع بن أنس ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغير واحد .

وقال ابنُ أبى حاتم : ولا أعلم بين المفسرين فى هذا اختلافا . وشاهدُ ما قاله هؤلاء الأئمة من أنَّ اليهود مغضوبٌ عليهم ، والنصارى ضالّون الحديثُ المتقدم .

وقوله تعالى فى خطابه مع بنى إسرائيل فى سورة البقرة[1] : (بِئْسَ ما اشتروا به أنفُسَهم أن يكفروا بما أنزل الله بَغْياً أنْ ينزِّلَ اللهُ من فَضْلِه على مَنْ يشاء مِنْ عبادهِ، فباءوا بغضَب على غَضَبٍ وللكافرين عذابٌ مهين) . وقال فى المائدة[2] : (قل هل أنبئكم بشَرٍّ من ذلك مَثُوبةً عند الله مَنْ لعنه الله وغضِبَ عليه وجعل منهم القِرَدةَ والخنازير وعَبدالطاغوت أولئك شَرٌّ مكانا وأضلُّ عن سواء السبيل). وقال تعالى[3] : (لُعِنَ الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عَصَوْا وكانوا يَعْتَدُون . كانوا لا يَتَنَاهَوْنَ عن مُنْكَرٍ فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) .

وفى[4] السيرة عن زيد بن عَمْرو بن نُفيل أنه لما خرج هو وجماعةٌ من أصحابه إلى الشأم يطلبون الدِّينَ الحنيف قالت له اليهود : إنك لن تستطيعَ الدخولَ معنا حتى تأخذَ بنصيبك من غضَب الله . فقال: أنا من غضب الله أفرّ . وقالت له النصارى: إنك لن تستطيع الدخولَ معنا حتى تأخذَ بنصيبك من سخط الله . فقال: لا أستطيعه. فاستمر على فِطْرته ، وجانب عبادةَ الأوثان ، ودينَ المشركين ، ولم يدخل مع أحد

(١) سورة البقرة ، آية : ٩٠
(٢) سورة المائدة ، آية : ٦٠
(٣) سورة المائدة ، آية ٧٨ ، ٧٩
(٤) سيرة ابن هشام : ١ - ٢٣٤ ، ٢٤٧

من اليهود ولا النصارى . وأما أصحابه فتنصَّرُوا ودخلوا فى دين النصرانية ؛ لأنهم وجدوه أقربَ من دين اليهود إذ ذاك ، وكان منهم وَرَقة بن نوفل حتى هداه الله بنبيه لما بعثه آمنَ بما وجد من الوَحْى رضى الله عنه .

[(١) ﴿ مسألة ﴾ والصحيح من مذاهب العلماء أنه يغتفر الإخلال بتحرير ما بين الضاد والظاء ، لقُرْب مخرجيهما ؛ وذلك أنَّ الضاد مخرجها من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس ، ومخرج الظاء من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا ؛ ولأنَّ كلا من الحرفين من الحروف المجهورة ، ومن الحروف الرخوة ، ومن الحروف المطبقة ؛ فلهذا كله اغتفر استعمال أحدهما مكان الآخر لمن لا يميز ذلك . والله أعلم .

وأما حديث : أنا أفصح مَنْ نطق بالضاد فلا أصْلَ له . والله أعلم](١) .

فصـــل

اشتملت هذه السورة الكريمة ، وهى سبع آيات، على حَمْد الله وتمجيده ، والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا،وعلى ذكر المعاد ، وهو يومُ الدين؛ وعلى إرشاده عَبِيده إلى سؤاله والتضرع إليه ، والتبرؤ من حَوْلهم وقوتهم ، وإلى إخلاص العبادة له ، وتوحيده بالألوهية تبارك وتعالى ، وتنزيهه أن يكونَ له شريك أو نظير أو مماثل؛ وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم،وهو الدينُ القويم، وتثبيتهم عليه ، حتى يُفْضِىَ بهم ذلك(٢) إلى جواز الصراط الحِسِّىّ يوم القيامة المُفضِى بهم إلى جنات النعيم فى جوارِ النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

واشتملت على الترغيب فى الأعمال الصالحة ، ليكونوا مع أَهْلها يوم القيامة ، والتحذير من مسالك الباطل ؛ لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة ، وهم المغضوبُ عليهم ، والضالُّون .

---

(١) مابين القوسين ليس فى ا ، ز. (٢) فى ب:حتى يقضى لهم بذلك ... الصراط الحسية.

وما أحسن ما جاء إسناد الإنعام إليه فى قوله تعالى : (صِرَاطَ الذين أنعمْتَ عليهم غير المغضوب عليهم) . وحذف الفاعل فى الغضب فى قوله تعالى:(غير المغضوب عليهم) ، وإن كان هو الفاعل لذلك فى الحقيقة ؛ كما قال تعالى[١] : (أَلَم تَرَ إلى الذين تولَّوا قوما غَضِبَ الله عليهم . . .) الآية . وكذلك إسناد الضلال إلى مَنْ قام به وإن كان هو الذى أضَلّهم بقدره ؛ كما قال تعالى[٢] : (مَنْ يَهْدِ اللهُ فهو المهتد ، ومن يُضْلِل فلن تجِدَ له وَليا مُرْشدا) . وقال[٣] : (مَنْ يُضْلِل اللهُ فلا هَادِىَ له وَيذَرُهم فى طُغْيانهم يَعْمَهون) ؛ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المنفردُ بالهداية والإضلال ، لا كما تقول الفرقة القَدَرية ومَنْ حذا حذوهم من أنَّ العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه ؛ ويحتجّون على بدعتهم بمتشابه من القرآن ؛ ويتركون ما يكون فيه صريحا فى الردّ عليهم . وهذا حالُ أهلِ الضلال والغىّ .

وقد ورد فى الحديث الصحيح[٤] : « إذا رأيتم الذين يَتَّبِعُون ما تشابَه منه فأولئك الذين سَمّى الله فاحْذَرُوهم» — يعنى فى قوله تعالى[٥]:(فأما الذين فى قلوبهم زَيْغٌ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفِتْنَة وابتغاء تأويله) ؛ فليس ، بحمد الله ، لمبتدع فى القرآن حجةٌ صحيحة ؛ لأن القرآنَ جاء ليفصل الحقَّ من الباطل ، مفرِّقا بين الهدى والضلال ؛ وليس فيه تناقض ولا اختلاف ؛ لأنه من عند الله تنزيل من حكيم حميد .

---

(١) سورة المجادلة ، آية ١٤
(٢) سورة الكهف ، آية ١٧
(٣) سورة الأعراف ، آية ١٨٦
(٤) صحيح البخارى : ٦ — ٤٢
(٥) سورة آل عمران ، آية ٧

فصــــــل

يستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقولَ بعدها « آمِين » ، [مثل يس][1] . ويقال أَمين ـ بالقصر أيضا . ومعناه : اللهم استجِبْ .

والدليل على استحباب[2] التأمين ما رواه الإمام أحمد[3] ، وأبو داود ، والترمذى ، عن وائل بن حُجْر ؛ قال: سمعتُ النبى ﷺ قرأ (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) : فقال : آمين ـ مدّ بها صوتَه ، ولأبى داود رفع بها صوتَه . وقال الترمذى : هذا حديث حسن . وروى عن على ، وابن مسعود ، وغيرهم .

وعن أبى هريرة قال [٢٤] : كان رسول الله ﷺ إذا تلا[4] (غَيْر المغضوب عليهم ولا الضالّين) قال : « آمين » ، حتى يسمعَ مَنْ يليه من الصف الأول . رواه أبو داود ، وابن[4] ماجه ـ وزاد فيه : فيرتج[5] بها المسجد ـ والدارقُطْنى ، وقال : هذا إسناد حسن .

وعن بلال أنه قال[6] : يا رسول الله ، لا تسبقنى بآمين . رواه أبو داود .

[7][ونقل أبو نَصْر القُشَيْرى عن الحسن ، وجعفر الصادق ، أنهما شدّدا الميم من آمين ؛ مثل[8] : (آمِّين البيتَ الحرام)] .

قال أصحابنا وغيرهم : ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة ، ويتأكد فى حقّ المصلى ، وسواء كان منفردا أو إماما أو مأموما ، وفى جميع الأحوال ؛ لما جاء

---

(١) ليس فى ا ، ز . (٢) فى ز : والدليل على ذلك .
(٣) فى المسند : ٤ ـ ٣١٥ ، والدر المنثور : ١ ـ ١٦
(٤) سنن ابن ماجه : ٢٧٨ ، وتفسير القرطبى : ١ ـ ١٢٩
(٥) فى ز : يرتج . والمثبت فى ابن ماجه أيضاً .
(٦) مسند أحمد : ٦ ـ ١٥ (٧) ما بين القوسين ليس فى ز
(٨) سورة المائدة ، آية ٢

فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال[١] : « إذا أمَّنَ الإمامُ فأمِّنوا ؛ فإنه مَنْ وافقَ تأمينُه تأمينَ الملائكة غُفر له ما تقدم من ذنبه » .

ولمسلم[٢] أن رسول الله ﷺ قال: « إذا قال أحدكم فى الصلاة آمين والملائكة فى السماء آمين ، فوافقت إحداهما الأخرى غُفر له ما تقدم من ذنبه » [٣[قيل : يعنى مَنْ وافق تأمينُه تأمينَ الملائكة فى الزمان . وقيل فى الإجابة . وقيل فى صفة الإخلاص][٣] .

وفى صحيح مسلم عن أبى موسى – مرفوعا : « إذا قال – يعنى الإمام – ولا الضالين فقولوا آمين يجبكم الله » .

وقال جُوَيبر ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ؛ قال : قلتُ : يا رسول الله ؛ ما معنى آمين ؟ قال : « رَبّ افعل » .

[٣[وقال الجوهرى : معنى آمين كذلك فليكن . وقال الترمذى : معناه لا تخيّب رجاءنا . وقال الأكثرون : معناه اللهم استجبْ لنا .

وحكى القرطبى[٤] عن مجاهد ، وجعفر الصادق ، وهلال بن يِساف أن آمين اسمٌ من أسماء الله تعالى . وروى عن ابن عباس مرفوعا ، ولا يصحّ ؛ قاله أبو بكر ابن العربى المالكى][٣] .

وقال أصحاب مالك : لا يؤمّن الإمامُ ويؤمِّن المأموم ، لما رواه مالك[٥] عن سُمَيّ ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال : [٦[« وإذا قال – يعنى الإمام : ولا الضالين فقولوا : آمين . . . » الحديث][٦] .

---

(١) صحيح البخارى : ١ – ١٨٧ ، والموطأ : ٨٧

(٢) صحيح مسلم : ٣٠٧ (٣) ما بين القوسين ليس فى ز

(٤) تفسير القرطبى: ١ – ١٢٨ (٥) والموطأ : ٨٧ (٦) فى ا مكان ما بين القوسين بياض.

واستأنسوا أيضا بحديث أبى موسى [عند مسلم][١] : « وإذا قرأ ولا الضالين فقولوا آمين » .

وقد قدمنا فى المتفق عليه : « إذا أمن الإمام فأمِّنوا » ، وأنه عليه الصلاة والسلام كان يؤمِّن إذا قرأ (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

وقد اختلف أصحابُنا فى الجَهْر بالتأمين للمأموم فى الجهرية . وحاصلُ الخلافِ أنَّ الإمام إنْ نَسى التأمين جهر المأموم به قولا واحدا ؛ وإنْ أمَّن الإمامُ جهرا فالجديدُ أنه لايجهر المأموم ، وهو مذهبُ أبى حنيفة ، ورواية عن مالك ؛ لأنه ذِكْرٌ من الأذكار فلا يجهر به كسائر أذكار الصلاة . والقديمُ أنه يجهر به ، وهو مذهب الإمام أحمد[٢] بن حنبل ، والرواية الأخرى عن مالك ، لما تقدم : « حتى يرتجَّ المسجد » . ولنا قول آخر ثالث أنه إنْ كان المسجد صغيرا لم يجهر المأموم ، لأنهم يسمعون قراءةَ الإمام ، وإن كان كبيرا جَهَر ، ليبْلغ التأمين مَنْ فى أرجاء المسجد . والله أعلم .

وقد روى الإمام أحمد فى مسنده ، عن عائشة رضى الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ ذكرت عنده اليهود ، فقال[٢] : « إنهم لن يحسدونا على شىء كما يحسدونا على الجمعة التى هَدَانا اللهُ لها وضَلّوا عنها ، وعلى القِبْلة التى هدانا الله لها وضلّوا عنها ، وعلى قولنا خلف الإمام آمين » .

ورواه ابن[٣] ماجه ، ولفظه : « ما حسدتكم اليهودُ على شىء ما حسدتكم على السلام والتأمين » .

وله عن ابن عباس أن رسولَ الله ﷺ[٤] قال : ما حسدتكم اليهودُ على شىء

(١) ليس فى ا ، ز .
(٢) مسند أحمد : ٦ ـ ١٣٥
(٣) سنن ابن ماجه : ٢٧٨
(٤) سنن ابن ماجه : ٢٧٩

ماحسدتكم على قول آمين ، فأكثروا من قول آمين » . وفى إسناده طلحة بن عمرو، وهو ضعيف .

وروى ابن مَرْدويه ، عن أبى هريرةَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « آمين خاتم رب العالمين على عباده المؤمنين » .

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: « أُعطيت آمين فى الصلاة ، وعند الدعاء ، لم يعط أحدٌ قبلى إلا أن يكونَ موسى؛ كان موسى يدعو وهارون يؤمّن ، فاختموا الدعاء بآمين ؛ فإنّ الله يستجيبه لكم » .

قلت: ومن هنا نزع بعضُهم فى الدلالة بهذه الآية الكريمة ؛ وهى قوله تعالى[1] : (وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلّوا عن سبيلك، ربنا اطمس على أموالهم واشدُدْ على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يَرَوا العذاب الأليم . قال: قد أجيبتْ دعوتكما فاستقيما ولا تتبعانّ سبيلَ الذين لا يعلمون)؛ فذكر الدعاء عن موسى وحْدَه ، ومِنْ سياق الكلام ما يدلّ على أنّ هارون أمّن ، فنزلَ منزلة من دعا ؛ لقوله تعالى : (قد أُجيبت دعوتكما) ؛ فدلَّ ذلك على أن مَنْ أمّن على دعاء فكأنما قاله ؛ فلهذا قال مَنْ قال : إن المأموم لا يقرأ ؛ لأنَّ تأمينه على قراءة الفاتحة بمنزلة قراءتها ؛ ولهذا جاء فى الحديث[2] : « مَنْ كان له إمام فقراءةُ الإمامِ له قراءة »[3]، [رواه أحمد فى مسنده][3] . وكان بلال يقول : لا تسبقنى بآمين يا رسولَ الله .

فدلّ هذا المنزع على أنّ المأمومَ لا قراءةَ عليه فى الجهرية . والله أعلم .

ولهذا قال ابن مَرْدويه: حدثنا أحمد بن الحسن، حدثنا عبد الله بن محمد بن سلام،

---

(١) سورة يونس ، آية ٨٨ ، ٨٩

(٢) مسند أحمد : ٢ — ٤٩ ، وسنن ابن ماجه : ٢٧٧

(٣) ليس فى ز .

حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا جرير ، عن ليث بن [١] أبى سليم ، عن كعب ، عن أبى هريرة ؛ قال : قال رسولُ الله ﷺ : « إذا قال الإمام غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، فقال آمين ، فوافق آمين أَهْل الأرض آمين أهل السماء غَفر الله للعبد ما تقدّم من ذنبه .

ومثل من لايقول آمين كمثل رجلٍ غزا مع قوم ، فاقترعوا ، فخرجت سِهامُهم ولم يخرج سهمه ، فقال : لِمَ لَمْ يَخْرُج سهمى ؟ فقيل : إنك لم تقل آمين » .

(١) فى ب : عن ليث عن ابن أبى سليم .

بسم الله الرحمن الرحيم

[رب يسر وأعن يا كريم[1]]

تفسير سورة البقرة

ذِكْر ما ورد فى فضلها : قال الإمام أحمد[2] : حدثنا عارم ، حدثنا مُعْتَمِر ، عن أبيه ، عن رجل ، عن أبيه ، عن مَعْقِل بن يسار ـ أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « البقرة سنام القرآن [٢٥] وذرْوَته ، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكا ، واستخرجت (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) من تحت العرش ، فوصلت بها ، أو فوصلت بسورة البقرة ، و « يس » قَلْبُ القرآن لايقرؤها رجلٌ يريدُ اللهَ والدارَ الآخرة إلا غُفِر له ، واقرءوها على موتاكم » . انفرد به أحمد .

وقد رواه أحمد[2] أيضا، عن عارم، عن عبد الله بن المبارك، عن سليمان التيمى، عن أبى عثمان ـ وليس بالنَّهْدى ـ عن أبيه، عن مَعْقل بن يسار؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « اقرءوها على موتاكم » ـ يعنى يس .

فقد تبينا بهذا الإسناد معرفة المبهم فى الرواية الأولى .

وقد أخرج هذا الحديث على هذه الصفة فى الرواية الثانية أبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه .

وقد روى الترمذى[3] من حديث حَكِيم بن جُبَير ، وفيه ضعف ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ؛ قال: قال رسول الله ﷺ : « لكل شىء سَنَام ، وإنّ سَنَام القرآن سورةُ البقَرة ، وفيها آيةٌ هى سيدة آى القرآن : آية الكرسى » .

وفى مسند أحمد ، وصحيح مسلم ، والترمذى[3] ، والنسائى ، من حديث سُهَيْل

(١) هذا العنوان ليس فى ا ، ز . (٢) مسند أحمد : ٥ ـ ٢٦

(٣) سنن الترمذى : ٥ ـ ١٥٧ ، والدر المنثور : ١ ـ ١٩

ابن أبى صالح، عن أبيه، عن أبى هريرة رضى الله عنه - أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً؛ فإنّ البيت الذى تقرأ فيه سورةُ البقرةِ لا يدخله الشيطان».

وقال الترمذى[1]: حسن صحيح.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنى ابن أبى مريم عن ابن لهيعة، عن يزيد ابن أبى حبيب، عن سنان بن سعد، عن أنس بن مالك؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يخرجُ من البيت إذا سمع سورةَ البقرة تُقْرأ فيه». سنان بن سعد، ويقال بالعكس، وثّقه ابن معين، واستنكر حديثه أحمد بن حنبل وغيره.

وقال أبو عبيد: حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن سلمة بن كهيل، عن أبى الأحوص، عن عبد الله - يعنى ابن مسعود - رضى الله عنه؛ قال[2]: إن الشيطان يفرّ[3] من البيت يسمع فيه سورة البقرة.

ورواه النسائى فى اليوم والليلة. وأخرجه الحاكم فى مستدركه من حديث شعبة؛ ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وقال ابن مَرْدويه: حدثنا أحمد بن كامل، حدثنا أبو إسماعيل الترمذى، حدثنا أيوب بن سليمان بن بلال، حدثنى أبو بكر بن أبى أويس، عن سليمان ابن بلال، عن محمد بن عَجْلان، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص، عن عبدالله ابن مسعود؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ[4]: «لا أُلفينّ أحَدكم يضَعُ إحدى رجليه على الأُخرى[5] يتغنّى ويدعُ سورةَ البقرة يقرؤها؛ فإنّ الشيطان ينفر من البيت تُقْرَأ

(١) سنن الترمذى: ٥ - ١٥٧
(٢) تفسير القرطبى: ١ - ١٥٢
(٣) فى القرطبى: ينفر.
(٤) والدر المنثور: ١ - ١٩
(٥) فى الدر المنثور: ثم يتغنى.

فيه سورة البقرة ، وإن أصفر البيوت الجوفُ الصُّفْر[١] من كتاب الله » .

وهكذا رواه النسائى فى اليوم والليلة عن محمد بن نصر ، عن أيوب بن سليمان ، به .

[وروى الدارمىّ فى مسنده ، عن ابن مسعود ؛ قال : ما من بيت تقرأ فيه سورة البقرة إلّا خرج منه الشيطان ، وله ضُراط .

وقال[٢] : إن لكل شىء سناما ، وإن سَنام القرآن سورة البقرة ، وإن لكل شىء لُبابا[٣] وإن لُبابَ القرآن المفصّل .

وروى أيضا من طريق الشعبى ؛ قال[٤] : قال عبد الله بن مسعود : مَنْ قرأ عشر آيات من سورة البقرة فى ليلةٍ لم يدخل ذلك البيتَ شيطانٌ تلك الليلة ، أربع من أولها وآية الكرسى ، وآيتان بعدها ، وثلاث آيات من آخرها ــ وفى رواية : لم يَقْرَبه ولا أهله يومئذ شيطان ، ولا شىء يكرهه ولا يُقْرأن على مجنون إلا أفاق][٥] .

وعن سَهْل بن سعد ؛ قال[٦] : قال رسولُ الله ﷺ : « إن لكل شىء سَناما ، وإنّ سنام القرآن البقرة ، وإنَّ مَنْ قرأها فى بيته ليلةً لم يدخله الشيطان ثلاثَ ليال ، ومن قرأها فى بيته نهاراً لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام » .

رواه أبو القاسم الطبرانى ، وأبو حاتم ، وابن حبان فى صحيحه ، [٥][وابن مَرْدويه من حديث الأزرق بن على ، حدثنا حسان بن إبراهيم ، حدثنا خالد بن سعيد المدنى ، عن أبى حازم ، عن سهل ، به . وعند ابن حبان خالد بن سعيد المدينى][٥] .

وقد روى الترمذى[٧] ، والنسائى ، وابن ماجه ، من حديث عبد الحميد بن جعفر ،

---

(١) الصفر : الخالى .
(٢) تفسير القرطبى : ١ ــ ١٥٢
(٣) اللباب : الخالص .
(٤) وتفسير القرطبى : ١ ١٥٣
(٥) إلى هنا ليس فى ز .
(٦) وتفسير القرطبى : ١ ــ ١٥٣
(٧) سنن الترمذى : ٥ ــ ١٥٦ ، وسنن ابن ماجه : ٧٨ ، وتفسير القرطبى : ١ ــ ١٥٢

عن سعيد المَقْبرى ، عن عطاء مولى أبى أحمد ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ؛ قال : « بعث رسولُ الله ﷺ بعثاً وهم ذَوُو عَدد فاستَقْرَأهم ؛ فاستقرأ كلَّ واحدٍ منهم ما معه من القرآن ، فأتى على رجل من أَحدثهم سنًّا ، فقال : ما معكَ يا فلان ؟ فقال: معى كذا وكذا وسورة البقرة . فقال: أمعك سورةُ البقرة؟ قال : نعم . قال: اذهَبْ فأنْتَ أميرهم » . فقال رجل من أشرافهم : والله ما منعنى أن أتعلّمَ سورةَ البقرة إلا أنى خشيتُ أن لا أقوم بها . فقال رسول الله ﷺ : « تعلّموا القرآن ، واقرءوه [وأَقْرِئوه][1] ؛ فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جِرَاب مَحْشُوّ مِسْكا يفوح ريحُهُ فى كل مكان. ومَثَلُ من تعلمه فيرقُد وهو فى جوفه كمثل جِرَاب أُوكِى[2] على مسك » . هذا لفظ رواية الترمذى . ثم قال[3] : هذا حديث حسن .

ثم رواه[3] من حديث الليث ، عن سَعيد ، عن عطاء مولى أبى أحمد مرسلا . فالله أعلم .

قال البخارى : وقال الليث : حدثنى يزيد بن الهاد ، عن محمد بن إبراهيم ، عن أُسيد بن حُضير رضى الله عنه ، قال : بينما هو يقرأ من الليل سورةَ البقرة ــ وفرسُه مربوطة عنده ــ إذ جالت الفرس ، فسكت فسكنت ، فقرأ فجالت الفرس ، فسكت فسكنت ، ثم قرأ فجالت الفرس ، فانصرف ، وكان ابنُه يحيى قريباً منها ، فأشفق أَنْ تصيبه، فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدَّث النبيّ ﷺ فقال : « اقرأ يا ابن حُضَير » . قال : قد أشفقتُ يا رسولَ الله على يحيى[4] ، وكان منها قريباً ، فرفعت رأسى وانصرفت إليه ، فرفعتُ رأسى إلى السماء ، فإذا مثل الظّلّة

(١) من سنن الترمذى .
(٢) فى سنن الترمذى : وكى . وكى : ربط . والمثبت فى ابن ماجه أيضاً .
(٣) سنن الترمذى : ٥ ــ ١٥٧ (٤) فى ز : أن تطأ يحيى .

فيها أمثال المصابيح ، فخرجت حتى لا أراها . قال : « وتَدْرِى ما ذاك ؟ » قال: لا. قال : « تلك الملائكة دنَتْ [٢٦] لصوتك ، ولو قرأْتَ لأصبحتْ ينظُر الناسُ إليها لا تتوارى منهم » .

وهكذا رواه الإمام العالم أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب «فضائل القرآن» عن عبد الله بن صالح ، ويحيى بن بكير عن الليث ، به .

وقد روى من وَجْهٍ آخر عن أسيد بن حُضير ، كما تقدم . والله أعلم .

وقد وقع نحوٌ من هذا لثابت بن قيس بن شَمّاس رضى الله عنه ؛ وذلك فيما رواه أبو عبيد : حدثنا عباد بن عباد ، عن جرير بن حازم، عن [عمه][1] جرير بن يزيد — أن أشياخ أهل المدينة حدثوه « أنّ رسولَ الله ﷺ قيل له : ألم تر ثابت بن قيس ابن شمّاس لم تزل دارُه البارحة تَزْهُر مصابيح . قال : « فلعله قرأ سورة البقرة » . قال : فسألت ثابتا[2] ، فقال : قرأت سورة البقرة » .

وهذا إسناد جيد إلا أن فيه إبهاما ، ثم هو مرسل . والله أعلم .

ذكر ماورد فى فضلها مع آل عمران

قال الإمام أحمد[3] : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا بشير[4] بن مهاجر ، حدثنى عبدالله ابن بُريدة ، عن أبيه ؛ قال : كنتُ جالسا عند النبى ﷺ فسمعته يقول : « تعلموا سورة البقرة فإن أخْذَها بركة ، وتَرْكها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة » .

قال : ثم سكت ساعة ، ثم قال : « تعلّموا سورةَ البقرة وآل عمران فإنهما الزَّهْرَاوان يظلّان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان ، أو فرقان مِنْ

(١) ليس فى ا ، ز .
(٢) فى ز : فسئل ثابت .
(٣) مسند أحمد : ٥ — ٣٤٨ ، والدر المنثور : ١٨٠ وصحيح مسلم : ٥٥٣
(٤) فى ب : بشر . والمثبت فى ا ومسند أحمد ، وتهذيب التهذيب أيضاً .

طير صوافّ؛ وإن القرآن يَلْقَى صاحبه يوم القيامة حين ينشقُّ عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول له : هل تعرفني ؟ فيقول : ما أعرفك . فيقول : أنا صاحبك القرآن الذى أظْمأتك فى الهوَاجر وأسهرتُ ليلك، وإنّ كل تاجر من وراء تجارته ، وإنك اليوم من وراء كلّ تجارة، فيعطى المُلك بيمينه، والخُلْد بشماله، ويوضع على رأسه تاجُ الوقار، ويُكْسَى والداه حلتين[1] لا يقوم لها أهْلُ الدنيا، فيقولان : بِمَ كُسينا هذا ؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن . ثم يقال: اقرأ واصعد فى دَرَج الجنة وغُرفها؛فهو فى صعود مادام يقرأ هذًّا كان أو ترتيلا » .

وروى ابن ماجه ، من حديث بشير[2] بن المهاجر بعضَه . وهـذا إسناد حسن على شرط مسلم ؛ فإن بشيرا[2] هذا خرّج له مسلم ، ووثقه ابن معين . وقال النسائى : ما به بأس ، إلا أن الإمام أحمد قال فيه : هو منـكر الحديث ، قد اعتبرت أحاديثَه فإذا هى تأتى[3] بالعجب .

وقال البخارى : يخالف فى بعض حديثه . وقال أبو حاتم الرازى : يكتب حديثَه ولا يحتج به .

وقال ابن عدى : روَى ما لا يتابع عليه . وقال الدارقُطْنى : ليس بالقوى .

قلت: ولـكن لبعضه شواهدُ ؛ فمن ذلك حديث أبى أُمامة الباهلى: قال الإمام[4] أحمد : حدثنا عبد الملك بن عَمْرو[5] ، حدثنا هشام ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن أبى سلام ، عن أبى أُمامة ؛ قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « اقرءوا القرآنَ

(١) فى ب : حلتان ــ تحريف .
(٢) فى ب : بشر . والمثبت فى ١ ، ومسند أحمد . وتهذيب التهذيب أيضا .
(٣) فى ز : تجيء . (٤) مسند أحمد : ٥ ــ ٢٤٩ ، ٤ ــ ١٨٣ .
(٥) فى ب : عمر . والمثبت فى المسند ، وتهذيب التهذيب أيضاً .

فإنه شافع لأهله يوم القيامة ، اقرءوا الزَّهْرَاوين : البقرة وآل عمران ، فإنهما يأْتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فِرْقان[١] من طَيْر صوافّ ، يحاجّان عن أهلهما [يوم القيامة][٢] . ثم قال : اقرءوا البقرةَ ، فإن أَخْذَها بركة ، وتَرْكها حسرة ، ولا تستطيعها البَطَلة .

وقد رواه مسلم[٣] فى الصلاة من حديث معاوية بن سلام ، عن أخيه زيد بن سلام ، عن جدّه أبى سلام مَمْطُور الحبشى ، عن أبى أمامة صُدَىّ بن عجلان الباهلى ، به .

الزَّهْراوان : المنيرتان . والغَيَاية : ما أظلّك من فوقك . والفِرْق : القطعة من الشيء . والصَّوافّ : المصطفة المتضامّة . والبَطَلَة : السحرة . ومعنى لا تستطيعها ؛ أى لا يمكنهم حفْظُها . وقيل : لا تستطيع النفوذَ فى قارئها . والله أعلم .

ومن ذلك حديث النوّاس بن سَمعان ، قال الإمام[٤] أحمد : حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن محمد بن مُهاجر ، عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشى ، عن جُبَير بن نُفَير ؛ قال : سمعتُ النوّاس بن سَمعان الكلابى يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يُؤْتَى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمهم سورة البقرة وآل عمران » . وضرب لها رســولُ الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهنّ بعــد ؛ قال : « كأنهما غمامتان ، أو ظُلتان سوداوان بينهما[٥] شَرْقٌ ، أو كأنهما فِرْقان من طير صَوَافّ يحاجّان عن صاحبهما » .

ورواه مسلم[٦] ، عن إسحاق بن منصور ، عن يزيد بن عبــد ربه ، به . والترمذى[٧] من حديث الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشى ، به . وقال : حسن غريب .

(١) فرقان : قطعتان (النهاية) (٢) ليس فى ز .
(٣) فى صحيح مسلم : ٥٥٣ (٤) مسند أحمد : ٤ — ١٨٣
(٥) الشرق : الضوء ، وهو الشمس ، والشق أيضا (النهاية) .
(٦) صحيح مسلم : ٥٥٤ (٧) سنن الترمذى : ٥ — ١٦٠

وقال أبو عبيد : حدثنا حجاج ، عن حماد بن سلمة ، عن عبد الملك بن عُمير ؛ قال : قال حماد : أحسبه عن أبى منيب ، عن عمه ـ أنّ رجلا قرأ البقرة وآل عمران ، فلما قضى صلاته قال له كعب : أقرأتَ البقرةَ وآل عمران ؟ قال : نعم . قال : فوالذى نفسى بيده ، إن فيهما اسم الله الذى إذا دُعى به استجاب .

قال : فأَخْبِرْنى به . قال : لا ، والله لا أُخبرك به ، ولو أخبرتك به لأوشكت أَنْ تدعوَه بدعوةٍ أَهلكُ فيها أنا وأنتَ .

وحدثنا عبد الله بن صالح ، عن معاوية بن صالح ، عن سليم بن عامر ـ أنه سمع أبا أمامة يقول : إن أخاً لكم أرى فى المنام أنّ الناس يسلكون فى صدع جَبَل وَعر طويل ، وعلى رأس الجبل شجرتان خَضْراوان يهتفان : هل فيكم قارئ[1] يقرأ سورة البقرة ؟ وهل فيكم قارئ[1] يقرأ سورة آل عمران ؟ قال : فإذا قال الرجل نعم دنَتا منه بأعذاقهما حتى يتعلّق بهما فتخطرانِ به الجبل .

وحدثنا عبد الله بن صالح ، عن معاوية بن [٢٧] صالح ، عن أبى عِمْران ـ أنه سمع أم الدرداء تقول : إنّ رجلا ممن قرأ القرآن أغار على جارٍ له فقتله ، وإنه أُقيد به فقتل ؛ فما زال القرآن ينسلّ منه سورة سورة حتى بقيت البقرةُ وآل عمران جمعة ؛ ثم إنّ آل عمران انسلّت منه وأقامت البقرة جمعة ؛ فقيل لها[2] : (ما يُبَدَّلُ القول لدَىّ وما أنا بظلّامٍ للعَبِيد) ؛ قال : فخرجَتْ كأنها السحابة العظيمة .

قال أبو عبيد : أراه يعنى أنهما كانتا معه فى قبره يدفعان عنه ويؤنسانه ، فكانتا من آخر ما بقى معه من القرآن .

وقال أيضاً : حدثنا أبو مُسْهر الغسانى ، عن سعيد بن عبد العزيز التنُّوخى ـ أنّ

(١) فى ز : هل فيكم من . (٢) سورة ق ، آية ٢٩

يزيد بن الأسود الجُرَشي[١] كان يحدّث أنه من قرأ البقرة وآل عمران في يوم برئ من النفاق حتى يُمسى ، ومن قرأهما في ليلة برئ من النفاق حتى يصبح . قال: فكان يقرؤهما كل يوم وليلة سِوَى جزئه .

وحدثنا يزيد عن وَرْقاء بن إياس ، عن سعيد بن جُبير ؛ قال : قال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه : مَنْ قرأ البقرة وآل عمران في ليلةٍ كان – أو كُتب – من القانتين .

فيه انقطاع ، ولكن ثبت في الصحيحين أنّ رسول الله ﷺ قرأ بهما في رَكْعَةٍ واحدة .

ذكر ما ورد في فضل السبع الطول

قال أبو عبيد : حدثنا هشام بن إسماعيل الدمشقي ، عن محمد بن شعيب ، عن سعيد بن بشير ، عن قتادة ، عن أبي المُلَيح ، عن واثلة بن الأسقع، عن النبي ﷺ ؛ قال: «أعطيت السبع الطول مكانَ التوراة ،وأعطيت المئين مكانَ الإنجيل، وأعطيتُ المثاني مكان الزبور ، وفضِّلْتُ بالمفصل » .

هذا حديث غريب . وسعيد بن أبي بشير فيه لين .

وقد رواه أبو عبيد عن عبد الله بن صالح ، عن الليث، عن سعيد بن أبي هلال؛ قال : بلغنا أنّ رسولَ الله ﷺ قال . . . فذكره . والله أعلم .

ثم قال : حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب بن عبد الله ابن حَنْطَب ، عن حبيب بن هند الأسلمى ، عن عُروة ، عن عائشة رضى الله عنها ؛ عن النبي ﷺ ؛ قال : « من أخذ السبع فهو حَبْر » .

(١) في ب : الحرشى – تحريف . والمثبت في اللباب أيضاً .

وهذا أيضا غريب . وحبيب بن هند بن أسماء بن هند[1] بن حارثة الأسلمى . وروى عنه عمرو بن أبى عمرو[2]، وعبد الله بن أبى بكرة، وذكره أبو حاتم الرازى ولم يذكر فيه جرحا . فالله أعلم .

وقد رواه[3] الإمام أحمد ، عن سليمان بن داود ، وحُسين ؛ كلاهما عن إسماعيل ابن جعفر ، به .

ورواه أيضا[4] عن أبى سعيد ، عن سليمان بن بلال ، عن حبيب بن هند ، عن عُروة ، عن عائشة – أنّ رسولَ الله ﷺ قال : « من أخذ السبع الأول من القرآن فهو حَبْر » .

قال أحمد[5] : وحدثنا حُسين ، حدثنا ابن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ مثله ، قال عبد[6] الله بن أحمد : وهذا أرى [أن][7] فيه عن أبيه عن الأعرج ، ولكن كذا كان فى الكتاب ، فلا أدرى أغفله أبى أو كذا هو مرسل ؟

[8][وروى الترمذى[9] ، عن أبى هريرة – أنّ رسول الله ﷺ بعث بَعْثاً وهم ذوو عدَدٍ وقَدَّم عليهم أَحْدَثَهم سنّاً لحفْظِه سورة البقرة ؛ وقال له : « اذهَبْ فأنْتَ أميرهم ». وصححه الترمذى][8] .

ثم قال أبو عبيد : حدثنا هُشيم ، أنبأنا أبو بشر ، عن سعيد بن جُبير – فى قوله تعالى[10] : (ولقد آتيناك سَبْعاً من المثانى) ؛ قال: هى السبع الطول: البقرة، وآل عمران،

---

(١) فى ب : هندب – تحريف . (٢) فى ب : عمرو بن عمرو. والمثبت فى المسند أيضاً.
(٣) فى المسند : ٦ – ٧٣ (٤) فى المسند : ٦ – ٨٢
(٥) فى المسند : ٦ – ٧٣ (٦) فى المسند : قال أبو عبد الرحمن .
(٧) من المسند . (٨) مابين القوسين ليس فى ز .
(٩) سنن الترمذى : ٥ – ١٥٦ (١٠) سورة الحجر ، آية ٨٧

والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، ويونس[١] . قال : وقال مجاهد : هى السبع الطول . وهكذا قال مكحول ، وعطية بن قيس ، وأبو محمد الفارسى ، وشدّاد ابن أوس ، ويحيى بن الحارث الذّمارى فى تفسير الآية بذلك وفى تعدادها وأن يونس هى السابعة .

فصــــل

والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف ؛ [٢][وهى من أوائل مانزل بها ، لكن قوله تعالى فيه[٣] : (واتقوا يوما تُرْجَعُونَ فيه إلى الله . . .) الآية ؛ يقال : إنها آخر ما نزل من القرآن . ويحتمل أن تكونَ منها ؛ وكذلك آيات الربا مِنْ آخر ما نزل ؛ وكان خالد بن مَعْدَان يسمى البقرة فسطاط القرآن][٢] .

قال بعض العلماء : وهى مشتملة على ألف خبر ، وألف أمر ، وألف نهى .

وقال العادُّون : آياتها مائتان وثمانون وسبع آيات . وكلماتها ستة آلاف كلمة ومائتان[٤] وإحدى وعشرون كلمة . وحروفها خمسة وعشرون ألفا وخمسمائة حرف . فالله أعلم .

قال ابن جُريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس : نزلت بالمدينة سورة البقرة .

وقال خُصيف ، عن مجاهد ، عن عبد الله بن الزبير ؛ قال : نزلت بالمدينة سورة البقرة .

وقال الواقدى : حدثنى الضحاك بن عثمان ، عن أبى الزّناد ، عن خارجة بن زيد ابن ثابت ، عن أبيه ؛ قال : نزلت البقرة بالمدينة . وهكذا قال غير واحد من الأئمة والعلماء والمفسرين ؛ ولا خلاف فيه .

---

(١) فى النهاية : والأنفال — بدل يونس .
(٢) مابين القوسين ليس فى ز .
(٣) سورة البقرة ، آية ٢٨١
(٤) فى ز : ومائة .

وقال ابن مَرْدويه : حدثنا محمد بن مَعْمر ، حدثنا الحسن بن على بن الوليد [الفارسى][١] ، حدثنا خلف بن هشام ؛ وحدثنا عيسى بن ميمون ، عن موسى ابن أنس بن مالك ، عن أبيه ؛ قال : قال رسول الله ﷺ[٢] : « لا تقولوا سورةَ البقرة ، ولاسورة آل عمران ، ولاسورة النساء ، وكذا القرآن كله ؛ ولكن قولوا : السورة التى يُذْكر فيها البقرة ، والتى يذكر فيها آل [٢٨] عمران ؛ وكذا القرآن كله » .

هذا حديث غريب لا يصحّ رَفْعه . وعيسى بن ميمون هذا هو أبو[٣] سلمة الخَوّاص ، وهو ضعيف الرواية لا يحتجُّ به .

وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود أنه رَمَى الجمرة من بَطْنِ الوادى ، فجعل البيتَ عن يساره ، ومِنى عن يمينه ؛ ثم قال : هذا مقام الذى أنزلت عليه سورة البقرة . أخرجاه .

وروى ابن مَرْدويه من حديث شُعبة ، عن عقيل بن طلحة ، عن عتبة بن[٤] مَرْثَد ؛ قال : رأى النبى ﷺ فى أصحابه تأخُّراً ، فقال : « يا أصحاب سورة البقرة » . وأظنّ هذا كان يوم حُنَين يوم وَلّوا مدبرين أمر العباس ، فناداهم : « يا أصحاب الشجرة » ؛ يعنى أهل بيعة الرضوان . وفى رواية : « يا أصحاب [سورة][٥] البقرة » ، لينشطهم بذلك ؛ فجعلوا يُقْبِلون من كل وَجْه . وكذلك يوم اليمامة مع أصحاب مُسيلمة جعل الصحابةُ يفرّون لكثافة جيش[٦] بنى حنيفة ؛ فجعل المهاجرون والأنصار يتنادَوْن : يا أصحاب سورة البقرة ، حتى فتح اللهُ عليهم ، رضِىَ الله عن أصحاب رسولِ الله أجمعين .

---

(١) ليس فى ز .
(٢) والدر المنثور : ١ — ١٨
(٣) فى ا ، ز : ابن سلمة وأراه تحريفا .
(٤) فى ز : مربد — تحريف .
(٥) ليس فى ز .
(٦) فى ز : حشر .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ[١] ﴾

قد اختلف المفسرون فى الحروف المقطعة التى فى أوائل السور ؛ فمنهم من قال : هى مما استأثر الله بعلمه ، فردّوا عِلْمها إلى الله ، ولم يفسروها . [١][حكاه القرطبى[٢] فى تفسيره ، عن أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وابن مسعود رضى الله عنهم أجمعين؛ وقاله عامر الشّعْبى ، وسُفْيان الثورى ، والربيع بن خُثَيْم . واختاره أبو حاتم بن حبّان][١] . ومنهم من فسّرها ؛ واختلف هؤلاء فى معناها ؛ فقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم : إنما هى أسماء السور . [١][قال العلامة أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى[٣] فى تفسيره : وعليه إطباق الأكثر ، ونقل عن سيبويه أنه نص عليه][١] .

ويعتضد لهذا[٤] بما ورد فى الصحيحين عن أبى هريرة أنّ رسولَ الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة « الٓمٓ السجدة » و « هل أتَى على الإنسان » .

وقال سفيان الثورى ، عن ابن أبى نَجِيح ، عن مجاهد أنه قال : الٓمٓ ، وحم ، والمص ، و ص : فواتحُ افتتح اللهُ بها القرآن . وكذا قال غيره عن مجاهد .

وقال مجاهد ــ فى رواية أبى حذيفة موسى بن مسعود ، عن شبل ، عن ابن أبى نَجيح ، عنه ــ أنه قال[٥] : « الم » اسمٌ من أسماء القرآن .

وهكذا قال قتادة ، وزيد بن أسلم . ولعل هذا يرجع إلى معنى قول عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم : إنه اسمٌ من أسماء السور ؛ فإنّ كل سورة يطلق عليها اسم القرآن ، فإنه يبعد أن يكون « المص » اسماً للقرآن كله ؛ لأن المتبادر إلى فَهْم سامع مَنْ يقول : قرأت « المص » أنما ذلك عبارة عن سورة الأعراف لا لمجموع القرآن . والله أعلم .

(١) مابين القوسين ليس فى ز . (٢) تفسير القرطبى : ١ - ١٥٤
(٣) فى الكشاف : ١ - ١٠ (٤) فى ز : هذا . (٥) والدر المنثور : ١ - ٢٢

وقيل : هي اسم من[1] أسماء الله تعالى ؛ فقال الشعبي : فواتح السور من أسماء الله تعالى . وكذلك قال سالم بن عبدالله ، وإسماعيل بن عبد الرحمن السُّدّي الكبير.

وقال شعبة ، عن السدي : بلغني أنّ ابن عباس قال : « الم » اسم من أسماء الله الأعظم ؛ هكذا رواه ابنُ أبي حاتم ، من حديث شعبة .

ورواه ابن جرير[2] ، عن بُندار ، عن ابن مهدى ، عن شُعْبة ؛ قال : سألت السدّى عن « حم » و« طس » و« الم » ، فقال : قال ابن عباس : هي اسم الله الأعظم.

وقال ابن جرير[2] : وحدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا أبو النعمان ، حدثنا شعبة ، عن إسماعيل السدّى ، عن مُرّة الهمدانى ؛ قال : قال عبد الله . . . فذكر نحوه .

[3][وحكى مثله عن على ، وابن عباس][3] .

وقال[2] على ابن أبي طلحة ، عن ابن عباس : هو[1] قسم أقسم الله به ، وهو من أسماء الله تعالى .

وروى ابن أبي حاتم ، وابن جرير[2] ، من حديث ابن عُلَيّة ، عن خالد الحذّاء ، عن عِكْرمة - أنه قال : « الم » قسم .

ورَويا[2] أيضا من حديث شَريك بن عبد الله ، عن عطاء بن السائب ، عن أبي الضحى ، عن ابن عباس: « الم » ، قال : أنا الله أعلم . وكذا قال سعيد بن جُبير .

وقال السدّى[2] عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس ؛ وعن مرّة الهمدانى ، عن ابن مسعود ؛ وعن ناس من أصحاب النبي « الم » ؛ قال : أما « آلم » فهي حروف استفتحت[4] من حروف هجاء أسماء الله تعالى .

وقال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية - في قوله تعالى:

---

(١) والدر المنثور : ١ - ٢٢ (٢) تفسير الطبرى : ١ - ٦٧

(٣) مابين القوسين ليس في ز . (٤) في تفسير الطبرى : اشتقت .

« الم » ـ قال[١] : هــذه الأحرف الثلاثة من التسعة والعشرين حرفا دارت فيها الألسن كلها ليس منها حرف إلا وهو مفتاحُ اسم من أسمائه ، وليس منها حرف إلا وهو من آلائه وبَلَائه ، وليس منها حَرْف إلا وهو فى مدة أقوام وآجالهم .

قال[٢] عيسى بن مريم عليه السلام ، وعجب ؛ فقال : أعجب أنهم[٣] ينطقون بأسمائه ، ويعيشون فى رزقه ، فكيف يكفرون به ؟ فالألف مفتاحُ اسم الله ، واللام مفتاح اسمه لطيف، والميم مفتاح اسمه مجيد ، فالألف[٤] آلاء الله ، واللام لطف الله، والميم مَجْد الله ، والألف[٥] سنة ، واللام ثلاثون سنة ، والميم أربعون سنة

هذا لفظُ ابن أبى حاتم . ونحوه رواه ابن جرير[١] ؛ ثم شرع يوجِّه كلَّ واحد من هذه الأقوال ، ويوفِّق بينها ، وأنه لا منافاةَ بين كل واحد منها وبين الآخر ، وأنَّ الجمع ممكن ؛ فهى أسماء للسور ، ومن أسماء الله تعالى يفتتح بها السور ؛ فكلُّ حرف منها دلَّ على اسم من أسمائه وصِفَةٍ من صفاته ؛ كما افتتح سُوَرا كثيرة بتحميده وتسبيحه وتعظيمه ؛ قال : ولا مانع من دلالة الحرفِ منها على اسْمٍ من أسماء الله ، وعلى صفةٍ من صفاته ، وعلى مدة ؛ وغير ذلك ؛ كما ذكره الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ؛ لأنّ الكلمة الواحدة تُطلق على معان كثيرة ، كلفظة الأُمة ؛ فإنها تطلق ويراد به الدِّين ؛ كقوله تعالى[٦] : (إنّا وَجَدْنا آباءنا على أُمّة) . وتطلق ويُراد بها الرجل المطيع لله ، كقوله تعالى[٧] : (إنَّ إبراهيم كان أمةً قانتا لله حَنِيفا ولم يك من المشركين) . وتطلق ويراد بها الجماعة ، كقوله تعالى[٨] : (وَجَدَ عليه [٢٩] أُمةً من الناس يَسْقُون) . وقوله تعالى[٩] :(ولقد بَعَثْنا فى كل أُمّةٍ رسولا).

(١) تفسير الطبرى : ١ ـ ٦٧ (٢) فى تفسير الطبرى : وقال .
(٣) فى تفسير الطبرى : وعجيب ينطقون . (٤) فى تفسير الطبرى : والألف .
(٥) فى تفسير الطبرى : الألف . (٦) سورة الزخرف ، آية ٢٢
(٧) سورة النحل ، آية ١٢٠ (٨) سورة القصص ، آية ٢٣ (٩) سورة النحل آية ٣٦

وتطلق ويُراد بها الحين من الدهر ؛ كقوله تعالى[١] : (وقال الذى نجا منهما وادّكر[٢] بعد أُمّة) ؛ أى بعدحين ، على أصح القولين ـ قال : فكذلك هذا .

هذا حاصلُ كلامه موجّها ؛ ولكن هذا ليس كما ذكره أبو العالية ؛ فإن أبا العالية زعم أن الحرف دلّ على هذا وعلى هذا وعلى هذا معا ، ولفظة « الأمة » وما أشبهها من الألفاظ المشتركة فى الاصطلاح إنما دلّ فى القرآن فى كل موطن على معنى واحدٍ دلّ عليه سياقُ الكلام ، فأما حَمْلُه على مجموع محامله إذا أمكن فمسألة مختلف فيها بين علماء الأصول ، ليس هذا موضع البحث فيها . والله أعلم .

ثم إن لفظة الأُمّة تدل[٣] على كل من معانيها[٤] فى سياق الكلام بدلالة الوَضْع ، فأما دلالة الحرف الواحد على اسم يمكن أنْ يدلّ على اسم آخر من غير أن يكونَ أحدُهما أولى من الآخر فى التقدير أو الإضمار بوَضْع ولا بغيره ؛ فهذا مما لا يُفْهَم إلا بتوقيف .

والمسألةُ مختلف فيها،وليس فيها إجماع حتى يحكم به ، وما أنشدوه من الشواهد على صحة إطلاق الحرف الواحد على بقية الكلمة فإن فى السياق ما يدلّ على ما حذف بخلاف هذا ؛ كما قال الشاعر[٥] :

قلنا قِفِى لنا فقالت قاف ... لا تَحْسَبِى أنّا نسينا الإيجاف

تعنى وقفت[٦] .

---

(١) سورة يوسف ، آية ٤٥

(٢) ادكر أصلها اذتكر ، ومعناها تذكر واستحضر ، فهو مدكر .

(٣) فى ز . لفظ . . . يدل .

(٤) فى ز : معانيه .

(٥) تفسير الطبرى : ١ ـ ٧٠ ، وتفسير القرطبى : ١ ـ ١٥٥ ، واللسان ـ وقف . وفيه : قلت ـ بدل : قلنا . و « قالت » ـ بدل : فقالت . وفى ا : أنا نسينا الإلحاف .

(٦) فى تفسير الطبرى : يعنى بقوله قلت قاف : قلت قد وقفت ـ وهى أوضح .

وقال الآخر[١] :

ما للظليم عالَ كيْفَ لايا ينقد عنه جلده إذا يا

فقال ابن جرير : كأنه أراد أنْ يقول : إذا يفعل كذا وكذا ، فاكتفى بالياء من يفعل .

وقال الآخر[١] :

بالخير خيراتٌ وإنْ شرًّا فا ولا أُريد الشر إلا أنْ تا

يقول : وإن شرا فشر ، ولا أريد الشر إلا أن تشاء ، فاكتفى بالفاء والتاء من الكلمتين عن بقيتهما ، ولكن هذا ظاهر من سياق الكلام . والله أعلم .

[٢][قال القرطبي[٣] : وفى الحديث : «مَنْ أعان على قَتْل مسلم بشطر كلمة . . .» الحديث ، قال سفيان : هو أنْ يقول فى « أقتل » « أقْ »][٢] .

وقال خُصيف ، عن مجاهد : إنه قال : فواتح السور كلّها : ق ، وص ، وحم ، وطسم ، والر ، وغير ذلك — هجاء موضوع .

وقال بعضُ أهل العربية : هى حروف من حروف المعجم ، استغنى بذكر ماذكر منها فى أوائل السور عن ذكر بواقيها التى هى تتمةُ الثمانية والعشرين حرفا ؛ كما يقول القائل : ابنى يكتب فى — ا ب ت ث — أى فى حروف المعجم الثمانية والعشرين ، فيستغنى بذكر بَعْضِها عن مجموعها ؛ حكاه ابن جرير[٤] .

قلت: مجموع الحروف المذكورة فى أوائل السور بحَذْفِ المكرر منها أربعة عشر

---

(١) فى تفسير الطبرى (١ — ٧٠) : وكقول راجزهم . وفى ا : غال — بالغين — بدل عال . أما البيت الأخير : بالخير خيرات . . فقد نسبه القرطبى إلى زهير : ١ — ٣٧

(٢) ما بين القوسين ليس فى ز .

(٣) تفسير القرطبى : ١ — ١٥٦

(٤) تفسير الطبرى : ١ — ٧٢

حرفا ؛ وهى ـ ا ل م ص ر ك ه ى ع ط س ح ق ن ـ يجمعها قولك: نص حكيم قاطع له سِرّ ؛ وهى نصفُ الحروف عدداً ، والمذكور منها أشرف من المتروك[١] ؛ وبيانُ ذلك من صناعة التصريف .

[٢][قال الزمخشرى[٣] : وهذه الحروف الأربعة عشر مشتملة على أصناف أجناس الحروف ، يعنى من المهموسة ، والمجهورة ، ومن الرِّخْوة والشديدة ، ومن المُطْبَقة والمفتوحة ، ومن المستعلية والمنخفضة ، ومن حروف القلقلة . وقد سردها مفصلة ؛ ثم قال: فسبحان الذى دقّت فى كل شىء حكمته . وهذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها ؛ وقد علمت أنّ معظم الشىء وجُلّه ينزل منزلةَ كله][٢] .

ومن هاهنا لخَّص بعضهم فى هذا المقام كلاماً ؛ فقال : لا شك أنّ هذه الحروف لم ينزّلها سبحانه وتعالى عبثاً ولا سُدًى ؛ ومَنْ قال من الجهلة : إنّ فى القرآن ما هو تعبُّد لا معنى له بالكلية فقد أخطأ خطأً كبيرا ، فتعيَّن أن لها معنى فى نفس الأمر ؛ فإن صحّ لنا فيها عن المعصوم شىء قُلْنا به ، وإلا وقفنا حيث وقفنا وقلْنا[٤] : (آمَنَّا به كلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) . ولم يجمع العلماء فيها على شىء معيَّن ؛ وإنما اختلفوا ؛ فمن ظهر له بعضُ الأقوال بدليل فعليه اتباعُه ، وإلا فالوَقْفُ حتى يتبيّن . هذا مقام .

المقام الآخر فى الحكمة التى اقتضَتْ إيرادَ هذه الحروف فى أوائل السور ماهى؟ مع قَطْع النظر عن معانيها فى أنفسها .

فقال بعضهم : إنما ذكرت ليُعْرَفَ بها أوائل السور . حكاه ابن جرير[٥] ؛ وهذا ضعيف ؛ لأن الفصل حاصل بدونها فيما لم تذكر فيه وفيما ذكرت فيه البسملة تلاوة وكتابة .

(١) لعله يريد أنه أعظم (٢) ما بين القوسين ليس فى ز . (٣) فى الكشاف : ١ ـ ١٣
(٤) سورة آل عمران ، آية ٧ (٥) تفسير الطبرى : ١ ـ ٧٣

وقال آخرون : بل ابتدئَ بها لتُفْتَح لاستماعها أسماعُ المشركين إذ تواصَوْا بالإعراض عن القرآن ، حتى إذا استمعوا له تلا عليهم المؤلَّف منه .

حكاه ابن جرير[1] أيضاً ؛ وهو ضعيف أيضاً ؛ لأنه لو كان كذلك لكان ذلك فى جميع السور لا يكون فى بعضها ، بل غالبها ليس كذلك ؛ ولو كان كذلك أيضاً لانبغى الابتداء بها فى أوائل الكلام معهم سواء كان افتتاح سورةٍ أو غير ذلك .

ثم إنّ هذه السورة والتى تليها ـ أعْنى البقرة وآل عمران مدنيتان ليستا خطاباً للمشركين ، فانتقض ما ذكروه بهذه الوجوه .

وقال آخرون : بل إنما ذكرت هذه الحروف فى أوائل السور التى ذُكِرَتْ فيها بيانا لإعجاز القرآن ، وأنّ الخَلْقَ عاجزون عن معارضته بمثله ؛ هذا مع أنه [مركّب][2] من هـــذه الحروف المقطّعة التى يتخاطبون بها . [3][وقد حكى هذا المذهب الرازى فى تفسيره عن المبرد وجَمْع من المحققين .

وحكى القرطبى عن الفراء وقُطْرب نحو هذا ، وقرره الزمخشرى[4] فى كشّافه ، ونَصره أتمّ نصر . وإليه ذهب الشيخ العلامة أبو العباس ابن تيمية ، وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزّى ، وحكاه لى عن ابن تيمية .

قال الزمخشرى[4] : ولم ترد كلّها مجموعة فى أول القرآن ، وإنما كررت ليكون أبلغ فى التحدى والتبكيت ، كما كررت قصص كثيرة ، وكرر التحدى بالصريح فى أماكن ؛ قال : وجاء منها على حرْفٍ واحد ، كقوله : « ص » ، « ن » ، « ق » . وحرفين ، مثل : «حم» . وثلاثة ، مثل : «الم» . وأربعة ، مثل : «المر» و «المص» .

---

(١) تفسير الطبرى : ١ ـ ٦٩ (٢) ليس فى : ا ، ز .

(٣) ما بين القوسين ليس فى ا ، ز . (٤) فى الكشاف : ١ ـ ١٢

وخمسة ، مثل : « كهيعص » و « حم . عسق » ؛ لأن أساليب كلامهم على هذا من الكلمات ؛ ما هو على حَرْف ، وعلى حرفين ، وعلى ثلاثة ، وعلى أربعة ، وعلى خمسة ؛ لا أكثر من ذلك .

قلت :] ولهذا كلُّ سورة افتتحت بالحروف ، فلا بد أن يذكر فيها الانتصارُ للقرآن ، وبيانُ إعجازه وعظمته؛ وهذا معلوم بالاستقراء ؛ وهو الواقع فى تسع وعشرين سورة ؛ ولهذا يقول تعالى(١) : (آلم . ذلك الكتابُ لا رَيْبَ فيه) . (آلم(٢) . الله لا إله إلا هو الحى القيوم . نزّل عليكَ الكتابَ بالحق مصدِّقا لما بين يَدَيْه) . (المص(٣) . كتاب أُنزل إليك فلا يَكُنْ فى صَدْرِك حَرَج منه). (الر(٤) . كتاب أنزلناه إليكَ لتُخْرِجَ الناسَ من الظلمات إلى النور بإذْن ربِّهم) . (آلم(٥) . تنزيلُ الكتاب لا رَيْبَ فيه من رب العالمين) . (حم(٦) . تنزيل من الرحمن الرحيم) . (حم . عسق(٧) . كذلك يُوحِى إليكَ وإلى الذين من قبْلكَ اللهُ العزيزُ الحكيم)؛ وغير ذلك من الآيات الدالة على صحَّة [٣٠] ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمْعن النظر . والله أعلم .

وأما مَنْ زعم أنها دالَّةٌ على معرفة المُدَد ، وأنه يستخرج من ذلك أوقاتُ الحوادث والفتن والملاحم، فقد ادَّعى ما ليس له ؛ وطار فى غير مطاره، وقد ورد فى ذلك حديث ضعيف ؛ وهو مع ذلك أدلُّ على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته ، وهو(٨) ما رواه محمد بن إسحاق بن يَسَار صاحب المغازى : حدثنى الكلبى ، عن أبى صالح ،

(١) أول سورة البقرة . (٢) أول سورة آل عمران .
(٣) أول سورة الأعراف . (٤) أول سورة إبراهيم .
(٥) أول سورة السجدة . (٦) أول سورة فصلت . (٧) أول سورة الشورى .
(٨) تفسير الطبرى : ١ — ٧١ ، والدر المنثور : ١ — ٢٣

عن ابن عباس ، عن جابر بن عبد الله بن رئاب ؛ قال : مَرّ أبو ياسر بن أخْطب في رجالٍ من يهود برسول الله ﷺ ، وهو يَتْلُو فاتحةَ سورة البقرة : (آلم . ذلك الكتابُ لا رَيْبَ فيه) ، فأتى أخاه حُيَيّ بن أخطب في رجال من اليهود ؛ فقال : تعلمون والله ، لقد سمعتُ محمداً يتلو فيما أنزل الله تعالى عليه : (آلم . ذلك الكتابُ لا رَيْبَ فيه) . فقال : أنت سمعتَه ؟ قال : نعم . قال : فمشى حُيَيّ بن أخْطب في أولئك النفَر من اليهود إلى رسولِ الله ﷺ ، فقالوا : يا محمد ؛ ألم يذكر أنك تتلو فيما أنزل الله عليك : (آلم . ذلك الكتاب) ؟ فقال رسول الله ﷺ : « بلى » . فقالوا : جاءك بهذا جبريل من عند الله ؟ فقال : « نعم » . قالوا : لقد بعث اللهُ قبلك أنبياء ما نعلمه بيّنَ لنبيّ منهم ما مُدّة ملكه ، وما أَجَل أمته غيرك !

فقام حُيَيّ بن أخطب ، وأقبل على مَنْ كان معه ، فقال لهم : الألِف واحدة ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ؛ فهذه إحدى وسبعون سنة ؛ أفتدخلون في دينِ نبيّ إنما مدةُ ملكه ، وأجَلُ أمته ، إحدى وسبعون سنة ؟ ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ؛ هل مع هذا غيره ؟ فقال : نعم ، قال : ما ذاك ؟ قال : « المص » . قال : هذا أثقَل وأطول ، الألِف واحد[1] ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، والصاد تسعون[2] . فهذه إحدى وثلاثون ومائة[3] سنة . هل مع هذا يا محمد غيره ؟ قال : نعم . قال : ما ذاك ؟ قال : الر . قال : هذا أثقل وأطول ؛ الألِف واحدة ، واللام ثلاثون ، والراء مائتان ، فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة. فهل مع هذا يا محمد

---

(١) في ز : واحدة .

(٢) في ا ، ز : سبعون . والمثبت في الدر المنثور : ١ — ٢٣ ، وارجع إلى تفسير الطبري (١ — ٧٢) ، والهامش الآتي .

(٣) هذا المجموع لا يتسق مع الأعداد السابقة . وفي تفسير الطبري (١ — ٧٢): والصاد تسعون ، فهذه مائة وإحدى وستون سنة وهو متسق .

غيره ؟ قال : « نعم » . قال : ماذا ؟ قال : « المر » . قال : هـذا أثقل وأطول ؛ الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، والراء مائتان ؛ فهذه إحدى وسبعون ومائتان .

ثم قال : لقد لبّس علينا أمرك يا محمد حتى ما ندرى أقليلا أعطيتَ أم كثيرا . ثم قال : قوموا عنه .

ثم قال أبو ياسر لأخيه حُيَىّ بن أخطب ولمَنْ معه من الأحبار : ما يدريكم لعله قد جمع هذا لمحمد كلّه إحدى وسبعون ، وإحدى وثلاثون ومائة ، وإحدى وثلاثون ومائتان ، وإحدى وسبعون ومائتان ؛ فذلك سبعمائة وأربع سنين .

فقالوا : لقد تشابه علينا أمْرُه ؛ فيزعمون أنّ هؤلاء الآيات نزلت فيهم[1] : (هو الذى أنزل عليكَ الكتابَ منه آياتٌ مُحْكَمَات هن أمّ الكتابِ وأُخَر مُتَشَابِهات) .

فهذا [الحديث][2] مدارُه على محمد بن السائب الكلبى ، وهو ممن لايحتج بما انفرد به . ثمّ كان مقتضي هذا المسلك إن كان صحيحا أنْ يحسب ما لكل حرف من الحروف الأربعة عشر التى ذكرناها، وذلك يبلغُ منه جملةٌ كثيرة، وإن حسبت مع التكرار فأطمّ وأعظم . والله أعلم

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) ﴾

قال ابن جُرَيج : قال ابنُ عباس : ذلك الكتابُ ، أى هذا الكتاب . وكذا قال مجاهد ، وعِكْرمة ، وسعيد بن جُبير، والسدّى ، ومُقاتل بن حيان، وزيدبنأسلم،

---

(١) سورة آل عمران ، آية ٧ (٢) ليس فى ز .

وابن جُرَيج أن « ذلك » بمعنى هذا ؛ والعربُ تقارض[١] بين اسمى الإشارة ؛ فيستعملون كلا منهما مكانَ الآخر. وهذا معروف فى كلامهم[٢]. [وقد حكاه البخارى عن مَعمر بن المثنى ، عن أبى عبيدة .

وقال الزمخشرى[٣] : ذلك إشارة إلى (الم) ، كما قال تعالى[٤] : (لا فارِضٌ ولا بِكْرٌ عَوَانٌ بين ذَلك) . وقال تعالى[٥] : (ذلكم حُكْمُ اللهِ يحكمُ بينكم) . وقال : (ذلكم الله) ، وأمثال ذلك مما أُشير به إلى ما تقدم ذِكْرُه . والله أعلم .

وقد ذهب بعضُ المفسرين فيما حكاه القرطبى[٦] وغيره أنّ « ذلك » إشارة إلى القرآن الذى وُعِد الرسولُ ﷺ بإنزاله عليه ، أو التوراة ، أو الإنجيل ، أو نحو ذلك فى أقوال عشرة .

وقد ضعّفَ هذا المذهب كثيرون . والله أعلم][٢] .

والكتابُ : القرآن . ومَنْ قال: إنّ المرادَ بذلك الكتاب الإشارة إلى التوراة ـ كما حكاه ابن[٧] جرير وغيره ، فقد أبعد النُّجْعَة ، وأغرقَ فى النزع ، وتكلّف ما لا عِلْمَ له به .

والرَّيْب : الشك . قال السدّى ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ؛ وعن مُرّة الهمدانىّ ، عن ابن مسعود ، وعن أُناس من أصحاب رسول الله ﷺ : (لا رَيْبَ فيه) : لا شك فيه .

(١) فى ب : تعارض ، والعبارة فى ز : والعرب تقارض بين هذين الاسمين من أسماء الإشارة .
(٢) ما بين القوسين ليس فى ز .
(٣) فى الكشاف : ١ ـ ١٤
(٤) سورة البقرة ، آية ٦٨
(٥) سورة الممتحنة ، آية ١٠
(٦) تفسير القرطبى : ١ ـ ١٥٧ ، ١٥٨
(٧) تفسير الطبرى : ١ ـ ٧٥

وقال أبو الدَّرْداء ، وابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جُبير ، وأبو مالك ، ونافع مولى ابن عمر ، وعطاء ، وأبو العالية ، والربيع بن أنس ، ومُقَاتل بن حيان ، والسُّدّى ، وقتادة ، وإسماعيل بن أبى خالد — وقال ابن أبى حاتم : لا أعلم فى هذا خلافا .

[1][وقد يستعمل الرَّيْبُ فى التهمة : قال جَمِيل[2] :

ثُبينةُ قالت يا جَمِيلُ أرَبْتَنى　　فقلتُ كلانا يا بُثَيْنُ مُرِيب

واستعمل أيضا فى الحاجة ، كما قال بعضهم[2] :

قضَيْنَا مِنْ تهامةَ كلَّ رَيْب　　وخَيْبَرَ ثم أجْمَعْنا السيوفا][1]

ومعنى الكلام [هنا][1] أنَّ هذا الكتاب ، وهو القرآن لا شكَّ فيه أنه نزل من عند الله ، كما قال تعالى فى السجدة[3] : (الٓمٓ . تنزيل الكتاب لا رَيْبَ فيه من رَبِّ العالمين) .

[1][وقال بعضهم : هذا خبر ، ومعناه النهى ؛ أى لا ترتابوا فيه][1] .

ومن القرّاء مَنْ يقف على قوله تعالى : (لا رَيْبَ) ، ويبتدئ بقوله تعالى : (فيه هُدًى للمتقين) . والوقْفُ على قوله تعالى : (لاريب فيه) أَوْلَى للآية التى ذكرناها ، ولأنه يصير قوله تعالى : (هُدًى) صفة للقرآن ؛ وذلك أبلَغُ من كونه فيه هدى .

وهُدًى : يحتمل من حيث العربية أن يكونَ مرفوعا على النعت ، ومنصوبا على الحال ، وخُصَّت الهداية للمتقين ، كما قال[4] : (قل هو للذين آمَنُوا هُدًى وشفاء ،

(١) ليس فى ز .　(٢) وتفسير القرطبى : ١ — ١٥٩ ، واللسان — ريب ، ونسبه فيه إلى كعب بن مالك الأنصارى .　(٣) سورة السجدة ، آية ١ ، ٢
(٤) سورة فصلت ، آية ٤٤

والذين لا يؤمنون فى آذانهم وَقْر ، وهو عليهم عَمًى أولئك ينادَوْنَ من مكان بعيد) ـ[1] (ونُنَزِّلُ من القرآن ما هو شِفَاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ولا يزيدُ الظالمين إلا خَسَارًا) ؛ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنَّفْع بالقرآن ؛ لأنه هو فى نفسه هدًى ، ولكن لا يناله إلا الأبرار ؛ كما قال تعالى[2] : (يأيها الناسُ قد جاءتكم موعظةٌ من ربكم وشفاءٌ لما فى الصدور وهُدًى ورحمة للمؤمنين) .

وقد قال السدّى ، عن أبى [٣١] مالك ؛ وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ؛ وعن مُرَّةَ الهمدانى ، عن ابن مسعود ؛ وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ (هُدًى للمتقين) : يعنى نُوراً للمتقين[3] . [وقال الشعبى : هدى من الضلالة.

وقال سعيد بن جُبير : تبيان للمتقين ، وكل ذلك صحيح . وقال السدى ـ عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس . وعن مرة الهَمْدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ : (هدى للمتقين) ـ قال : هم المؤمنون][3] .

وقال أبو رَوْق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ؛ [قال : هُدًى][4] للمتقين ؛ قال : [هم][4] المؤمنون الذين يتَّقُونَ الشرك بى ، ويعملون بطاعتى .

وقال محمد بن إسحاق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زَيْد بن ثابت ، عن عِكْرِمة ، أو سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس : (للمتقين) ـ قال الذين يَحْذَرون من الله عقوبته فى تَرْكِ ما يعرفون من الهدى ، ويرجون رحمته فى التصديق بما جاء به .

---

(١) سورة الإسراء آية ، ٨٢
(٢) سورة يونس ، آية ٥٧
(٣) ما بين القوسين من ا ، ز .
(٤) ليس فى ز .

وقال سفيان الثورى ، عن رجل ، عن الحسن البصرى ـ قوله تعالى : (المتقين) ـ قال : اتَّقَوا ما حرَّمَ الله عليهم ، وأدَّوا ما افترض عليهم .

وقال أبو بكر بن عيّاش : سألنى الأعمش عن المتقين . قال : فأجبته ، فقال لى : سَلْ عنها الكلبى ، فسألته ، فقال: الذين يجتنبون كبائرَ الإثم . قال : فرجعتُ إلى الأعمش ، فقال : نرى[1] أنه كذلك ولم ينكره .

وقال قتادة (المتقين) : هم الذين نعتهم اللهُ بقوله : (الذين يؤمنون بالغَيْبِ ويُقيمون الصلاة . . .) الآية والتى بعدها .

واختيار ابن[2] جرير أن الآيةَ تعمّ ذلك كله ؛ وهو كما قال .

وقد روى الترمذى ، وابن[3] ماجه ، من رواية أبى عَقِيل ـ عبد الله بن عقيل ، عن عبد الله بن يزيد ، عن رَبيعة بن يزيد ، وعطية بن قيس ، عن عَطِية السعدى ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يبلغ العبدُ أن يكونَ من المتقين حتى يدَعَ مالا بأس به حذَراً مما[4] به بأس » . ثم قال الترمذى : حسن غريب .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن عمران ، عن[5] إسحاق ابن سليمان ـ يعنى الرازى ، عن المغيرة بن مسلم ، عن ميمون أبى حمزة ؛ قال : كنتُ جالسا عند أبى وائل ، فدخل علينا رجل يقال له : أبو عفيف من أصحاب معاذ ، فقال له شقيق بن سلمة : يا أبا عفيف ، ألا تحدثنا عن معاذ بن جبل ؟ قال : بلى ، سمعته يقول[6] : يُحْبَس الناسُ يوم القيامة فى بَقِيع واحد ، فينادى منادٍ : أين المتقون ؟ فيقومون فى كنَفٍ من الرحمن ، لايحتجب الله منهم ولا يستتر .

(١) فى ب : يرى .
(٢) فى تفسير الطبرى : ١ ـ ٧٧
(٣) سنن ابن ماجه : ١٤٠٩
(٤) فى سنن ابن ماجه : حذرا لما به البأس .
(٥) فى ا ، ز : حدثنا
(٦) والدر المنثور : ١ ـ ٢٤

قلت[١] : مَن المتقون ؟ قال : قوم اتقوا الشِّرْكَ وعبادةَ الأوثان ، وأخلصوا لله العبادة ؛ فيمرون إلى الجنة .

[٢][ويطلقُ الهدى ويُرَاد به ما يقرّ في القلب من الإيمان ؛ وهذا لا يقدِرُ على خَلْقِه في قلوب العباد إلا اللهُ عز وجل . قال الله تعالى[٣] : (إنَّكَ لا تهدى مَنْ أحببتَ) . وقال[٤] : (ليس عليكَ هُداهم) . وقال[٥] : (مَنْ يُضْلِل اللهُ فلا هادِيَ له) . وقال[٦] : (مَنْ يهدِ اللهُ فهو المهتد ، ومَن يُضْلِل فلن تجد له وَلِيًّا مرشدا) ، إلى غير ذلك من الآيات .

ويطلق ويراد به بيانُ الحق ، وتوضيحُه ، والدلالةُ عليه ، والإرشاد إليه ؛ قال الله تعالى[٧] : (وإنكَ لتَهْدِى إلى صراط مستقيم) . وقال[٨] : (إنما أنتَ مُنْذِر ولكل قوم هادٍ) . وقال تعالى[٩] : (وأما ثمودُ فهديناهم فاستَحَبُّوا العَمَى على الهُدَى) . وقال[١٠] : (وهديناه النَّجْدَين) على تفسير مَنْ قال : المراد بهما الخير والشر ؛ وهو الأرجح . والله أعلم .

وأصل التقوى التوقّى مما يكره ؛ لأنّ أصلها وَقْوَى من الوقاية ؛ قال النابغة[١١] :

سقط النصيفُ ولم ترد إسقاطه فتناولته واتَّقتْنا باليَدِ

وقال الآخر[١٢] :

فألقت قِناعا دونَه الشمسُ واتَّقت بأحسن موصولين كفّ ومِعْصَمِ

(١) في الدر المنثور : قيل .
(٢) مابين القوسين ليس في ز .
(٣) سورة القصص ، آية ٥٦
(٤) سورة البقرة ، آية ٢٧٢
(٥) سورة الأعراف ، آية ١٨٦
(٦) سورة الكهف ، آية ١٧
(٧) سورة الشورى ، آية ٥٢
(٧) سورة الرعد ، آية ٧
(٩) سورة فصلت ، آية ١٧
(١٠) سورة البلد ، آية ١٠
(١٣) ديوانه : ٣٤ ، وتفسير القرطبي : ١ – ١٦١ ، والنصيف : الخمار .
(١٢) وتفسير القرطبي : ١ – ١٦١

وقد قيل : إنَّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل أُبَيّ بن كعب عن التقوى ، فقال له : أما سلكتَ طريقاً ذا شَوْك ؟ قال : بلى . قال : فما عملتَ ؟ قال : شمَّرت واجتهدت . قال : فذلك التقوى .

وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز ؛ فقال[١] :

خَلِّ الذنوبَ صغيرها وكبيرها ذاكَ التّقى
واصنع كماشٍ فوقَ أر ضِ الشوكِ يحذَرُ ما يرى
لا تحقرنَّ صغيرة إن الجبالَ من الحصى

وأنشد أبو الدرداء يوما[١] :

يريد المرءُ أن يُؤْتَى مُناه ويَأْبَى اللهُ إلا ما أرادا
يقولُ المرءُ فائدتى ومالى وتَقْوَى الله أفضلُ ما استفادا

وفى سنن ابن ماجه[٢] ، عن أبى أُمامة رضى الله عنه ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « ما استفاد المرءُ بعد تَقْوَى الله خيراً [له][٣] من زوجة صالحة، إنْ نظر إليها سَرَّتْه، وإنْ أمرها أطاعته ، وإنْ أقسم عليها أبَرَّتْه، وإنْ غاب عنها نصحته فى نَفْسِها وماله ».

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾

قال أبو جعفر الرازى ، عن العلاء بن المسيّب بن رافع ، عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله ؛ قال : الإيمانُ : التصديق . وقال على بن أبى طلحة وغيره ، عن ابن عباس رضى الله عنهما : يؤمنون : يصدقون . وقال معمر ، عن الزهرى : الايمان : العمل .

---

(١) وتفسير القرطبى : ١ – ١٦٢ ، والدر المنثور : ١ – ٢٥
(٢) سنن ابن ماجه : ٥٩٦ ، وتفسير القرطبى : ١ – ١٦٢
(٣) من ا ، وسنن ابن ماجه .

وقال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس : يؤمنون : يخشون .

قال ابن جرير[(١)] [وغيره][(٢)] : والأَوْلى أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولًا واعتقاداً وعملًا ؛ [قال :][(٣)] وقد تدخل الخشية لله فى معنى الإيمان الذى هو تصديق القول بالعمل .

والإيمانُ كلمة جامعةٌ للإيمان بالله وكتبه ورسله ، وتصديق الإقرارِ بالفعل .

قلت : أما الإيمانُ فى اللغة فيطلق على التصديق المَحْض ، وقد يستعمل فى القرآن والمراد به ذلك ؛ كما قال تعالى[(٤)] : (يؤمِنُ بالله ويُؤْمِنُ للمؤمنين) . وكما قال إخوة يوسف لأبيهم[(٥)] : (وما أنتَ بمؤمِنٍ لنا ولو كُنَّا صادقين) . وكذلك إذا استعمل مقرونا مع الأعمال ، كقوله تعالى[(٦)] : (إلَّا الذين آمَنُوا وعملوا الصالحات) . فأما إذا استعمل مطلقاً فالإيمانُ الشرعى المطلوب لايكون إلا اعتقاداً وقولًا وعملًا .

هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة ؛ بل قد حكاه الشافعى ، وأحمد بن حنبل ، وأبو عبيدة[(٧)] ، وغير واحد إجماعا : أن الإيمانَ قولٌ وعمل يزيد وينقص .

وقد ورد فيه آثار كثيرة وأحاديث أفردنا الكلام فيها فى أول شرح البخارى؛ ولله الحمد والمِنّة .

ومنهم مَنْ فسره بالخشية ؛ كقوله تعالى[(٨)] : (إنَّ الذين يَخْشَوْنَ ربَّهم بالغيب) . وقوله[(٩)] : (مَنْ خَشِيَ الرحمنَ بالغيب وجاء بقَلْبٍ مُنِيب) .

والخشيةُ : خلاصة الإيمان والعلم؛ كما قال تعالى[(١٠)] : (إنما يَخْشَى اللهَ من عباده العلماء) .

---

(١) تفسير الطبرى : ١ ــ ٧٨ (٢) من ا ، وسنن ابن ماجه .
(٣) من ا ، ز . (٤) سورة التوبة ، آية ٦١ (٥) سورة يوسف ، آية ١٧
(٦) سورة ص ، آية ٢٤ (٧) فى ز : وأبو عبيد . (٨) سورة الملك ، آية ١٢
(٩) سورة ق ، آية ٣٣ (١٠) سورة فاطر ، آية ٢٨

[(١) وقال بعضهم : يؤمنون بالغيب كما يؤمنون بالشهادة ، وليسوا كما قال تعالى عن المنافقين(٢) : (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنّا ، وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا إنَّا معكم إنما نحنُ مستهزئون) . وقال(٣) : (إذا جاءكَ المنافقون قالوا نَشْهَدُ إنكَ لرسولُ الله والله يعلم إنك لرَسُولُه والله يشهد إنّ المنافقين لـكاذبون) ؛ فعلى هذا يكون قوله : « بالغيب » حالا ، أى فى حال كونهم غُيّبا عن الناس](١) .

وأما الغيبُ المراد هاهُنا فقد اختلفت عباراتُ السلفِ فيه ؛ وكلُّها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد : قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، فى قوله تعالى : (يؤمنون بالغيب) ــ قال : يؤمنون بالله وملائـكته ، وكُتُبه ورسُله واليوم الآخر ، وجنّته وناره ، ولقائه ؛ ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث ، فهذا غَيْبٌ كله .

وكذا قال قتادة بن دِعَامة .

وقال السُّدِّى ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ؛ وعن مرة الهمدانى ، عن ابن مسعود ؛ وعن ناس من أصحاب النبى ﷺ : أما الغيبُ فما غاب عن العباد من أَمْرِ الجنة وأمْرِ النار ، وما ذكر فى القرآن .

وقال محمد بن إسحاق ، عن محمد بن أبى محمد ، عن عِكْرِمة ، أو عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس : بالغيب ــ قال : بما جاء منه ــ يعنى مِنَ الله تعالى .

وقال سفيان الثورى ، [٣٢] عن عاصم ، عن زِرّ ؛ قال : الغيب القرآن .

وقال عطاء بنُ أبى رباح : مَنْ آمن بالله فقد آمنَ بالغيب .

وقال إسماعيل بن أبى خالد : يؤمنون بالغيب ــ قال : بغيب الإسلام .

(١) ما بين القوسين ليس فى ز .
(٢) سورة البقرة ، آية ١٤
(٣) سورة « المنافقون » ، آية ١

وقال زيد بن أسلم : الذين يؤمنون بالغيب ـ قال : بالقدر ؛ فكلُّ هذه متقاربة في معنى واحد ؛ لأن جميعَ هذه المذكورات من الغيب الذي يجبُ الإيمانُ به .

وقال سعيد بن منصور : حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش ، عن عمارة بن عُمير ، عن عبد الرحمن بن يزيد ؛ قال : كنا عند عبد الله بن مسعود جلوسا ، فذكرْنا أصحابَ النبي ﷺ وما سبقونا به ؛ فقال عبد الله : إنَّ أمر محمد ﷺ كان بيِّنًا لمن رآه ؛ والذي لا إله غيره ما آمنَ أحدٌ قط إيمانا أفضل من إيمان بغَيْبٍ ؛ ثم قرأ : (الم . ذلكَ الكتابُ لاريْبَ فيه هُدًى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب . . .) إلى قوله : (المفلحون) .

وهكذا رواه ابنُ أبي حاتم ، وابن مَرْدويه، والحاكم في مستدركه ، من طرقٍ، عن الأعمش ، به .

وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

وفي معنى هذا الحديث الذي رواه أحمد[1] : حدثنا أبو المغيرة، حدثنا الأوزاعي، حدثني أسد[2] بن عبد الرحمن ، عن خالد بن دُرَيك ، عن ابن مُحَيْريز ؛ قال : قلتُ لأبي جمعة : حدِّثنا حديثا سمعتَه من رسول الله ﷺ . قال : نعم ، أحدثك حديثا جيداً : تغدينا مع رسول الله ﷺ، ومعنا أبو عُبيدة بن الجراح ؛ فقال: يا رسولَ الله؛ هل أحدٌ خير منا ؟ أسلمنا معكَ وجاهدنا معك ! قال : « نعم ، قوم مِنْ بعدكم يؤمنون بي ولم يَرَوْني » .

طريق أخرى : قال أبو بكر بن مَرْدويه في تفسيره : حدثنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا إسماعيل عن[3]، عبد الله بن مسعود ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنا معاوية

(١) مسند أحمد : ٤ ـ ١٠٦ (٢) في المسند : أسيد بن عبد الرحمن .
(٣) في ز : بن .

ابن صالح، عن صالح بن جُبَير؛ قال: قدم علينا أبو جمعة الأنصارى صاحبُ رسول الله ﷺ ببيت المقدس يصلى[1] فيه ، ومعنا يومئذ رجاء بن حَيْوَة رضى الله عنه ؛ فلما انصرف خرجنا نشيّعه ؛ فلما أراد الانصرافَ قال : إن لكم جائزة وحقا أحدِّثكم بحديث سمعتُه من رسول الله ﷺ. قلنا : هاتِ رحمك الله. قال : كنّا مع رسول الله ﷺ ، ومعنا معاذ بن جبل عاشر عشرة ، فقلنا : يارسول الله ، هل من قوم أعظم منا أجرا ؟ آمنّا بالله واتبعناك . قال : « مايمنعكم من ذلك ورسولُ الله بين أظهركم يأتيكم بالوَحْى من السماء ؛ بل قوم بعدكم يأتيهم كتاب [من][2] بين لوحين ، يؤمنون به ، ويعملون بما فيه ، أولئك أعظم منكم أجرا » ـ مرتين .

ثم رواه من حديث ضَمْرة بن ربيعةَ ، عن مرزوق بن نافع، عن صالح بن جُبَير، عن أبى جمعة ، بنحوه .

وهذا الحديث فيه دلالةٌ على العمل بالوجادة التى اختلف فيها أهلُ الحديث ، كما قرّرْتُه فى أول شرح البخارى؛لأنه مدحهم على ذلك ، وذكر أنهم أعظمُ أجراً من هذه الحيثية لا مطلقا .

وكذا الحديث[3] الآخر الذى رواه الحسن[4] بن عَرَفة العبدى،حدثنا إسماعيل ابن عياش الحمصى ، عن المغيرة بن قيس التميمى ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ؛ قال:قال رسول الله ﷺ:أىُّ الخلْق أعجبُ إليكم إيمانا ؟ قالوا:الملائكة. قال: وما لهم لايؤمنون وهم عِنْدَ ربهم ! قالوا : فالنبيون . قال : وما لهم لايؤمنون والوَحْىُ ينزل عليهم ! قالوا : فنحن . قال : وما لكم لاتؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ قال : فقال رسولُ الله ﷺ : « أَلَا إنَّ أعجبَ الخلْقِ إلىّ إيمانا لَقَوْمٌ يكونون مِنْ بعدكم يجدون صُحفاً فيها كتابٌ يؤمنون بما فيها » .

(١) فى ز : ليصلى . (٢) ليس فى ز . (٣) والدر المنثور : ١ ـ ٢٦
(٤) فى الدر المنثور : الحسن بن عروة .

قال أبو حاتم الرازى : المغيرة بن قيس البصرى منكر الحديث .

قلت : ولكن قدْ روى أبو يَعْلى فى مسنده، وابن مَرْدويه فى تفسيره، والحاكم فى مستدركه ، من حديث محمد بن حميد - وفيه ضَعْف - عن زيد بن أسلم ، عن أبيه، عن عُمر ، عن النبى ﷺ بمثله أو نحوه .

وقال الحاكم : صحيح الإسناد . ولم يخرجاه .

وقد روى نحوه عن أنس بن مالك - مرفوعا . والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى ، حدثنا عبدالله بن محمد المسندى، حدثنا إسحاق ابن إدريس ، أخبرنى إبراهيم بن جعفر بن محمود بن سلمة الأنصارى ، أخبرنى جعفر ابن محمود ، عن جدته نُوَيلة[1] بنت أسلم ؛ قالت : صليتُ الظهر أو العصر فى مسجد بنى حارثة ، فاستقبلنا مسجد إيلياء ، فصلّينا سجدتين ، ثم جاءنا مَنْ يخبرنا أنّ رسولَ الله ﷺ قد استقبل البيتَ الحرام ، فتحوّل النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء ، فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلون البيتَ الحرام. قال إبراهيم : فحدثنى رجال من بنى حارثة أنَّ رسولَ الله ﷺ حين بلغه ذلك قال : « أولئك قَوْمٌ آمَنُوا بالغيب » .

هذا حديث غريب من هذا الوَجْه .

﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣) ﴾

قال ابن عباس : ويقيمون الصلاةَ ؛ أى يقيمون الصلاةَ بفروضها .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : إقامةُ الصلاة إتمامُ الركوع والسجود ، والتلاوة [٣٣] ، والخشوع ، والإقبال عليها فيها .

(١) والدر المنثور : ١ - ٢٦ ، وفى ب : بديلة . وهى نولة ، أو نويلة بن أسلم . وفى الدر المنثور : تويلة .

وقال قَتادة: إقامةُ الصلاة المحافظةُ على مواقيتها ووضوئها، وركوعها وسجودها.

وقال مقاتل بن حيان: إقامتُها المحافظةُ على مواقيتها، وإسباغُ الطهور فيها، وتمامُ ركوعها وسجودها، وتلاوةُ القرآن فيها، والتشهّدُ والصلاة على النبى ﷺ؛ فهذا إقامتها.

وقال على بن أبى طلحة وغيره، عن ابن عباس: (ومما رزقناهم ينفقون) :قال: زكاة أموالهم.

وقال السدّى، عن أبى مالك؛ وعن أبى صالح، عن ابن عبّاس؛ وعن مُرّة[1]، عن ابن مسعود؛ وعن أُناس من أصحاب رسول الله ﷺ: (ومما رزقناهم ينفقون)؛ قال [: هى][2] نفقةُ الرجل على أهله. وهذا قبل أَنْ تنزل الزكاة.

وقال جُوَيبر، عن الضحاك: كانت النفقات قرباتٍ[3] يتقربون بها إلى الله على قَدْر ميسرتهم وجُهدهم، حتى نزلت فرائضُ الصدقاتِ سبع آيات فى سورة براءة مما يذكر فيهن الصدقات هن الناسخات المثبتات.

وقال قتادة: (ومما رزقناهم ينفقون)؛ فأنفقوا مما أعطاكم الله، هذه الأموال عَوَارٍ وودائع عندك يا ابن آدم يوشك أَنْ تفارقها.

واختار ابن جرير[4] أنّ الآية عامة فى الزكاة والنفقات؛ فإنه قال: وأَوْلى التأويلات وأحقُّها بصفة القوم أن يكونوا لجميع اللازم لهم فى أموالهم مؤدّين ــ زكاة كانت[5] ذلك، أو نفقة مَنْ لزمته نفقته، من أهلٍ أو عِيال وغيرهم ممن يجبُ عليهم نفقتُه بالقرابة والملك، وغير ذلك؛ لأن الله تعالى عَمَّ وصفَهم، ومدحهم بذلك. وكلٌّ من الإنفاق والزكاة ممدوح به محمود عليه.

(١) فى ز: مر! (٢) من ز وحدها. (٣) فى ب: قربانا.
(٤) تفسير الطبرى: ١ ــ ٨١
(٥) فى تفسير الطبرى ١ ــ ٨١، وفى ا: أن يكونوا بجميع . . . زكاة كان ذلك.

قلتُ : كثيراً ما يَقرِنُ اللهُ تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال ؛ فإنّ الصلاة حقُّ الله وعبادته ، وهى مشتملة على توحيده ، والثناء عليه ، وتمجيده والابتهال إليه ، ودعائه والتوكل عليه . والإنفاق : هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدّى إليهم ، وأَوْلى الناس بذلك القرابات والأهلون والمماليك ، ثم الأجانب ؛ فكل من النفقات الواجبة ، والزكاة المفروضة ، داخل فى قوله تعالى : (ومما رزقناهم ينفقون).

ولهذا ثبت فى الصحيحين ، عن ابن عمر رضى الله عنهما ـ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال[1] : « بُنِيَ الإسلامُ على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحَجّ البيت » .

والأحاديثُ فى هذا كثيرة .

وأصل الصلاة فى كلام العرب الدعاء ؛ قال الأعشى [2] :

لها حارسٌ لا يبرح الدهرَ بَيْتَها وإنْ ذبحت صلَّى عليها وزَمْزَما

وقال أيضاً [3] :

وقابلها الريحُ فى دَنّها وصلّى على دَنّها وارْتَسَمْ

أنشدهما ابن جرير مستشهدا على ذلك .

وقال الآخر ، وهو الأعشى أيضا[4] :

تقول بِنْتِى وقد قرّبْتُ مرتحلا يارِبِّ جَنِّبْ أبى الأوصابَ والوَجعا

عليكِ مثل الذى صليتِ فاغْتَمِضى نوما فإنّ لجنب المرء مُضْطجعا

يقول : عليك من الدعاء مثل الذى دَعَيْته لى. وهذا ظاهر .

(١) صحيح مسلم : ٤٥

(٢) وتفسير الطبرى : ١ ــ ٨٠ ، وديوان الأعشى : ٢٩٣، قال الطبرى : يعنى دعالها .

(٣) فى تفسير الطبرى (١ ــ ٨٠) : وقال الآخر أيضا . . . وديوانه : ٣٥، والبيت فى تفسير القرطبى أيضا : ١ ــ ١٦٨. وارتسم الرحل : كبر ودعا .

(٤) وتفسير القرطبى : ١ ــ ١٦٨ ، وديوان الأعشى ١٠١ وفى ا : تقول بنتى . . .

ثم استعملت الصلاةُ فى الشرع فى ذات الركوع والسجود والأفعال المخصوصة فى الأوقات المخصوصة، بشروطها المعروفة، وصفاتها وأنواعها المشهورة.

قال ابن[١] جرير: وأرى أنّ الصلاة [المفروضة][٢] سُميت صلاةً لأنّ المصلّى يتعرّض لاستنجاح طلبته من ثواب الله بعمله مع ما يسأل ربَّه من حاجاته.

[٣][وقيل: هى مشتقة من الصَّلَوَيْن إذا تحركا فى الصلاة عند الركوع والسجود، وهما عِرْقان يمتدّان من الظّهر حتى يكتنفا عَجْبُ الذنَب. ومنه سمى المصلّى، وهو التالى للسابق فى حَلْبَة الخيل. وفيه نظر.

وقيل: هى مشتقة من «الصلى»، وهو الملازمة للشىء، من قوله تعالى[٤]: (لا يَصْلَاها)؛ أى لا يلزمها ويدوم فيها، (إلا الأشْقَى).

وقيل: مشتقة من تَصْلية الخشبة فى النار لتقوّم، كأنّ المصلّى يقوّم عِوَجه بالصلاة[٥]: (إنَّ الصلاةَ تنهى عن الفَحْشَاء والمنكر ولَذِكْرُ اللهِ أكبر). واشتقاقُها من الدعاء أصحُّ وأشْهَر. والله أعلم][٣].

وأما الزكاة فسيأتى الكلام عليها فى موضعه إن شاء الله تعالى.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)﴾.

قال ابن عباس: «الذين يؤمنون بما أُنزلَ إليك وما أُنزلَ من قبلك»؛ أى يصدِّقون بما جئتَ به من الله، وما جاء به مَنْ قبلك من المرسلين، لا يُفرِّقون بينهم، ولا يَجْحدون ما جاءوهم به مِنْ ربهم.

(١) تفسير الطبرى: ١ – ٨١
(٢) من ز، وتفسير الطبرى.
(٣) مابين القوسين ليس فى ز.
(٤) سورة الليل، آية ١٥
(٥) سورة العنكبوت، آية ٤٥

(وبالآخرة هم يوقنون)؛ أى بالبعث والقيامةِ،والجنةِ والنارِ،والحسابِ والميزانِ؛ وإنما سُميت الآخرة، لأنها بَعْدَ الدنيا.

وقد اختلف المفسرون فى الموصوفين هنا، هل هم الموصوفون بما تقدم من قوله تعالى: (الذين يُؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزَقْنَاهم يُنْفقون)؟ومَنْ هم؟على ثلاثة أقوال حكاها ابنُ جرير[1]:

أحدها ـ أنَّ الموصوفين أوَّلا هم الموصوفون ثانيا، وهم كلُّ مؤمن؛ مؤمنو العرب، ومؤمنو أهلِ الكتاب وغيرهم؛ قاله مجاهد، وأبو العالية، والربيع ابن أنس، وقتادة.

والثانى ـ هما واحد، وهم مؤمنو أهلِ الكتاب.

وعلى هذين تكونُ الواو عاطفة صفات على صفات، كما قال تعالى[2]: (سَبِّح اسْمَ رَبِّكَ الأعلى. الذى خلَقَ فسوَّى. والذى قَدَّر فَهَدَى، والذى أخرج المَرْعَى. فجعله غُثَاءً أَحْوَى)، وكما قال الشاعر[3]:

إلى الملكِ القَرْمِ وابنِ الهُمَامِ وليثِ الكتيبةِ فى المُزْدَحَمْ

فعطف الصفات بعضها على بعض، والموصوفُ واحد.

والثالث ـ أنّ الموصوفين أولا مؤمنو العرب،والموصوفون ثانيا بقوله: (والذين يؤمنون بما أُنزِلَ إليك وما أُنزِل من قبلك وبالآخرة هم يُوقِنون) لمؤمنى[4] أهْلِ الكتاب. نقله السدّى [٣٤] فى تفسيره عن ابن عباس، وابن مسعود، وأناس من الصحابة.

---

(١) تفسير الطبرى: ١ ـ ٨١ (٢) سورة الأعلى، آية ١ ـ ٥

(٣) خزانة الأدب: ١ ـ ٤٠٧، غير منسوب. وشواهد الكشاف: ١ ـ ١٨

(٤) حقها مؤمنو أهل الكتاب.

واختاره ابنُ جرير رحمه الله ، ويَسْتَشهد لما قال بقوله تعالى[١] : (وإنَّ مِنْ أهل الكتاب لَمَنْ يؤمِنُ بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله . . .) الآية. وبقوله تعالى[٢] : (الذين آتيْنَاهم الكتابَ مِنْ قبله هم به يؤمنون . وإذا يُتْلى عليهم قالوا آمنّا به إنه الحقُّ من ربنا إنّا كنّا مِنْ قبله مسلمين . أولئك يُؤْتَوْن أَجْرَهم مرّتين بما صبروا ويَدْرَءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون) ؛ وبما ثبت فى الصحيحين من حديث الشّعبى ، عن أبى بُرْدة ، عن أبى موسى ـ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال[٣] : « ثلاثة يُؤْتَوْن أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وآمنَ بى . ورجل مملوك أدّى حقّ الله وحقّ مواليه . ورجل أدّب جاريتَه فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوّجها » .

وأما ابن جرير[٤] فما استشهد على صحةِ ما قال إلا بمناسبة ، وهى أنَّ الله وصف فى أول هذه السورة المؤمنين والكافرين ، فكما أنه صنف الكافرين إلى صنفين : كافر ، ومنافق ، فكذلك المؤمنون صنّفهم إلى صنفين : عربى ، وكتابى .

قلت : والظاهر قَوْلُ مجاهد فيما رواه الثّوْرى ، عن رجل ، عن مجاهد . ورواه غَيْرُ واحد عن ابنِ أبى نَجِيح ، عن مجاهد ـ أنه قال : أربع آياتٍ من [أول][٥] سورةِ البقرة فى نَعْتِ المؤمنين ، وآيتان فى نَعْتِ الكافرين ، وثلاث[٦] عشرة فى المنافقين ؛ فهذه الآياتُ الأربع عامات فى كلّ مؤمن اتّصف بها من عربىّ وعجمىّ وكتابىّ مِنْ إنْسى وجِنىّ ، وليس تصحُّ واحدةٌ من هذه الصفات بدونِ الأُخرى ؛

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١٩٩
(٢) سورة القصص ، آية ٥٢ ـ ٥٤
(٣) صحيح مسلم : ١٣٤ ، ١٣٥
(٤) تفسير الطبرى : ١ ـ ٨٣
(٥) ليس فى ز
(٦) فى ب : ثلاثة عشر

بل كلٌّ واحدة مستلزمة للأخرى ، وشرط معها ؛ فلا يصح الإيمانُ بالغيب ، وإقام الصلاة والزكاة إلا مع الإيمان بما جاء به رسولُ الله ﷺ ، وما جاء به مَنْ قبله من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، والإيقان بالآخرة ؛ كما أن هذا لا يصح إلا بهذاك[1] .

وقد أمر اللهُ المؤمنين بذلك، كما قال[2]: (يأيها الذين آمَنُوا آمِنُوا بالله ورسوله والكتابِ الذى نَزَّلَ على رسوله والكتابِ الذى أَنْزَلَ من قبل . . .) الآية . وقال تعالى[3] : (ولا تجادِلُوا أهلَ الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنّا بالذى أُنزل إلينا وأُنزل إليكم وإلهُنا وإلهُكم واحد...) الآية. وقال تعالى[4] : (يأيُّها الذين أُوتُوا الكتابَ آمِنُوا بما نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لما معكم) . وقال تعالى[5] : (قل يأهلَ الكتاب لستُم على شىء حتى تُقِيموا التوراةَ والإنجيل وما أُنْزِل إليكم من ربكم) .

وأخبر تعالى عن المؤمنين كلهم بذلك؛ فقال تعالى[6]: (آمنَ الرسولُ بما أُنْزِلَ إليه من ربه والمؤمنون كلٌّ آمنَ بالله وملائكته وكتُبه ورسله لا نُفَرِّقُ بين أحدٍ من رسُله) . وقال تعالى[7]: (والذين آمَنُوا بالله ورسُله ولم يُفَرِّقُوا بين أحَدٍ منهم) ؛ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أمْرِ جميع المؤمنين بالإيمانِ بالله ورسله وكتبه ، لكن لمؤمنى أهل الكتاب خصوصيةٌ ؛ وذلك أنهم يؤمنون بما بأيديهم مفصّلا ؛ فإذا دخلوا فى الإسلام وآمنوا به مفصّلا كان لهم على ذلك الأجر مرّتين . وأما

(١) فى ا : بذاك

(٢) سورة النساء ، آية ١٣٦

(٣) سورة العنكبوت ، آية ٤٦

(٤) سورة النساء ، آية ٤٧

(٥) سورة المائدة ، آية ٦٨

(٦) سورة البقرة ، آية ٢٨٥

(٧) سورة النساء ، آية ١٥٢

غَيْرُهم فإنما يحصلُ له الإيمانُ بما تقدم مجملا ، كما جاء فى الصحيح[١] : « إذا حدَّثكم أهلُ الكتاب فلا تكذّبوهم ولا تصدقوهم ، ولكن قولوا : آمنا بالذى أُنزل إلينا وأُنزل إليكم » .

ولكن قد يكون إيمانُ كثير من العرب بالإسلام الذى بُعث به محمد ﷺ أتمّ وأكمل ، وأعمّ وأشمل ، من إيمان مَنْ دخل منهم فى الإسلام ؛ فهم وإن حصل لهم أَجْرَان من تلك الحيثية فغَيْرُهم يحصلُ له من التصديق ما ينيف ثوابُه على الأَجْرَين اللذين حصلا لهم . والله أعلم .

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٥) ﴾

يقول الله تعالى : (أولئك)؛ أى المتّصفون بما تقدم من الإيمان بالغيب ، وإقام الصلاة ، والإنفاق من الذى رزقهم الله ، والإيمان بما أنزل إلى الرسول ومَنْ قبله من الرسل ، والإيقان بالدار الآخرة؛وهو مستلزم الاستعداد لها من الأعمال الصالحة ، وترْك المحرمات . (على هدى) : أى على نُور وبيان وبصيرة من الله تعالى . (وأولئكَ هم المفلحون) ؛ أى فى الدنيا والآخرة .

وقال محمد بن إسحاق ، عن محمد بن أبى محمد ، عن عِكْرِمة ، أو سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس : (أولئك على هُدًى من ربهم) ؛ أى على نور من ربهم واستقامةٍ على ما جاءهم به ؛ (وأولئك هم المفلحون) ؛ أى الذين أدركوا ما طلبوا ، ونَجَوْا من شَرّ ما مِنْه هربوا .

وقال ابن جرير[٢] : وأما معنى قوله تعالى : (أولئك على هُدًى من ربِّهم) .

---

(١) مسند أحمد : ٤ – ١٣٦   (٢) تفسير الطبرى : ١ – ٢٨٣

فإن معنى ذلك أنهم[١] على نورٍ من ربهم ، وبرهان واستقامة ، وسداد بتسديده[٢] إياهم ، وتوفيقه لهم .

وتأويل قوله تعالى : (وأولئكَ هم المفلحون) : أى[٣] المنْجِحون ، المدركون ماطلبوا عند الله بأعمالهم ، وإيمانهم بالله وكتُبه ورسله من الفَوْز بالثواب ، والخلود فى الجنات ، والنجاة مما أعدَّ الله لأعدائه من العقاب .

وقد حكى ابن جرير[٣] قولا عن بعضهم أنه أعاد اسْمَ الإشارة فى قوله تعالى : (أولئك على هُدًى من ربهم وأولئك هم المفلحون) إلى مؤمنى أهل الكتاب الموصوفين بقوله تعالى : (والذين يؤمنون بما أنزل إليك . . .) الآية ، على ما تقدم من الخلاف. وعلى هذا فيجوز أن يكونَ قوله تعالى: (والذين يؤمنون بما أنزل إليك) منقطعا مما قبله ، وأن يكون مرفوعا على الابتداء وخبره [٣٥] (أولئكَ هم المفلحون)؛ واختار أنه عائد إلى جميع من تقدَّم ذكره مِنْ مؤمنى العرب وأهلِ الكتاب ، لما رَوَاه السُّدِّى[٤] عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة الهَمْدانى ، عن ابن مسعود ؛ وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ . أما الذين يؤمنون بالغيب فهم المؤمنون من العرب ، والذين يؤمنون بما أنزل إليكَ وما أنزل من قبلك هم المؤمنون من أَهْلِ الكتاب ، ثم جمع الفريقين: فقال (أولئك على هُدًى من ربهم وأولئك هم المفلحون). وقد تقدم من الترجيح أن ذلك صفة المؤمنين عامة والإشارة عائدة عليهم . والله أعلم .

وقد نقل [هذا][٥] عن مجاهد ، وأبى العالية ، والربيع بن أنس ، وقتادة؛ رحمهم الله .

(١) فى ب : فإنهم . . . (٢) فى تفسير الطبرى : بتسديد الله .
(٣) تفسير الطبرى : ١ ــ ٨٣ (٤) تفسير الطبرى : ١ ــ ٨٢ (٥) من ز .

وقال ابن أبي حاتم ، حدثنا أبي ، حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح المصرى ، حدثنا أبي ، حدثنا ابن لَهِيعة ، حدثني عبيد الله بن المغيرة ، عن أبي الهيثم – واسمه سليمان ابن عبد الله[1] ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ ؛ وقيل له : يا رسول الله ، إنا نقرأ من القرآن فنَرْجُو ، ونقرأ من القرآن فنكاد أنْ نيأس ، أو كما قال . قال : « أفلا أُخبركم عن أهل الجنة وأهل النار ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ؛ قال:(الٓمٓ . ذلك الكتابُ لا رَيْبَ فيــه هدى للمتقين . . .) إلى قوله تعالى : (المفلحون) . هؤلاء أهلُ الجنة . قالوا : إنا نرجو أن نكونَ هؤلاء ، ثم قال[2] : إنَّ الذين كفروا سَوَاء عليهم . . .) إلى قوله[2] : (عظيم) . هؤلاء أهلُ النار . قالوا : لسنا هم يا رسول الله . قال : أَجَلْ » .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) ﴾

يقول تعالى : (إن الذين كفروا) ؛ أى غَطُّوا[3] الحقَّ وستروه ، وقد كتب الله تعالى عليهم ذلك ، سواء عليهم إنذارك وعَدمه ؛ فإنهم لا يؤمنون بما جئْتَهم به؛ كما قال تعالى[4] : « إنَّ الذين حقَّتْ عليهم كلمةُ ربِّكَ لا يؤمنون . ولو جاءتهم كلُّ آيةٍ حتى يروا العذابَ الأليم). وقال تعالى–فى حقّ المعاندين من أهل الكتاب[5] : (ولئن أتيتَ الذين أُوتوا الكتابَ بكل آيةٍ ما تَبِعُوا قبلتك . . .) الآية ؛ أى إنَّ مَنْ كتَبَ اللهُ عليه الشقاوةَ فلا مُسْعِدَ له ، ومن أضلّه فلا هادِيَ له ؛ فلا تذهَبْ

(١) هذا فى ا ، ب : عبد الله . وفى ز : عبد. وفى التقريب : أبو الهيثم العتوارى ، هو سليمان بن عمرو بن عبيد ، أو عبد .

(٢) سورة البقرة ، آية ٦ ، ٧

(٣) فى ز : الكفر .

(٤) سورة يونس ، آية ٩٦ ، ٩٧

(٥) سورة البقرة ، ١٤٥

نفسُك عليهم حسرات ، وبلِّغهم الرسالة ، فمن استجاب لكَ فله الحظُّ الأوفر ، ومَنْ تولّى فلا تحزَنْ عليهم ، ولا يهمنّك ذلك ؛ (فإنما[1] عليكَ البلاغُ وعلينا الحساب). (إنما[2] أنْتَ نَذِير واللهُ على كل شىء وَكيل) .

وقال علىّ ابن أبى طلحة ، عن ابن عباس – فى قوله تعالى : (إنَّ الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) : قال[3] : كان رسولُ الله ﷺ يحرص أنْ يؤمنَ جميعُ الناس ، ويتابعوه على الهدى ؛ فأخبره اللهُ تعالى أنه لا يؤمن إلا مَنْ سبق له من الله السعادة فى الذّكر الأول ، ولا يَضِلُّ إلا مَنْ سبق له من الله الشقاوة فى الذكر الأول .

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد ، عن عِكْرمة – أو سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس: (إنَّ الذين كفرُوا) ؛ أى بما أُنزل إليكَ ، وإن قالوا : إنا قد آمنَّا بما جاءنا قبلك ، (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) ، أى إنهم قد كفروا بما عندهم مِنْ ذِكْرك ، وجحدوا ما أُخِذَ عليهم من الميثاق ، وقد كفروا بما جاءك ، وبما عندهم مما جاءهم به غَيْرُك ، فكيف يسمعون منكَ إنذارا وتحذيرا ، وقد كفروا بما عندهم من علمك ؟

وقال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، قال : نزلَتْ هاتان الآيتان فى قادةِ الأحزاب ، وهم الذين قال اللهُ فيهم[4] : (ألم ترَ إلى الذين بدَّلُوا نعمةَ اللهِ كفْرًا وأحلُّوا قَوْمَهم دارَ البَوَار . جهنّم يَصْلَوْنَها) .

والمعنى الذى ذكرناه أولا ، وهو المروىّ عن ابن عباس فى رواية على ابن أبى طلحة أظهر ، ويفسر بقية الآيات التى فى معناها . والله أعلم .

---

(١) سورة الرعد ، آية ٤٠ (٢) سورة هود ، آية ١٢ (٣) والدر المنثور : ١ – ٢٨

(٤) سورة إبراهيم ، آية ٢٨ . دار البوار : دار الهلاك .

وقد ذكر ابن أبى حاتم هاهنا حديثا ؛ فقال : حدثنا أبى ، حدثنا يحيى بن عثمان ابن صالح المصرى ، حدثنا أبى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنى عبد الله بن المغيرة ، عن أبى الهيثم ، عن عبدالله بن عمرو؛ قال[١] : قيل : يا رسول الله ؛ إنا نقرأ من القرآن فنرجو ؛ ونقرأ فنكاد أنْ نيأس ؛ فقال : ألاأخبركم » ؟ ثم قال : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) : هؤلاء أهلُ النار » . قالوا : لسنا منهم يا رسولَ الله . قال : « أجل » .

[٢] [وقوله تعالى : (لا يؤمنون) محلُّه من الإعراب أنه جملة مؤكدة للتى قبلها (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تُنْذِرهم) ؛ أى هم كفار فى كلا الحالين ؛ فلهذا أكّدذلك بقوله تعالى : (لا يؤمنون) : ويحتمل أن يكون «لا يؤمنون» خبرا ؛ لأن تقديره إنَّ الذين كفروا لا يؤمنون ، ويكون قوله تعالى : (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم) جملة معترضة . والله أعلم][٢] .

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) ﴾

قال السُّدِّى : ختم الله ؛ أى طبع الله . وقال قَتادة ـ فى هذه الآية : استحوذَ عليهم الشيطان ؛ إذ أطاعوه ، فختم اللهُ على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ؛ فهم لا يبصرون هُدًى ، ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون .

وقال ابن جُريج : قال مجاهد : ختم الله على قلوبهم ؛ قال [الطبع][٣] ثبتت الذنوبُ على القلب ، فحفت[٤] به من كل نواحيه حتى تلتقى عليه ، فالتقاؤُها عليه الطبع . والطبع : الختم .

---

(١) والدر المنثور : ١ ـ ٢٩ (٢) ما بين القوسين ليس فى ا ، ز .
(٣) ليس فى ز . (٤) فى تفسير الطبرى (١ ـ ٨٧) : تحف به .

قال ابن جريج[١] : الختم على القلب والسمع .

قال ابن جريج[١] : وحدثنى عبد الله بن كثير ـ أنه سمع مجاهدا يقول : الرَّان أيسر من الطبع ، والطبع أيسر من الإقفال ، والإقفال أشدُّ من ذلك كله .

وقال الأعمش[٢] : أرانا مجاهد بيده ؛ فقال: كانوا يرون أنَّ القلب فى مثل هذه ـ يعنى الكف ، فإذا أذنَب العبد ذنباً ضمّ منه ، وقال بإصبعه الخنصر هكذا ، فإذا أذنب ضمّ ، وقال بإصبع أخرى ، فإذا أذنب ضمّ ، وقال بإصبع أخرى هكذا ، حتى ضمّ أصابعه كلها ، قال : ثم يطبع عليه بطابع [٣٦] .

وقال[٣] مجاهد : كانوا يرون أنَّ ذلك الرّين . ورواه ابن جرير[٣] عن أبى كُريب ، عن وَكيع ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، بنحوه .

قال ابن جرير[٣] : وقال بعضهم : إنما معنى قوله تعالى:(خَتَمَ اللهُ على قلوبهم): إخبار من الله عن تكبّرهم ، وإعراضهم عن الاستماع لِمَا دعُوا إليه من الحق ؛ كما يقال : إن فلانا أصمّ[٤] عن هذا الكلام ، إذا امتنع من سماعه ، ورَفع نفسه عن تفهّمه تكبراً ؛ قال : وهذا لا يصح ؛ لأن الله تعالى قد أخبر أنه هو الذى ختم على قلوبهم وأسماعهم .

[٥][قلت : وقد أطنب الزمخشرى[٦] فى تقرير ما رده ابن جرير هاهنا ، وتأوّل الآيةَ من خمسة أوجه ؛ وكلُّها ضعيفة جدًّا ، وما جرّأه على ذلك إلا اعتزالُه ؛ لأن

(١) وتفسير الطبرى : ١ ــ ٨٧ ، وفيه : الختم : الختم على القلب .
(٢) وتفسير الطبرى : ١ ــ ٨٧ .
(٣) وتفسير الطبرى : ١ ــ ٨٧ . الرين : رانت نفسه : خبثت : والرين : الصدأ . وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون : أى إن كسبهم غلب على قلوبهم فصدئت ، وطبع عليها .
(٤) فى تفسير الطبرى : لأصم . (٥) مابين القوسين ليس فى ز .
(٦) فى الكشاف : ١ ــ ٢١ .

الختمَ على قلوبهم ومَنْعها عن وصول الحق إليها قبيحٌ عنده، يتعالى اللهُ عنه في اعتقاده؛ ولو فهم قوله تعالى(١) : (فلما زاغُوا أَزَاغَ اللهُ قلوبَهم) . وقوله(٢) : (ونُقَلِّبُ أفئدَتَهم وأبصارَهم كما لم يُؤْمِنُوا به أوّلَ مرةٍ ونذَرُهم في طُغْيانهم يَعْمَهُون) ؛ وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم ، وحال بينهم وبين الهدى جزاءً وِفَاقا على تماديهم في الباطل ، وتركهم الحق ؛ وهذا عَدْلٌ منه تعالى حسن ، وليس بقبيح ، فلو أحاط علما بهذا لما قال ما قال . والله أعلم .

قال القرطبي(٣) : وأجمعت الأمةُ على أنّ اللهَ عز وجل قد وصفَ نفسه بالختْم والطَّبْع على قلوب الكافرين مجازاةً لكفرهم ، كما قال(٤) : (بل طبَعَ اللهُ عليها بكفرهم) ، وذكر حديث تقليب القلوب(٥) : « ويامقلِّبَ القلوب ، ثَبِّت قلوبَنا على دينك » . وذكر حديث حُذَيفة الذى في الصحيح عن رسول الله ﷺ ؛ قال(٦) : « تعرَضُ الفِتنُ على القلوب كالحصير عُودًا عودا ، فأَيُّ قلب أُشْرِبَها نُكت فيه نكتةٌ سوداء ، وأيّ قلب أنكرها نُكت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلْبين: على أبيض مثل الصَّفا، فلا تضرُّه فتنةٌ مادامت السمواتُ والأرض، والآخر أسود(٧) مُرْبَادٌّ كالكوز مُجَخِّيا لا يعرف معروفا ، ولا يُنْكر مُنْكَرا . . . » الحديث] .

قال ابنُ جرير(٨): والحقُّ عندى في ذلك ماصحّ بنظيره الخبرُ عن رسول الله ﷺ؛ وهو ما حدثنا به محمد بن بشار(٩) ، حدثنا صفوان بن عيسى ، حدثنا ابن عَجْلان ، عن القعقاع، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ قال: قال رسول الله ﷺ :

(١) سورة الصف، آية ٥ (٢) سورة الأنعام، آية ١١٠ (٣) تفسير القرطبي : ١-١٨٧
(٤) سورة النساء، آية ١٥٥ (٥) تفسير القرطبي : ١ - ١٨٨
(٦) ف : ١ - ١٨٩ ، وصحيح مسلم : ١٢٨
(٧) مرباد : اختلاط سواده بكدرة . المجخي : المائل عن الاستقامة والاعتدال . شبه القلب الذى لا يعي خيرا بالكوز المائل الذى لا يثبت فيه شيء (النهاية) .
(٨) تفسير الطبرى : ١ - ٨٧ (٩) في الطبرى : بن يسار .

« إنّ المؤمنَ إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء فى قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر[١] صقل قلبه ، وإن زاد زادت حتى تَعْلُوَ قلبه ، فذلك الران الذى قال الله تعالى[٢] : (كَلّا بل رَانَ على قلوبهم ما كان يكسبون) .

وهذا الحديثُ من هـذا الوجه قد رواه الترمذى[٣] ، والنسائى ، عن قتيبة ، والليث بن سعد ؛ وابنَ ماجه[٣] عن هشام بن عمار ، عن حاتم بن إسماعيل ، والوليد ابن مسلم ، ثلاثتهم عن محمد بن عَجْلان ، به . وقال الترمذى : حسن صحيح .

ثم قال ابن جرير[٤] : فأخبر رسولُ الله ﷺ أنّ الذنوبَ إذا تتابعت على القلوب أغلقتها ، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الخَتْمُ من قِبَلِ الله تعالى والطَّبْع ، فلا يكون للإيمان إليها مسلك ، ولا للكفر عنها مَخلص ؛ فذلك هو الخَتْم والطبع الذى ذكر فى قوله تعالى : (ختم اللهُ على قلوبهم وعلى سَمْعِهم) نظير الخَتْم والطبع على ما تدركه الأبصارُ من الأوعية والظروف التى لا يوصل إلى ما فيها إلا بفَضّ ذلك عنها ثم حلّها ؛ فكذلك لا يَصِلُ الإيمانُ إلى قلوب مَنْ وصف الله أنه ختَمَ على قلوبهم وعلى سمعهم إلا بعد فضّ خاتمه وحلّ رباطه [عنها][٥] .

واعلم أنّ الوقفَ التامّ على قوله تعالى : (ختم اللهُ على قلوبهم وعلى سَمْعِهم) . وقوله : (وعلى أبصارهم غِشَاوة) جملة تامة ؛ فإنّ الطبع يكون على القلب وعلى السمع ، والغِشَاوة ـ وهى الغِطَاء ـ تكون على البصر ، كما قال السدّى فى تفسيره ، عن أبى مالك ؛ وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ؛ وعن مرّة الهمدانى ، عن ابن مسعود ؛ وعن أُناس من أصحاب رسول الله ﷺ فى قوله : « ختم اللهُ على قلوبهم وعلى سَمْعِهم » ؛

---

(١) فى ب : واستعتب . (٢) سورة المطففين ، آية ١٤

(٣) مسند أحمد : ٢ ـ ٢٩٧ ، وسنن الترمذى : ٥ ـ ٤٣٤ ، سنن ابن ماجه : ١٤١٨

(٤) تفسير الطبرى : ١ ـ ٨٧ (٥) ليس فى ز .

يقول : فلا يعقلون ولا يسمعون . ويقول : « وجعل على أبصارهم غِشَاوة » يقول : على أعينهم فلا يبصرون .

وقال ابن جرير[١] : حدثني محمد بن سعد ، حدثنا أبي ، حدثني عمي الحسين ابن الحسن ، عن أبيه ، عن جده ، عن ابن عباس : ختم اللهُ على قلوبهم وعلى سمعهم ، والغِشَاوة على أبصارهم .

قال[٢] : وحدثنا القاسم ، حدثنا الحسين - يعني ابن داود ، وهو سُنَيد ، حدثني حجاج ، وهو ابن محمد الأعور ، حدثني ابن جُريج ؛ قال : الختم على القلب والسمع ، والغشاوة على البصر ؛ قال الله تعالى[٣] : (فإنْ يشإ الله يختم على قَلْبك) . وقال[٤] : (وختم على سَمْعه وقلبه وجعل على بصره غِشاوة) .

قال ابن جرير[٢] : ومَنْ نصب غشاوة من قوله تعالى : « وعلى أبصارهم غشاوة » يحتمل أنه نصبها بإضمار فعل ؛ تقديره : وجعل على أبصارهم غِشاوة . ويحتمل أن يكون نصبها على الإتباع على محلّ « وعلى سمعهم » ، كقوله تعالى[٥] : (وحُورٌ عِين) . وقول الشاعر[٦] :

علفتها تِبْنًا وماءً بارداً حتى شَتَتْ هَمّالة عَيْنَاها

وقال الآخر[٧] :

ورأيت زوجك في الوَغَى متقلّداً سيفا ورُمحا

---

(١) تفسير الطبري : ١-٨٨ (٢) تفسير الطبري : ١-٨٩ (٣) سورة الشورى ، آية ٢٤

(٤) سورة الجاثية ، آية ٢٣ (٥) سورة الواقعة ، آية ٢٢

(٦) وتفسير الطبري : ١-٨٨ ، وتفسير القرطبي : ١-١٩١ ، واللسان علف وفي ا : فعلفتها .

(٧) وتفسير الطبري ١ - ٨٨ ، وتفسير القرطبي : ١ - ١٩١ ، ونسبه إلى عبد الله ابن الزبعرى . وفيه : ياليت زوجك قد غدا . . . .

وكذلك رواه في اللسان - قلد ، ولكنه لم ينسبه . وهو في الكامل ١ - ٣٤٤ ، منسوبا إلى عبد الله بن الزبعرى أيضا .

تقديره : وسقيتها ماء باردا . ومُعْتقِلا رمحا .

لمّا تقدم وصف المؤمنين فى صدر السورة بأربع آيات، ثم عرّف حال الكافرين بهاتين الآيتين ــ شرع تعالى فى بيان حال المنافقين الذين يُظْهِرون الإيمانَ ويُبْطِنُون الكفر . ولما كان أمرهم يشتبه على كثيرمن الناس أطْنَبَ فى ذِكرهم بصفات متعددة؛ كلٌّ منها نفاق ، كما أنزل سورة براءة فيهم ، وسورة المنافقين فيهم ، وذَكرهم فى سورة النور وغيرها من السور تعريفا لأحوالهم لتجتنبَ ويجتنب مَنْ تلبَّس بها أيضا ؛ فقال تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨). يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) ﴾.

النفاق : هو إظهارُ الخير ، وإسرارُ الشر ، وهو أنواع: اعتقاديّ ؛ وهو الذى يخلِّد صاحبَه فى النار . وعملى ؛ وهو من أكبر الذنوب ، كما سيأتى تفصيله فى موضعه إن شاء الله تعالى .

وهذا كما قال ابن جُريج : المنافق يخالفُ قولَه فعلُه ، وسرَّه علانيتُه ، ومدخلَه مخرجُه ، ومشهدَه مَغيبُه .

وإنما نزلت صفاتُ المنافقين فى السور المدنية ؛ لأن مكةَ لم يكن فيها نفاق ؛ بل كان خلافه ؛ من الناس مَن كان يظهر الكفرَ مستكرها وهو فى الباطن مؤمن ، فلما هاجر رسولُ الله ﷺ إلى المدينة ، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج ، وكانوا فى جاهليتهم يعبدون الأصنامَ على طريقة مُشْركى العرب ، وبها اليهودُ من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل : بنو قَيْنُقاع حلفاء الخزرج؛ وبنو النَّضير وبنو قُريظة حلفاء [٣٧] الأوس . فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ،

وأسلم مَنْ أسلم من الأنصار مِنْ قبيلتى الأوس والخزرج ، وقَلَّ من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سَلَام رضى الله عنه، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضا؛ لأنه لم يكن للمسلمين بَعْدُ شَوْكة تُخَاف ؛ بل قد كان عليه الصلاة والسلام وادعَ اليهود وقبائلَ كثيرة من أحياء العرب حوالى المدينة ؛ فلما كانت وقْعَة بدر العظمى ، وأظهر اللهُ كلمتَه ، وأعزَّ الإسلامَ وأهله ، قال عبدُ الله بن أبىّ بن سَلُول - وكان رأسا فى المدينة، وهو من الخزرج، وكان سيد الطائفتين فى الجاهلية ، وكانوا قد عزموا أَنْ يُمَلِّكوه عليهم، فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه : فبقى فى نفسه من الإسلام وأهله . فلما كانت وقعة بَدْر قال : هذا أمر قد توجَّه ؛ فأظهر الدخولَ فى الإسلام ، ودخل معه طوائفُ ممن هو على طريقته ونِحْلته ، وآخرون من أهل الكتاب ؛ فمِنْ ثَمَّ وُجد النفاق فى أهل المدينة ومَنْ حولها من الأعراب .

فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد[1] ، لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرها، بل يهاجر فيترك[2] ماله وولده وأرضه رغبةً فيما عند الله والدار الآخرة .

قال محمد بن إسحاق : حدثنى محمد بن أبى محمد ، عن عِكْرمة أو سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس : (ومن الناس مَنْ يقول آمنّا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين)؛ يعنى المنافقين من الأوس والخزرج، ومَنْ كان على أمرهم .

وكذا فسرها بالمنافقين [من الأوس والخزرج][3] أبو العالية ، والحسن ، وقتادة ، والسدّى ؛ ولهذا نبّه الله سبحانه على صفات المنافقين لئلا يغترّ بظاهر أمْرِهم المؤمنون ، فيقع بذلك فسادٌ عريض من عدم الاحتراز منهم ، ومِن اعتقاد إيمانهم ، وهم كفار فى نفس الأمر ؛ وهذا من المحذورات الكبار أَنْ يُظَنَّ بأهل الفجور خَيْرٌ؛ فقال تعالى : (ومن الناس مَنْ يقولُ آمنا بالله وباليوم الآخِر وماهم بمؤمنين) ؛ أى

(١) فى ب : فلم يكن فيهم أحد هاجر . (٢) فى ز : ويترك . (٣) ليس فى ز .

يقولون ذلك قولا ليس وراءه شيء آخر ، كما قال تعالى[١]: (إذا جاءكَ المنافقون قالوا نشهد إنكَ لرسولُ الله والله يعلم إنك لرَسُولُه)؛ أى إنما يقولون ذلك إذا جاءوك فقط لا فى نفس الأمر؛ ولهذا يؤكدون فى الشهادة بإنّ ولام التأكيد فى خبرها ، كما أكدوا أمرهم[٢]؛ قالوا : (آمنا بالله وباليوم الآخر) ، وليس الأمر كذلك ، كما كذبهم الله فى شهادتهم . وفى خبرهم هذا بالنسبة إلى اعتقادهم بقوله تعالى[١] : (والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون) . وبقوله : (وما هم بمؤمنين) .

وقوله تعالى : (يُخادِعُون الله والذينَ آمنوا) ؛ أى بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفْرَ، يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك ، وأن ذلك نافعهم عنده ، وأنه يَرُوج عليه ، كما قد يروج على بعض المؤمنين، كما قال تعالى[٣]: (يوم يَبْعَثُهم اللهُ جميعاً فيحلفونَ له كما يَحْلفونَ لكم ويَحْسَبُون أنّهم على شيء ألَا إنّهم هم الكاذبون) .

ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله : (وما يُخادِعون[٤] إلا أنْفُسَهُم وما يشعرون) .

يقول : وما يغرّون بصنيعهم هذا ، ولا يخدعون إلا أنفسهم ، وما يشعرون بذلك من أنفسهم ؛ كما قال تعالى[٥]: (إنّ المنافقين يخادِعُون اللهَ وهو خادِعُهم) . ومن القراء من قرأ (وما يخدعون[٦] إلا أنفسهم) ؛ وكلتا القراءتين ترجع إلى معنى واحد .

---

(١) سورة « المنافقون » ، آية ١ (٢) فى ز : كما أكدوا قولهم .
(٣) سورة المجادلة ، آية ١٨ .
(٤) فى ز : يخدعون . والمثبت قراءة نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو (تفسير القرطبى : ١ - ١٩٦) . (٥) سورة النساء ، آية ١٤٢
(٦) فى ز : وما يخادعون . وانظر الهامش السابق .

قال ابن جرير[١] : فإن قال قائل : كيف يكون المنافقُ لله وللمؤمنين مخادعا ، وهو لا يظهرُ بلسانه خلافَ ماهو له معتقد إلا تقيّة ؟ قيل : لاتمنع العرب أن تسمِّى مَنْ أعطى بلسانه غير الذى فى ضميره تقية لينجُوَ مما هو له خائف مخادعا ، فكذلك المنافق سُمِّى مخادعا لله وللمؤمنين بإظهاره ما أظهره بلسانه تقية بما يخلص به من القَتْل والسبى[٢] والعذاب العاجل ، وهو لغير ما أظهره مستبطن ؛ وذلك من فعله وإنْ كان خِدَاعاً للمؤمنين فى عاجل الدنيا ، فهو لنفسه بذلك من فعله خادع ؛ لأنه يظهر لها بفعله ذلك بها أنه يعطيها أُمنيتها ، ويسقيها كَأْسَ سرورها ، وهو مُورِدها[٣] حياضَ عطبها ، ومُجرِّعها به كأسَ عذابها ، ومُزِيرها[٤] من غضب الله وأليم عقابه مالا قِبل لها به ؛ فذلك خديعتُه نفسه ظنًّا منه ، مع إساءته إليها فى أمر معادها ، أنه إليها محسن ؛ كما قال تعالى : (وما يَخْدَعُون إلا أنفسهم وما يشعرون) ؛ إعلاما منه عباده المؤمنين أنَّ المنافقين بإساءتهم إلى أنفسهم ، فى إسخاطهم عليها ربَّهم، بكفرهم وشكِّهم وتكذيبهم غير شاعرين ولا دارين ، ولكنهم على عمى[٥] من أمرهم مقيمون .

وقال ابن أبى[٦] حاتم: أنبأنا على بن المبارك فيما كتب إلىّ، حدثنا زيد بن المبارك، حدثنا محمد بن ثور ، عن ابن جُريج ــ فى قوله تعالى : (يخادِعُون الله) ــ قال : يظهرون لا إله إلا الله ، يريدون أنْ يُحْرِزُوا بذلك دماءهم وأموالَهم ، وفى أنفسهم غَيْرُ ذلك .

---

(١) تفسير الطبرى : ١ ــ ٩١
(٢) فى ز ، والطبرى : والسباء .
(٣) فى تفسير الطبرى : وهو موردها به .
(٤) فى تفسير الطبرى : ومذيقها .
(٥) فى تفسير الطبرى : على عمياء من أمرهم .
(٦) والدر المنثور : ١ ــ ٣٠ ، وتفسير الطبرى : ١ ــ ٩١ .

وقال سعيد ، عن قتادة:(ومن الناس مَنْ يقولُ آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادِعُون إلا أنفسهم وما يشعرون): نعت المنافق عند كثير : خَنِع الأخلاق ، يصدِّق بلسانه ، وينكر بقلبه ، ويخالف بعمله ، يصبح على حالٍ ، ويُمْسى على غيره ، ويمسى على حال ، ويصبح على غيره ، ويتكفَّأ تكفُّأ السفينة كلما هبت ريح هبت[1] معها .

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ (١٠) ﴾

[٣٨] قال السُّدِّى ، عن أبى مالك ؛ وعن أبى صالح،عن ابن عباس ؛ وعن مرة الهمدانى ، عن ابن مسعود ؛ وعن أُناس من أصحاب رسول الله ﷺ فى هذه الآية : (فى قلوبهم مَرَض) ــ قال : شكٌّ ، فزادهم الله مرضا ؛ قال : شكًّا.

وقال ابن إسحاق ، عن محمد بن أبى محمد ، عن عِكْرمة ، أو سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس : فى قلوبهم مرض ــ قال : شك .

وكذلك قال مجاهد ، وعكرمة ، والحسن البصرى ، وأبو العالية ، والربيع بن أنس ، وقَتادة .

وعن عِكْرِمة ، وطاوس : فى قلوبهم مرض ؛ يعنى الرياء .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : فى قلوبهم مرض ــ قال : نفاق . فزادهم الله مرضا ــ قال : نفاقاً . وهذا كالأول .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم:فى قلوبهم مرض ــ قال: هذا مرض فى الدِّين، وليس مرضا فى الأجساد ؛ وهم المنافقون . والمرض : الشكُّ الذى دخلهم فى الإسلام .

(١) فى ز : هب .

فزادهم الله مرضا ـ قال: زادهم رجسا ؛ وقرأ[١]: (فأمّا الذين آمَنُوا فزادَتْهم إيماناوهم يَسْتَبْشِرُون. وأمّا الذين في قلوبهم مرَضٌ فزادتهم رِجْسا إلى رِجْسِهم): قال : شرّا إلى شرهم ، وضلالة إلى ضلالتهم . وهذا الذى قاله عبد الرحمن رحمه الله حسن، وهو الجزاء من جنس العمل. وكذلك قاله الأولون؛ وهو نظير قوله تعالى أيضا[٢]: (والذين اهْتَدَوْا زادهم هُدًى وآتاهم تَقْوَاهم) .

[٣][وقوله: (بما كانوا يكذبون) . وقرئ يكذّبون . وقد كانوا متصفين بهذا وهذا ؛ فإنهم كانوا كَذَبة ويكذّبُون بالغيب ، يجمعون بين هذا وهذا .

وقد سئل القرطبي وغيره من المفسرين عن حكمة كفّه عليه الصلاة والسلام عن قَتْل المنافقين مع علمه بأعيان بعضهم ، وذكروا أجوبةً عن ذلك ؛ منها ما ثبت في الصحيحين أنه ﷺ قال لعمر رضى الله عنه[٤] : « أكره أن يتحدَّثَ العربُ أنّ محمدا يَقْتُل أصحابه » .

ومعني هذا خشية أن يقعَ بسبب ذلك تغيّر لكثير من الأعراب عن الدخول في الإسلام ولا يعلمون حكمة قَتْله لهم ، وأن قَتْله إياهم إنما هو على الكفر ؛ فإنهم إنما يأخذونه بمجرد ما يظهر لهم ، فيقولون : إنّ محمداً يقتل أصحابه .

قال القرطبي[٥] : وهذا قول علمائنا وغيرهم ، كما كان يعطى المؤلفة مع علمه بسوء اعتقادهم .

قال ابن عطية : وهى طريقة أصحاب مالك ، نصّ عليه محمد بن الجَهْم ، والقاضى إسماعيل ، والأَبْهَرى . وعن ابن الماجشُون .

---

(١) سورة التوبة ١٢٤ ، ١٢٥
(٢) سورة محمد ، آية ١٧
(٣) مابين القوسين ليس فى ز
(٤) صحيح البخارى : ٦ ـ ١٩٢
(٥) تفسير القرطبى : ١ ـ ١٩٩

ومنها : ما قال مالك : إنما كفَّ رسولُ الله ﷺ عن المنافقين ليبيِّنَ لأمته أنَّ الحاكم لا يحكم بعلمه .

ـ قال القرطبي[١] : وقد اتفق العلماء عن بكرة أبيهم على أنَّ القاضي لا يقتل بعلمه وإن اختلفوا في سائر الأحكام .

قال[٢] : ومنها ما قال الشافعي : إنما منع رسولَ الله ﷺ مِنْ قتل المنافقين ما كانوا يُظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم ؛ لأن ما يظهرونه يَجُبُّ ما قبله .

ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث المجمع على صحته في الصحيحين وغيرها[٣] : « أُمِرْتُ أن أُقاتلَ الناسَ حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها ، وحسابُهم على الله عز وجل » .

ومعنى هذا أنَّ من قالها جرت عليه أحكامُ الإسلام ظاهرا ؛ فإن كان يعتقدها وجد ثوابَ ذلك في الدار الآخرة ، وإن لم يعتقدها لم ينْفَعْه جَرَيانُ الحكم عليه في الدنيا ، وكونه كان خليط أهل الإيمان : ([٤] يُنادُونَهم ألم نكُنْ معكم ؟ قالوا : بلى ، ولكنكم فتنتُم أنفسَكم وتربَّصتم وارْتَبْتُم وغَرَّتكم الأمانيّ حتى جاء أمر الله . . .) الآية . فهم يخالطونهم في بعض المحشر ، فإذا حقّت المحقوقية تميَّزُوا منهم ، وتخلَّفوا بعدهم ، ([٥] وحِيلَ بينهم وبين مايَشْتَهُون) ، ولم يمكنهم أَنْ يسجدوا معهم ، كما نطقت بذلك الأحاديث .

ومنها ما قاله بعضهم : إنه إنما لم يقتلهم ، لأنه كان لا يخافُ من شرهم مع وجوده ﷺ بين أظهرهم ، يَتْلُو عليهم آياتِ الله مبينات ، فأما بعده فيُقْتَلون إذا

---

(١) تفسير القرطبي : ١ – ١٩٨
(٢) تفسير القرطبي : ١ – ٢٠٠
(٣) صحيح مسلم : ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣
(٤) سورة الحديد ، آية ١٤
(٥) سورة سبأ ، آية ٥٤ .

أظهروا النفاقَ، وعلمه المسلمون؛ قال مالك: المنافقُ في عهدِ رسول الله ﷺ هو الزّنديق اليوم.

• قلت: وقد اختلف العلماء في قتل الزنديق إذا أظهر الكفرَ؛ هل يُستتاب أم لا؟ أو يفرق بين أن يكون داعية أم لا؟ أو يتكرر منه ارتدادُه أم لا؟ أو يكون إسلامُه ورجوعُه مِنْ تلقاء نفسه، أو بعد أن ظهر عليه؟ على أقوال متعددة، موضعُ بسطها وتقريرها وعَزْوها كتابُ الأحكام.

﴿ تنبيه ﴾ قول من قال: كان عليه الصلاةُ والسلام يَعلمُ أعيانَ بعضِ المنافقين إنما مستَنَده حديثُ حُذَيفة بن اليمان في تسمية أولئكَ الأربعة عشر منافقا في غَزْوة تبُوك الذين همُّوا أنْ يفتكوا برسول الله ﷺ في ظَلْماء الليل عند عَقَبةٍ هناك؛ عزموا على أنْ ينفروا به الناقةَ ليسقُطَ عنها؛ فأوحى اللهُ إليه أمرهم، فأطلع على ذلك حذيفة. ولعل الكفَّ عن قتلهم كان لمُدْرَك من هذه المدارك أو لغيرها. والله أعلم.

فأما غَيْرُ هؤلاء فقد قال الله تعالى[1]: (ومِمَّنْ حَوْلَكُم من الأعراب منافِقُون ومِنْ أهل المدينة مَرَدُوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم . . .) الآية.

وقال تعالى[2]: (لئن لم يَنْتَهِ المنافِقُونَ والذين في قلوبهم مَرَض والمُرْجفون في المدينة لنغْرِيَنَّكَ بهم ثم لا يجاورُونكَ فيها إلا قليلا. مَلْعونين أينما ثُقِفُوا أُخِذوا وقُتِّلوا تقتيلا)؛ ففيها دليل على أنه لم يغربهم، ولم يدرك على أعيانهم؛ وإنما كان

(١) سورة التوبة، آية ١٠١. مردوا على النفاق: مرنوا عليه (المعجم).

(٢) سورة الأحزاب، آية ٦٠، ٦١ المرجفون: الذين يشيعون في الناس الأخبار السيئة ليوقعوهم في الاضطراب. ثقفوا: وجدوا.

تُذْكَرُ له صفاتُهم فيتوسَّمها فى بعضهم ، كما قال تعالى[١] : (ولو نشاء لأريناكهم فلعرَفْتَهم بسيماهم ولتعرفَنَّهم فى لَحْنِ القول) .

وقد كان من أشهرهم بالنفاق عبد الله بن أُبَىّ بن سلول ، وقد شهد عليه زيد ابن أرقم بذلك الكلام الذى سبق فى صفات المنافقين ، ومع هذا لمّا مات شهد دَفْنَه ﷺ كما يفعلُ ببقية المسلمين ، وقد عاتبه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيه ، فقال : « إنى أكره أن تتحدَّث العربُ أن محمداً يقتل أصحابه » .

وفى رواية فى الصحيح[٢] : « إنى خُيرتُ فاخْتَرت » . وفى رواية : « لو أعلم أنى لو زِدْتُ على السبعين يُغْفر له لزِدْتُ »] .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) . أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢) ﴾ .

قال السدِّى فى تفسيره ، عن أبى مالك ؛ وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ؛ وعن مُرّة الطيب[٣] الهَمْدانى ، عن ابن مسعود ، وعن أُناس من أصحاب النبى ﷺ : (وإذا قِيلَ لهم لا تُفْسِدُوا فى الأرض قالوا إنما نَحْنُ مُصْلِحون) . [[٤] قال : هم المنافقون][٤] .

أما « لا تفسدوا فى الأرض » قال : الفساد هو الكفر ، والعَمَل بالمعصية .

وقال أبو[٥] جعفر، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ـ فى قوله تعالى : (وإذا قِيلَ لهم لا تُفْسِدُوا فى الأرض) ؛ قال : يعنى لا تَعْصُوا فى الأرض ، وكان فسادهم ذلك

(١) سورة محمد ، آية ٣٠ . ولحن القول : ما كان يقبعه المنافقون فى كلامهم من تعريض أو تورية لإخفاء مرادهم عن الرسول .

(٢) سنن الترمذى : ٥ ـ ٢٧٩ ، مسند أحمد : ١ ـ ١٦

(٣) فى ز : الطيب ، والمثبت فى التقريب أيضا .

(٤) ليس فى ز . (٥) تفسير الطبرى : ١ ـ ٧٩٠

معصية الله ؛ لأنه مَنْ عصى اللهَ فى الأرض ، أو أمر بمعصيته ، فقد أفسد فى الأرض ، لأنّ صلاحَ الأرضِ والسماء بالطاعة .

وهكذا قال الربيع بن أنَس ، وقتَادة .

وقال ابنُ جُرَيج ، عن مجاهد : (وإذا قِيلَ لهم لاتفْسِدوا فى الأرض) . قال : إذا ركبوا معصيةَ اللهِ فقيل لهم : لاتفعلوا كذا وكذا ،قالوا : إنما نحن على الهُدَى مصلحون .

وقال وَكيع ، وعيسى بن يونس ، وعَثّام بن على ، عن الأعمش ، عن المِنْهال ابن عمرو ، عن عباد بن عبد الله الأَسدى ، عن سلمان الفارسى : (وإذا قِيل لهم لاتفْسِدُوا فى الأرض قالوا إنما نحنُ مصلحون) ـ قال سلمان : لم يجىء أهلُ هذه الآية بعد .

وقال ابن جرير[1] : حدثنى أحمد بن عثمان بن حكيم ، حدثنا عبد الرحمن بن شَريك ، حدثنى أبى ، عن الأعمش ، عن زيد بن وهب وغيره ، عن سلمان [2][الفارسى][2] فى هذه الآية ، قال : ما جاء هؤلاء [بعد][3] .

قال ابن جرير : يحتمل أنّ سلمان رضى الله عنه أراد بهذا أن الذين يأتون بهذه الصفة أعظَمُ فسادا من الذين كانوا فى زمَن النبى ﷺ ، لا أنه عنَى أنه لم يَمْضِ ممن تلك صفته أَحَدٌ .

قال ابن جرير[4] : فأهلُ النفاقِ مفسدون فى الأرض بمعصيتهم فيها ربَّهم ، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه ، وتضييعهم فرائضه ، وشكّهم فى دينه الذى لا يُقْبَل

(١) تفسير الطبرى : ١ ـ ٩٧
(٢) ليس فى ز ، والطبرى .
(٣) من ز ، والطبرى .
(٤) تفسير الطبرى : ١ ـ ٩٨

من أحدٍ عملٌ إلا بالتصديق به ، والإيقان بحقيقته ، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مُقيمون من الشك والريب ، ومظاهرتهم أهلَ التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلا ؛ فذلك إفسادُ المنافقين فى الأرضِ[1] ، وهم يحسبون أنهم بفِعْلهم ذلك مصلحون فيها .

وهذا الذى قاله حسن ؛ فإنَّ من الفساد فى الأرض اتخاذَ المؤمنين الكافرين أولياء ؛ كما قال تعالى[2] : (والذين كفروا بعضُهم أولياء بعضٍ إلّا تفعلوه تكُنْ فتنةٌ فى الأرض وفَسادٌ كبير) ؛ فقطع اللهُ الموالاةَ بين المؤمنين والكافرين ، كما قال تعالى[3] : (يأيها الذين آمنوا لا تتَّخِذُوا الكافرينَ أولياء مِنْ دون المؤمنين أتُريدون أنْ تجعلوا لله عليكم سُلْطانا مبيناً) .

ثم قال[4] : (إنَّ المنافقين فى الدَّرْكِ الأسفل من النار ولن تَجدَ لهم نَصِيرا) ؛ فالمنافقُ لمَّا كان ظاهره الإيمان اشتبه أمْرُه على المؤمنين ، فكان الفساد من جهة المنافق حاصل ؛ لأنه هو الذى غَرّ المؤمنين بقوله الذى لا حقيقةَ له ؛ ووَالَى الكافرين على المؤمنين ، ولو أنه استمر على حاله[5] الأول لكان شره أخفّ ، ولو أخلص العملَ لله وتطابقَ قولُه وعملُه لأفلح وأنجح ؛ ولهذا قال تعالى : (وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نَحْنُ مصلحون) ؛ أى نريد أنْ نداريَ الفريقين من المؤمنين والكافرين ؛ ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء ؛ كما قال محمد بن إسحاق ، عن محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة ، أو سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس : (وإذا قيل

(١) فى تفسير الطبرى : فى أرض الله . (٢) سورة الأنفال ، آية ٧٣

(٣) سورة النساء ، آية ١٤٤

(٤) سورة النساء ، آية ١٤٥ . الدرك : قعر الشيء ذى العمق ، فدرك البئر : أسفله .

(٥) فى ز : حالته .

لهم لا تفسدوا فى الأرضِ قالوا إنما نحنُ مصلحون) ؛ أى إنما نريد الإصلاحَ بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب .

يقول الله : (ألا إنَّهم هم المفسدون ولكن لا يَشْعُرُون) : يقول: ألَا إنَّ هذا الذى يعتمدونه ، ويزعمون أنه إصلاح ، [٣٩] هو عَيْنُ الفسادِ ، ولكن مِنْ جهلهم لا يشعرون بكونه فَساداً .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾ .

يقول تعالى : وإذا قيل للمنافقين : آمِنُوا كما آمن الناس ؛ أى كإيمان الناسِ بالله وملائكته ، وكتُبه ورسله ، والبعث بعد الموت ، والجنة والنار ، وغير ذلك مما أخبر المؤمنين به وعنه ؛ وأطيعوا اللهَ ورسوله فى امتثال الأوامر وتَرْكِ الزواجر (قالوا : أنؤمنُ كما آمنَ السفهاء) : يعنون ــ لعنهم الله ــ أصحابَ رسولِ الله ﷺ رضى الله عنهم ؛ قاله أبو العالية ، والسُّدِّى فى تفسيره بسنده عن ابن عباس ، وابن مسعود ، وغير واحد من الصحابة ؛ وبه يقول الربيع بن أنس ، وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم : يقولون : أَنَصِيرُ نحن وهؤلاء بمنزلةٍ واحدة ، وعلى طريقة واحدة ، وهم سفهاء ؟

والسفهاء : جمع سفيه ؛ لأنَّ الحكماء[١] جمع حكيم ، [٢][والحلماء جمع حليم][٢] . والسفيه : هو الجاهل الضعيف الرأى ، القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار ؛ ولهذا سمَّى اللهُ النساءَ والصبيان سفهاء فى قوله تعالى[٣] : (ولا تُؤْتُوا السفهاء أموالَكم التى جعل اللهُ لكم قِياما) : قال عامة علماء التفسير[٤] : هم النساء والصبيان .

(١) فى ز : كما أن الحكماء .
(٢) ليس فى ز .
(٣) سورة النساء ، آية ٥
(٤) فى ز : السلف .

وقد تولّى الله سبحانه جوابهم فى هذه المواطن كلها؛ فقال: (ألا إنّهم هم السّفهاء)؛ فأكّد وحصر السفاهةَ فيهم.

(ولكن لا يعلمون): يعنى ومِنْ تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم فى الضلالة والجهل؛ وذلك أَرْدَى لهم، وأبلغ فى العمى والبُعد عن الهدى.

﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ (١٤). ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) ﴾.

يقول تعالى: وإذا لقِيَ هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا: آمنّا[1] وأظهروا لهم الإيمانَ والموالاةَ والمصافاة غُروراً منهم للمؤمنين ونفاقا، ومصانعة وتقيّة، وليشركوهم فيما أصابوا من خير ومَغْنَم.

(وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم) يعنى: وإذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا[2] إلى شياطينهم؛ فضمّن «خَلَوْا» معنى انصرفوا؛ لتعديته بإلى، ليدلّ على الفعل المضمر، والفعل الملفوظ به.

ومنهم من قال: «إلى» هنا بمعنى «مع». والأول أحسن. وعليه يدور كلام ابن جرير[3].

وقال السُّدى، عن أبى مالك: (خَلَوْا) يعنى مضَوا. وشياطينُهم: سادتُهم وكبراؤهم ورؤساؤهم مِنْ أحبار اليهود ورءوس المشركين والمنافقين.

قال السُّدِّى فى تفسيره، عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس، وعن

---

(١) فى ز: أى أظهروا. و فى ب: آمنا أظهروا.

(٢) فى ز: وأخلصوا. (٣) تفسير الطبرى: ١ – ١٠١

مُرَّة [الهَمْدانى][1] ، عن ابن مسعود ؛ وعن ناس من أصحاب النبى ﷺ : (وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم) : يعنى هم رؤساؤهم فى الكفر .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : وإذا خَلَوْا إلى أصحابهم وهم شياطينُهم .

وقال محمد بن إسحاق ، عن محمد بن أبى محمد ، عن عِكْرمة أو سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس: (وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم): مِنْ يهود الذين يأمرونهم بالتكذيب، وخلافِ ما جاء به الرسولُ ﷺ .

وقال مجاهد : (وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم): إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين.

وقال قتادة : (وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم) ؛ قال : إلى رءوسهم وقادتهم فى الشِّرْك والشرّ .

وبنحو ذلك فسره أبو مالك، وأبو العالية ، والسدّى ، والربيع بن أنس .

قال ابن[2] جرير : وشياطين كل شىء مَرَدَتُه ، ويكون الشيطان من الإنس والجن ؛ كما قال تعالى[3]: (وكذلك جعلنا لكل نبىّ عدوًّا شياطينَ الإنس والجن يُوحِى بعضُهم إلى بعض زُخْرُفَ القول غُرورا) .

وفى المسند[4] ، عن أَبى ذَرّ ؛ قال : قال رسولُ الله ﷺ : « نعوذُ بالله من شياطين الإنس والجن » . فقلت : يا رسول الله ، أَو للإنس شياطين ؟ قال : « نعم » .

وقوله تعالى : (قالوا إنّا معكم) : قال محمد بن إسحاق ، عن محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة أو سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس : أى إنّا على مِثْل ما أنتم عليه ؛ (إنما نحن مستهزئون) ؛ أى إنما نحن نستهزئ بالقوم ونلعبُ بهم .

---

(١) ليس فى ز .　(٢) تفسير الطبرى : ١ ــ ١٠٠

(٣) سورة الأنعام ، آية ١١٢ . زخرف القول : حسن القول بترقيش الكذب .

(٤) مسند أحمد : ٥ ــ ١٧٨

وقال الضحاك ، عن ابن عباس ؛ قالوا : (إنما نحن مستهزئون) : ساخرون بأصحاب محمد ﷺ .

وكذلك قال الربيع بن أنس ، وقتادة .

وقوله تعالى – جواباً لهم ومقابلةً على صنيعهم : (اللهُ يستهزئُ بهم ويمدُّهم في طُغْيانهم يَعْمَهون) .

وقال ابن جرير[1] : أخبر تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة في قوله تعالى[2] : (يوم يقولُ المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انْظُرونا نَقْتَبِسْ من نوركم قيل ارْجِعُوا وراءكم فالتمسوا نوراً ، فضُرب بينهم بسُورٍ له بابٌ باطنُه فيه الرحمةُ وظاهرُه من قبله العذاب . . .) الآية . وقوله تعالى[3] : (ولا يحسبنّ الذين كفروا أنما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم إنما نُمْلِي لهم ليزْدَادُوا إثما . . .) الآية .

قال[1] : فهذا وما أشبهه من استهزاء الله تعالى ذكْرُه ، وسخريته ومَكْره ، وخديعته للمنافقين وأهل الشرك به ، عند قائل هذا القول [٤٠] ومتأوّل هذا التأويل .

قال[4] : وقال آخرون : بل استهزاؤه بهم توبيخُه إياهم ، ولَوْمُه لهم على ما ركبوا من معاصيه والكفر به .

قال[4] : وقال آخرون : هذا وأمثاله على سبيل الجواب ؛ كقول الرجل لمن يخدعه إذا ظفر به : أنا الذى خدعتك . ولم يكن منه خديعة ، ولكن قال ذلك إذا صار الأمرُ إليه .

---

(١) تفسير الطبرى : ١ – ١٠٢ (٢) سورة الحديد ، آية ١٣

(٣) سورة آل عمران ، آية ١٧٨ . نملي لهم : أملى له : أطال له ووسع فيما هو فيه وأمهله.

(٤) تفسير الطبرى : ١ – ١٠٣

قالوا : وكذلك قوله تعالى[١] : (ومَكَرُوا ومَكَرَ اللهُ واللهُ خَيْرُ الماكِرِين) . و (اللهُ يستهزئ بهم) على الجواب؛والله لا يكون منه المكر ولا الهزء . والمعنى أن المكر والهزء حاقَ بهم .

وقال آخرون:قوله تعالى:(إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم)؛وقوله[٢]: (يخادِعُون الله وهو خادِعُهم) . وقوله[٣] : (فيَسْخَرُون منهم ، سَخِرَ اللهُ منهم). و[٤] (نَسُوا اللهَ فنَسِيَهم) ؛ وما أشبه ذلك ، إخبارٌ من الله تعالى أنه مُجَازِيهم جزاءَ الاستهزاء ، ومعاقبهم[٥] عقوبة الخِداع ، فأخرج خبرَه عن جزائه[٦] إياهم ، وعِقَابه لهم ، مخرج خبره عن فِعْلهم الذى عليه استحقوا العقابَ فى اللفظ،وإن اختلف المعنيان، كما قال تعالى[٧] : (وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مِثْلُها ، فمن عَفَا وأصلح فأَجْرُه على الله) . وقوله تعالى[٨] : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه) . فالأول ظلم ، والثانى عَدْل ، فهما وإن اتفق لفظهما فقد اختلف معناهما . قال : وإلى هذا المعنى وجَّهُوا كل مافى القرآن من نظائر ذلك .

قال[٩] : وقال آخرون : إن معنى ذلك أنّ الله أخبر عن المنافقين أنهم إذا خلوا إلى مَرَدتهم قالوا : إنا معكم على دينكم فى تكذيب محمد ﷺ وما جاء به ، وإنما نحن بما نُظْهِرُ لهم من قولنا لهم مستهزئون ؛ فأخبر تعالى أنّه يستهزئ بهم ، فيظهر لهم من أحكامه فى الدنيا – يعني مِنْ عصمة دمائهم وأموالهم – خلافَ الذى لهم عنده فى الآخرة ، يعنى من العذاب والنَّكال .

(١) سورة آل عمران ، آية ٥٤
(٢) سورة النساء ، آية ١٤٢
(٣) سورة التوبة ، آية ٧٩
(٤) سورة التوبة ، آية ٦٧
(٥) فى ز : ويعاقبهم .
(٦) فى ز : عن جوابه .
(٧) سورة الشورى ، آية ٤٠
(٨) سورة البقرة ، آية ١٩٤
(٩) تفسير الطبرى : ١ – ١٠٣

ثم شرع ابن جرير[١] يوجّه هذا القول وينصره؛لأن المكر والخداع والسخرية على وَجْه اللعب والعبث مُنْتفٍ عن الله عز وجل بالإجماع . وأما على وَجْه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك .

قال : وبنحو ما قلنا فيه رُوى الخبر عن ابن عباس[٢] : حدثنا أبو كُريب ، حدثنا عثمان[٣] ، حدثنا بشر ، عن أبى رَوْق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس – فى قوله تعالى : (الله يستهزئُ بهم) ؛ قال : يسخر بهم للنقمة منهم .

وقوله تعالى : (ويمدّهم فى طغيانهم يَعْمهون) ؛ قال السدى ، عن أبى مالك ؛ وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ؛ وعن مُرّة [الهَمْدانى][٤] ، عن ابن مسعود ؛ وعن أناس من أصحاب النبى ﷺ : يمدّهم : يملى لهم . وقال مجاهد : يزيدهم .

[٥] [وقال تعالى[٦] : (أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهم به مِنْ مالٍ وبنين. نُسارِعُ لهم فى الخيرات بل لا يشعرون). وقال[٧] :(سَنَسْتَدْرِجُهم من حيث لا يعلمون)؛قال بعضهم: كلما أحدثوا ذنباً أحدثَ لهم نعمة ، وهى فى الحقيقة نقمة . وقال تعالى[٨] : (فلما نَسُوا ماذُكِّرُوا به فَتَحْنَا عليهم أبوابَ كلِّ شىء حتى إذا فَرِحُوا بما أُوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مُبْلسون . فقُطِع دابرُ القومِ الذين ظَلَموا والحمدُ لله رب العالمين)] .

قال ابن جرير[٩] : والصواب يزيدهم على وَجْه الإملاء والترك لهم فى عتوّهم وتمردهم ؛ كما قال تعالى[١٠] : (ونقلِّبُ أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونَذَرهم فى طُغْيانهم يَعْمَهُون) .

---

(١) تفسير الطبرى : ١ – ١٠٣ (٢) وتفسير القرطبى : ١ – ١٠٤
(٣) فى الطبرى: عثمان بن سعيد . (٤) ليس فى ز. (٥) ما بين القوسين ليس فى ا ، ز .
(٦) سورة المؤمنون ، آية ٥٥ ، ٥٦ (٧) سورة الأعراف ، آية ١٨٢
(٨) سورة الأنعام ، آية ٤٤ ، ٤٥ ،مبلسون : متحسرون ، واجمون ، يائسون من كل خير.
(٩) تفسير الطبرى : ١ – ١٠٥ (١٠) سورة الأنعام ، آية ١١٠

والطغيان : هو المجاوزة فى الشىء ، كما قال تعالى[١] : (إنَّا لما طَغَى الماء حملناكم فى الجارية) .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : (فى طغيانهم يَعْمَهون) : فى كفرهم يتردّدون. وكذا فسره السدّى بسنده عن الصحابة ، وبه يقول أبو العالية ، وقَتادة ، والربيع ابن أنس ، ومجاهد ، وأبو مالك ، وعبد الرحمن بن زيد : فى كفرهم وضلالتهم .

قال ابن جرير[٢] : والعَمَه : الضلال ، يقال : عَمِه فلان يَعْمَه عَمَهاً وعُموها ، إذا ضلّ . قال[٢] : وقوله : فى طغيانهم يعمهون : فى ضلالتهم ، وكفرهم الذى غمرهم دنَسُه ، وعلاهم رِجْسه ، يتردّدون حيارَى ضلالا ، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلا ؛ لأنّ الله قد طبع على قلوبهم ، وختم عليها ، وأعمى أبصارهم عن الهدى ، وأغشاها ؛ فلا يبصرون رُشْدا ، ولا يهتدون سبيلا .

[٣][وقال بعضهم : العمى فى العين ، والعَمَه فى القلب ؛ وقد يستعمل العمى فى القَلْب أيضا ؛ قال الله تعالى[٤] : (فإنها لا تَعْمَى الأبصار ولكن تَعْمَى القلوبُ التى فى الصدور) .

وتقول : عَمِهَ الرجلُ يَعْمَه عمُوها فهو عَمِه وعامِه ، وجمعه عُمَّه . وذهبت إبله العَمْهاء[٥] ؛ إذا لم يدر أين ذهبت][٣] .

---

(١) سورة الحاقة ، آية ١١ . والجارية : السفينة ، صفة غالبة .

(٢) تفسير الطبرى : ١ – ١٠٥ (٣) مابين القوسين ليس فى ا ، ز .

(٤) سورة الحج ، آية ٤٦

(٥) فى القاموس : وذهبت إبله العمهى ، والعميهى : لم يدر أين ذهبت وفى تفسير القرطبى : وذهبت إبله العمهى : إذا لم يدر أين ذهبت (١ – ٢١٠) .

﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ (١٦) ﴾ .

قال السُّدِّى فى تفسيره ، عن أبى مالك ؛ وعن أبى صالح ، عن ابن عبّاس ؛ وعن مُرّة ، عن ابن مسعود ؛ وعن ناس من الصحابة : (أولئك الذين اشتَرَوُا الضلالةَ بالهُدى) ؛ قال : أخذوا الضلالةَ ، وتركوا الهدى .

وقال ابن إسحاق ، عن محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة أو سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس : (أولئك الذين اشتروا الضلالةَ بالهدى) ؛ أى الكفر بالإيمان .

وقال مجاهد : آمنوا ثم كفروا .

وقال قَتادة : استَحَبُّوا الضَّلالةَ على الهدى .

وهذا الذى قاله قتادة يشبهه فى المعنى قولُه تعالى فى ثمود[1] : (وأمَّا ثمودُ فهدَيْنَاهم فاستحبُّوا العَمَى على الهدى) .

وحاصل قول المفسرين فيما تقدم أنَّ المنافقين عدَلُوا عن الهدى إلى الضلال ، واعتاضوا عن الهدى بالضلالة ؛ وهو معنى قوله تعالى : (أولئك الذين اشتروا الضلالةَ بالهدى) ؛ أى بذلوا الهدى ثمناً للضلالة . وسواء فى ذلك مَنْ كان منهم قد حصل له الإيمانُ ثم رجع عنه إلى الكفر ؛ كما قال تعالى فيهم[2] : (ذلك بأنهم آمَنُوا ثم كفروا فطُبِع على قلوبهم) ؛ أو أنهم استحبُّوا الضلالةَ على الهدى ، كما يكون حالُ فريق آخر منهم ؛ فإنهم أنواع وأقسام ؛ ولهذا قال تعالى : (فما ربحت تجارتُهم وما كانوا مهتدين) ؛ أى ما ربحت صَفْقَتُهم فى هذه البيعة .

(وما كانوا مهتدين) ؛ أى راشدين فى صنيعهم ذلك .

---

(١) سورة فصلت ، آية ١٧ (٢) سورة المنافقون ، آية ٣

وقال ابن جرير : حدثنا بشر[١] ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ـ (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) : قد والله رأيتموهم خرجوا من الهُدَى إلى الضلالة ، ومن [٤١] الجماعة إلى الفُرْقة ، ومن الأمن إلى الخوف ، ومن السنَّة إلى البِدعة .

وهكذا رواه ابن أبي حاتم[٢] من حديث يزيد بن زُرَيع ، عن سعيد ، عن قتادة بمثله سواء .

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٧)﴾.

[٣][يقال : مَثَل ومِثْل ومَثِيل أيضا . والجمع أمثال ؛ قال الله تعالى[٤]:(وتلكَ الأمثالُ نضرِبُها للناس وما يَعْقِلُها إلا العالمون)][٣] .

وتقريرُ[٥] هذا المثل أنَّ الله سبحانه شبَّهَهم في اشترائهم الضلالةَ بالهدى ، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العَمى ، بمن استوقد نارا ، فلما أضاءت ماحَوْلَه ، وانتفع بها ، وأبصر بها ماعَنْ يمينه وشماله ، وتأنّس بها ؛ فبينما هو كذلك إذ طُفِئت نارُه ، وصار في ظلام شديد ، لايُبْصِر ولا يهتدى ؛ وهو مع هذا أصمُّ لايسمَع ، أبْكم لاينطق ، أعمى لو كان ضياء لما أبصره ؛ فلهذا لايرجع إلى ما كان عليه قَبْلَ ذلك ، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالةَ عوضا عن الهدى ، واستحبابهم الغيَّ على الرشد .

(١) في ب : بشير . وفي ا ، بشر ، وفي تفسير الطبرى (١ ـ ١٠٨) : بشر بن معاذ .
(٢) والدر المنثور : ١ ـ ٣٢
(٣) مابين القوسين ليس في ز .
(٤) سورة العنكبوت ، آية ٤٣
(٥) في ب : وتقدير .

وفى هذا المثل دلالةٌ على أنهم آمنوا ، ثم كفروا ، كما أخبر تعالى عنهم فى غير هذا الموضع . والله أعلم .

(1)[وقد حكى هذا الذى قلناه الرازى فى تفسيره،عن السدّى ؛ ثم قال : والتشبيهُ هاهنا فى غاية الصحة ؛ لأنهم بإيمانهم اكتسبوا أولا نورًا ، ثم بنفاقهم ثانيا أبطلوا ذلك ، فوقعوا فى حيرة عظيمة ؛ فإنه لا حَيْرة أعظم من حَيْرة الدين](1) .

وزعم ابن جرير(2) أن المضروب لهم المثل هاهنا لم يؤمنوا فى وقت من الأوقات؛ واحتجّ بقوله تعالى(3) : (ومِنَ الناس مَنْ يقولُ آمنَّا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) .

والصواب أن هذا إخبارٌ عنهم فى حال نفاقهم وكُفرهم ؛ وهذا لاينفى أنه كان حصل لهم إيمانٌ قبل ذلك ثم سلبوه ، وطُبع على قلوبهم . ولم يستحضر ابنُ جرير هذه الآية هاهنا ، وهى قوله تعالى(4) : (ذلكَ بأنهم آمنوا ثم كَفروا فطُبع على قلوبهم فهم لا يَفْقَهُون) ؛ فلهذا وجّه هذا المثل بأنهم استضاءوا بما أظهروه من كلمة الإيمان؛ أى فى الدنيا ؛ ثم أعقبهم ظلمات يوم القيامة . قال:وصَحّ ضرب مثل الجماعة بالواحد، كما قال(5) : (رأيتهم ينظرون إليك تَدُورُ أعينُهم كالذى يُغْشَى عليه من الموت) ؛ أى كدَوَران الذى يغشى عليه من الموت،وقال تعالى(6) : (ما خَلْقُكم ولا بَعْثُكم إلا كنَفْسٍ واحدة). (1)[وقال تعالى(7) :(مَثَلُ الذين حُمِّلُوا التوراةَ ثم لم يحملوها كمَثَل الحمارِ يحمل أسْفَارا) .

---

(1) مابين القوسين ليس فى ز .

(2) تفسير الطبرى : ١ - ١١١

(3) سورة البقرة ، آية ٨

(4) سورة المنافقون ، آية ٣

(5) سورة الأحزاب ، آية ١٩

(6) سورة لقمان ، آية ٢٨

(7) سورة الجمعة ، آية ٥

وقال بعضهم : تقدير الكلام : مَثَلُ قصتهم كقصة الذين استوقدوا نارا .

وقال بعضهم :المستوقد واحد لجماعة معه. وقال آخرون:الذى هاهنا يعنى الذين، كما قال الشاعر[1] :

وإنْ الذى حانَتْ بفَلْجٍ دِمَاؤهم همُ القوم كلّ القوم يا أمَّ خالد]

قلت: وقد التفت فى أثناء المثل من الواحد إلى الجمع فى قوله تعالى:(فلما أضاءتْ ما حَوْلَه ذهب اللهُ بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون . صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فهم لايرجعون) . وهذا أفصحُ فى الكلام ، وأبلغ فى النظام .

وقوله تعالى : (ذهب الله بنورهم)؛ أى ذهب[2] عنهم بما ينفعهم ، وهو النور، وأبقى لهم مايضرهم ، وهو الإحراق والدخان .

(وتركهم فى ظلمات): وهو ماهمْ فيه من الشك والكفر والنفاق،(لايبصرون): لايهتدون إلى سبيل[3] خير ، ولا يعرفونها ، وهم مع ذلك (صُمٌّ) لايسمعون خيراً ، (بُكْم) لايتكلمون بما ينفعهم ،(عُمْى) فى ضلالة وعماية البصيرة ؛ كما قال تعالى[4]: (فإنها لاتَعْمَى الأبصارُ ولكنْ تَعْمَى القلوبُ التى فى الصدور) ؛ فلهذا لايرجعون إلى ما كانوا عليه من الهداية التى باعوها بالضلالة .

ذكر أقوال المفسرين من السلف بنحو ما ذكرناه

قال السدِّى فى تفسيره ، عن أبى مالك ؛ وعن أبى صالح عن ابن عباس ؛ وعن مُرَّة [الهَمْدَانى][5] عن ابن مسعود ؛ وعن ناس من الصحابة ــ فى قوله تعالى : (فلما أضاءتْ ما حَوْله) : زعم أن ناسا دخلوا فى الإسلام مَقْدَم نبى الله ﷺ المدينة ، ثم إنهم نافقوا، وكان مثلهم كمَثَل رجُلٍ كان فى ظلمة، فأوقد نارا ؛ فلما أضاءت[6]

(١) وتفسير القرطبى : ١ – ٢١٢ (٢) فى ا ، ز : أى أذهب عنهم ما ينفعهم .
(٣) فى ز : سبل . (٤) سورة الحج ، آية ٤٦ (٥) ليس فى ز . (٦) فى ز : فأضاءت .

ما حوله من قَذى أو أذًى ، فأبصره حتى عرف ما يتقى منه ، فبينما هو كذلك إذ طفئت نارُه، فأقبل لايدرى ما يتّقى من أذى؛فذلك[١] المنافق ؛ كان فى ظُلْمة الشرك، فأسلم، فعرف الحلالَ والحرام،والخير والشر؛ فبينما هو كذلك إذ كفَر فصار لايَعْرِفُ الحلال من الحرام ، ولا الخير من الشر .

[٢][وقال العوفى ، عن ابن عباس ـ فى هذه الآية ؛ قال : أما النورُ فهو إيمانُهم الذى كانوا يتكلمون به. وأما الظُّلمةُ فهى ضلالتُهم وكُفْرهم الذى كانوا يتكلمون به؛ وهم قوم كانوا على هدى ثم نزع منهم فعتوا بعد ذلك][٢] .

وقال مجاهد : (فلما أضاءت ما حَوْلَه) . أما إضاءةُ النار فإقبالهم إلى المؤمنين والهدى .

وقال عطاء الخراسانى ـ فى قوله تعالى : (مَثَلُهم كمثل الذى اسْتَوْقَد نارا) ؛ قال : هذا مَثَلُ المنافق يُبْصر أحيانا ، ويعرف أحيانا ، ثم يدركه عَمَى القلب .

وقال ابنُ أبى حاتم:وروى عن عِكْرمة،والحسن ، والسدّى ، والربيع بن أنس، نحو قول عطاء الخراسانى .

[٣][وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ـ فى قوله تعالى : (مَثَلُهم كمَثَلِ الذى استَوْقدَ نارا) ؛ قال : هذا مَثَلُ المنافق يبصر أحيانا ، ويعرف أحيانا ، ثم يدركه عَمَى القلب][٣].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ـ فى قوله تعالى : (مَثَلُهم كمثل الذى استوقد نارا . . .) إلى آخر الآية ؛ قال : هذه صفةُ المنافقين ، كانوا قد آمنوا حتى أضاء

(١) فى ز : فكذلك المنافق .

(٢) مابين القوسين فى ز ـ بعد قوله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فيما يأتى .

(٣) ليس فى ز . وانظر الهامش السابق .

الإيمانُ فى قلوبهم ، كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا [نارا][1] ، ثم كفروا ، فذهب اللهُ بنورهم ، فانتزعه ، كما ذهب بضوء هذه النار ، فتركهم فى ظلمات لا يبصرون.

وأما قول ابن جرير[2] فيشبه ما رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس ، فى قوله تعالى : (مثَلُهم كمثل الذى استوْقَد نارا) ؛ قال : هـذا مثلٌ ضربه اللهُ للمنافقين أنهم كانوا يعتزُّون بالإسلام ، فيناكحهم المسلمون ، ويوارثونهم ، ويقاسمونهم الفىء ، فلما ماتوا سلبهم الله ذلك العزَّ ، كما سلب صاحب النارِ ضوءه .

وقال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية : (مثَلُهم كمثل الذى استوقد نارا) ؛ فإنما ضوء النار ما أوقدتها [٤٢] ، فإذا خمدت ذهب نورُها ، وكذلك المنافق كلما تكلم بكلمة الإخلاصِ بلا إله إلا الله أضاء له ، فإذا شكَّ وقع فى الظلمة .

وقال الضحاك : (ذهب اللهُ بنورهم) : أما نورُهم[3] فهو إيمانُهم الذى تكلموا به.

وقال عبد الرزاق ، عن مَعْمر ، عن قتادة : (مثَلُهم كمثل الذى استوقَد نارا فلما أضاءتْ ما حولَه) ؛ فهى لا إله إلا الله ، أضاءت لهم ، فأكلوا بها وشربوا ، وأمنوا فى الدنيا ، ونكحوا[4] النساء ، وحقَنوا دماءهم ، حتى إذا ماتوا ذهب اللهُ بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون .

وقالَ سعيد ، عن قتادة ـ فى هذه الآية : إنّ المعنى أنَّ المنافقَ تكلّم بلا إله إلا الله ، فأضاءت له فى الدنيا ، فناكح بها المسلمين ، وغازاهم[5] بها ، ووارثهم بها ، وحقَن بها

---

(١) ليس فى ز .
(٢) فى تفسير الطبرى : ١ ـ ١١٠
(٣) فى ا : وقال الضحاك ـ فى قوله : ذهب الله بنورهم فهو إيمانهم . . .
(٤) فى ب : وأنكحوا .
(٥) فى تفسير الطبرى : وعادى المسلمين .

دَمه ومالَه؛ فلما كان عند الموت سلبها المنافق ؛ لأنه لم يكن لها أصلٌ فى قلبه ولاحقيقة فى عمله[1] .

(وتركهم فى ظلمات لا يُبْصِرُون) : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (وتركهم فى ظلماتٍ لا يبصرون) : يقول : فى عذابٍ إذا ماتوا .

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد، عن عِكْرمة ، أو سعيد بن جُبير، عن ابن عباس : (وتركهم فى ظلمات) ؛ أى يبصرون الحقّ ويقولون به ، حتى إذا خرجوا من ظُلْمة الكفر أطفئوه بكفرهم ونِفاقهم فيه ، فتركهم فى ظلمات الكفر ؛ فهم لا يبصرون هُدًى ، ولا يستقيمون على حق .

وقال السدى فى تفسيره بسنده : (وتركهم فى ظلمات) ؛ فكانت الظلمة نفاقهم .

وقال الحسن البصرى : (وتركهم فى ظُلماتٍ لا يبصرون) ، فذلك حين يموت المنافِقُ ، فيظلم عليه عَمَلُه عمل السوء ، فلا يجد له عملا من خيرٍ عمل به يصدق به قولُ لا إله إلا الله .

(صُمٌّ بكْمٌ عُمْى) : قال السدّى بسنده : صمّ بُكم عمى ؛ فهم خُرْس عُمْى .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (صُمّ بُكم عمى) : يقول : لا يسمعون الهُدَى ولا يبصرونه ؛ ولا يعقلونه . وكذا قال أبو العالية ، وقَتَادة ابن دِعَامة .

(فهم لا يرجعون) : قال ابن عباس: أى لا يرجعون إلى هُدًى . وكذا قال الربيع بن أنس .

وقال السدى بسنده : (صُمٌّ بُكم عُمْى فهم لا يرجعون) إلى الإسلام .

وقال قتادة : فهم لا يرجعون ؛ أى لا يتوبون ، ولا هم يذكرون .

---

(١) قال ابن جرير فى تفسير الطبرى (١ – ١٩١) : وأولى التأويلات بالآية ما قاله قتادة والضحاك وما رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس .

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ (١٩). يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾.

وهذا مثلٌ آخر ضربه الله تعالى لضَرْبٍ آخر من المنافقين، وهم قومٌ يظهر لهم الحقُّ تارة، ويشكُّون تارةً أخرى؛ فقلوبُهم فى حال شكّهم وكُفْرهم وترددهم (كصيِّبٍ).

والصيِّب: المطر؛ قاله ابنُ مسعود، وابن عباس، وناس من الصحابة، وأبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جُبير، وعطاء، والحسن البصرى، وقَتادة، وعطية العَوْفى، وعطاء الخراسانى، والسُّدِّى، والربيع بن أنس.

وقال الضحاك: هو السحاب. والأشهر هو المطر نزل من السماء، فى حال ظلمات؛ وهى الشكوك، والكفر، والنفاق.

و«رعد»: وهو ما يزعج القلوب من الخوف؛ فإنَّ مِنْ شأن المنافقين الخوفَ الشديد، والفزع؛ كما قال تعالى[1]: (يحسَبُون كلَّ صيحةٍ عليهم هم العدوّ)، وقال[2]: (ويحلفون بالله إنهم لَمِنْكم وما هم منكم ولكنهم قوم يَفْرَقُون. لو يجدون ملجأً أو مغاراتٍ أو مُدّخَلا لوَلَّوْا إليه وهم يَجْمحون).

(والبرق): هو ما يلمعُ فى قلوب هؤلاء الضَّرْب من المنافقين فى بعض الأحيان

(١) سورة المنافقون، آية ٤

(٢) سورة التوبة، آية ٥٦، ٥٧

يفرقون: يخافون. المغار: الجحر الذى يأوى إليه الوحش، ومثله المغار والمغارة، وجمع الأخيرتين مغارات. مدخلا: نفقا ينجحرون فيه هاربين من الخوف. يجمحون: يفرون مسرعين لايثنيهم شىء (المعجم).

من نور الإيمان ؛ ولهذا قال: (يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصّواعق حذَرَ الموت والله محيطٌ بالكافرين) ؛ أى ولا يُجْدِى عنهم حذرهم شيئاً ؛ لأنّ الله محيط بقدرته ، وهم تحت مشيئته وإرادته ؛ كما قال[1]: (هَلْ أتاكَ حديثُ الجنود . فرعونَ وثمود. بل الذين كفروا فى تكْذيب . واللهُ مِنْ ورائهم مُحيط) . [بهم][2] .

ثم قال : (يكاد البرقُ يَخْطَفُ أبصارَهم) ؛ أى لشدته وقوّته فى نفسه ، وضعف بصائرهم ، وعدم ثباتها للإيمان .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (يكاد البَرْقُ يخطَفُ أبصارهم) : يقول : مُحْكم القرآن يدلّ على عورات المنافقين .

وقال ابن إسحاق : حدثنى محمد بن أبى محمد ، عن عِكْرمة ، أو سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس : (يكادُ البرقُ يَخْطَفُ أبصارَهم)؛ أى لشدة ضوء الحق،(كلما أضاء لهم مشَوْا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا) ؛ أى كلما ظهر لهم من الإيمان شىء استأنسوا به واتّبعوه ؛ وتارةً تَعْرِضُ لهم الشكوكُ أظلمت قلوبَهم ، فوقفوا حائرين .

وقال على بن أبى طلحة،عن ابن عباس:(كلما أضاء لهم مشَوْا فيه) ؛ يقول : كلما أصاب المنافقين مِنْ عِزّ الإسلام اطمأنّوا إليه ، وإذا أصاب الإسلامَ نكبةٌ قاموا ليرجعوا إلى الكفر ؛ كقوله تعالى[3] : (ومن الناس مَنْ يعبد الله على حَرْف فإن أصابه خَيْرٌ اطمأنّ به وإنْ أصابته فتنةٌ انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة) .

وقال محمد بن إسحاق ، عن محمد بن أبى محمد ، عن عِكْرِمة ، أو سعيد بن جُبير، عن ابن عباس : (كلما أضاء لهم مشَوْا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا) ؛ أى يعرفون الحقّ ، ويتكلمون به ؛ فهم من[4] قولهم به على استقامة ، فإذا ارتكسوا[5] منه إلى الكفر قاموا ؛ أى متحيرين .

(١) سورة البروج ، آية ١٧ – ٢٠ (٢) ليس فى ز . (٣) سورة الحج ، آية ١١
(٤) فى ز : فى . (٥) ا ارتكسوا ، ورجعوا ، وانقلبوا .

وهكذا قال أبو العالية ، والحسن [٤٣] البصرى ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، والسُّدِّى بسنده عن الصحابة ؛ وهو أصح وأظهر . والله أعلم .

وهكذا يكونون يوم القيامة عند مايُعْطَى الناسُ النورَ بحسب إيمانهم ؛ فمنهم من يُعْطَى من النور مايضىء له مسيرة فراسخ ، وأكثر من ذلك ، وأقل من ذلك ؛ ومنهم من يُطفَأ نوره تارة ويضىء [له[1]] أخرى ، ومنهم[2] من يمشى على الصراط تارة ويقفُ أخرى ؛ ومنهم من يُطْفَأ نورُه بالكلية ، وهم الخلّص من المنافقين الذين قال تعالى فيهم[3] : (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظُرونا نقتَبِسْ مِنْ نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) .

وقال فى حق المؤمنين[4] :(يوم تَرَى المؤمنين والمؤمنات يَسْعَى نورُهم بين أيديهم وبأيمانهم بُشْرَاكم اليومَ جنّات تَجْرِى من تحتها الأنهار...) الآية. وقال تعالى[5] : (يوم لايُخْزِى اللهُ النبىَّ والذين آمنوا معه نورُهم يَسْعَى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون: ربّنا أتمم لنا نُورنا واغْفِرْ لنا إنك على كل شىء قدير) .

ذكر الحديث الوارد فى ذلك

قال سعيد بن أبى عَرُوبة ،[عن قَتَادة][6] فى قوله تعالى :(يَوْمَ تَرَى المؤمنين والمُؤمنات . . .) الآية . ذكر لنا أنَّ نبى الله ﷺ كان يقول : من المؤمنين من يُضىء نورُه من المدينة إلى عَدَن أَبْيَن بصنعاء ودونَ ذلك ، حتى إن من المؤمنين مَنْ لايضىء نورُه إلا موضعَ قدميه . رواه ابن جرير[7] . ورواه ابنُ أبى حاتم من حديث عمران بن داود القطان ، عن قتادة بنحوه .

---

(١) من ز (٢) فى ز : فيمشى . (٣) سورة الحديد ، آية ١٣
(٤) سورة الحديد ، آية ١٢ (٥) سورة التحريم ، آية ٨ (٦) ليس فى ب ، ا .
(٧) تفسير الطبرى . ٢٧ – ١٢٨ ، والدر المنثور : ٦ – ١٧٤

وهذا كما قال المِنْهَال بن عَمْرو ، عن قيس بن السكن ، عن عبد الله بن مسعود ؛ قال : يؤتون نورهم على قَدْرِ أعمالهم ؛ فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة ؛ ومنهم من يؤتى نوره كالرجُل القائم ؛ وأدناهم نوراً على إبهامه يطفأ مرة ويتّقد مرة .

وهكذا رواه ابن جَرير[1] ، عن ابن مثنى ، عن ابن إدريس ، عن أبيه ، عن المِنْهَال .

وقال ابنُ أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن محمد الطَّنَافِسى[2]، حدثنا ابن إدريس ، سمعت أبى يذكر عن المِنْهَال بن عَمْرو ، عن قيس بن السكن ، عن عبد الله بن مسعود : (نورُهم يَسْعَى بين أيديهم) ـ قال: على قَدْر أعمالهم يمرُّون على الصراط ، منهم من نُوره مثلُ الجبل ، ومنهم مَنْ نوره مثل النخلة ، وأدناهم نوراً من نوره فى إبهامه يتّقد[3] مرة ويطفأ أخرى .

وقال ابن أبى حاتم أيضا : حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسى، حدثنا أبو يحيى الحِمّانى، حدثنا عُتبة بن اليقطان[4] ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ؛ قال : ليس أحد من أهل التوحيد إلا يعطى نوراً يوم القيامة، فأما المنافق فيطفأ نوره ؛ فالمؤمن مُشْفِق مما يرى من إطفاء نور المنافقين ، فهم يقولون : ربَّنا أَتْمم لنا نورنا .

وقال الضحاك بن مزاحم : يعطى كل من كان يظهر الإيمانَ فى الدنيا يوم القيامة نوراً ؛ فإذا انتهى إلى الصراط طفئ نورُ المنافقين ، فلما رأى ذلك المؤمنون أشْفَقوا فقالوا : ربنا أَتْمِم لنا نورَنا .

فإذا تقرَّر هذا صار الناسُ أقساما : مؤمنون خلّص، وهم الموصوفون بالآيات

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٧ – ١٢٨ ، والدر المنثور : ٦ – ١٧٤

(٢) فى ا : الطيالسى . (٣) فى ز : ويقد .

(٤) فى ب : عقبة بن اليقظان ، وفى ا ،ز : عتبة بن القطان. والمثبت فى تهذيب التهذيب .

الأربع فى أول البقرة . وكفار خلص وهم الموصوفون بالآيتين بعدها . ومنافقون ، وهم قسمان : خلص ، وهم المضروب لهم المثل النارى ، ومنافقون يترددون ؛ تارة يظهر لهم لمع[1] الإيمان ، وتارة يَخْبُو ؛ وهم أصحابُ المثل المائى ، وهم أخف حالا من الذين قبلهم .

وهذا المقام يُشْبِه من بعض الوجوه ما ذكر فى سورة النور ، من ضَرْب مثلِ المؤمن ، وما جعل الله فى قلبه من الهدى والنور بالمصباح فى الزجاجة التى كأنها كوكبٌ دُرِّى ؛ وهى قلبُ المؤمن المفطور على الإيمان ، واستمداده من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة إليه من غير كَدَر ولا تخليط ، كما سيأتى تقريره[2] فى موضعه إن شاء الله .

ثم ضرب مثلَ العُبّاد من الكفار الذين يعتقدون أنهم على شىء ، وليسوا على شىء ، وهم أصحابُ الجهل المركب فى قوله تعالى[3] : (والذين كفروا أعمالُهم كسراب بِقِيعَةٍ يَحْسَبُه الظمآنُ ماء حتى إذا جاءه لم يَجِدْه شيئا . . .) الآية .

ثم ضرب مثلَ الكفار الجهال الجَهْل البسيط ، وهم الذين قال تعالى فيهم[4] : (أو كظُلُمَاتٍ فى بَحْرٍ لُجِّى يغشاه مَوْجٌ من فوقه مَوْجٌ من فوقه سحاب ظلمات بعضُها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) .

(١) فى ز : لمع من الإيمان .

(٢) سورة النور ، آية ٣٥ ، والآية هى : . . . مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى . . . . .

(٣) سورة النور ، آية ٣٩ ، والقيعة : القاع . وقيل : القيعة : جمع قاع . والقاع : ما استوى من الأرض وانخفض عما يحيط به من الجبال والآكام ، تتجمع فيه الأمطار فيمسكها .

(٤) سورة النور ، آية ٤٠

فقسم الكفار هاهنا إلى قسمين: داعية ومقلد، كما ذكرهما في أول سورة الحج[1]: (ومِنَ الناسِ مَنْ يُجَادِلُ في الله بغير علم ويَتَّبِعُ كلَّ شيطان مَرِيد)، وقال بعده[2]: (ومن الناس مَنْ يجادِلُ في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب مُنِير) .

وقد قسّم اللهُ المؤمنين في أول الواقعة وفي آخرها . وفي سورة الإنسان إلى قسمين : سابقون وهم المقربون ، وأصحاب يمين وهم الأبرار .

فتلخَّصَ من مجموع هذه الآيات الكريمات أنَّ المؤمنين صنفان : مقرَّبون وأبرار ، وأنّ الكافرين صنفان : دعاة ومقلّدون ، وأن المنافقين أيضا صنفان : منافق خالص ، ومنافق فيه شُعْبة من نفاق ، كما جاء في الصحيحين ، عن عبد الله ابن عَمْرو ، عن النبي ﷺ[3] : « ثلاث مَنْ كُنَّ فيه كان منافقا خالصا ، ومَنْ كانت فيه واحدةٌ منهن كانت فيه [٤٤] خصلة من النفاق ، حتى يَدَعها : من إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » .

استدلوا به على أن الإنسان قد تكون فيه شُعْبة من إيمان وشعبة من نفاق ؛ إمّا عملى لهذا الحديث ، أو اعتقادى كما دلّت عليه الآية ، كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض العلماء ، كما تقدم وكما سيأتى إن شاء الله .

قال الإمام أحمد[4] : حدثنا أبو النضر ، حدثنا أبو معاوية – يعنى شيبان – عن ليث ، عن عمرو بن مرة، عن أبى البَخْترى، عن أبى سعيد ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مِثْلُ السراج يَزْهر ، وقلب أغْلَف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مُصَفح؛ فأما القلب الأجرد فقلبُ المؤمن، فسِرَاجُه[5] فيه نورُه . وأما القلبُ الأغلف فقلب الكافر . وأما القلب المنكوس فقلب المنافق

(١) سورة الحج ، آية ٣ (٢) سورة الحج ، آية ٨ (٣) مسند أحمد : ٢ – ١٩٨
(٤) مسند أحمد : ٣ – ١٧ (٥) في المسند : سراجه .

[الخالص][1]، عرف ثم أنكر . وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق . ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب . ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم ؛ فأيُّ المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه » .

وهذا إسناد جيد حسن .

وقوله تعالى : (ولو شاء اللهُ لذهَبَ بسَمْعِهم وأبصارهم إنّ اللهَ على كل شيء قدير) : قال محمد بن إسحاق : حدثني محمد بن أبي محمد ، عن عِكْرمة ، أو سعيد ابن جُبير؛ عن ابن عباس ــ في قوله تعالى: (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم) : قال : لِمَا تركوا من الحق بعد معرفته .

(إنَّ اللهَ على كل شيء قدير) : قال ابن عباس : أي إنّ الله على كل ما أراد بعباده من نِقْمة أو عَفْو قدير .

وقال ابن جرير[2] : إنما وصف اللهُ تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع ، لأنه حذّر المنافقين بَأْسَه وسطوته ، وأخبرهم أنه بهم محيط ، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير . ومعنى قدير قادر ، كما أن معنى عليم عالم .

[3][وذهب ابن جرير[4] ومَنْ تبعه من كثير من المفسرين إلى أنّ هذين المثلين مضروبان لصنف واحد من المنافقين ، وتكون «أو» في قوله تعالى : (أو كصيِّبٍ من السماء) بمعنى الواو ؛ كقوله تعالى[5] : (ولا تُطِعْ منهم آثما أو كفورا) . أو تكون للتخيير ؛ أي اضرب لهم مثلا بهذا ، وإن شئت بهذا .

قال القرطبي[6] : أو للتساوي ، مثل جالس الحسن أو ابن سيرين على ما وجّهه

---

(١) ليس في المسند .
(٢) تفسير الطبري : ١ - ١٢٤
(٣) ما بين القوسين ليس في ز .
(٤) تفسير ابن جرير : ١ - ١٢١
(٥) سورة الإنسان ، آية ٢٤
(٦) تفسير القرطبي : ١ - ٢١٥

الزمخشري[١] : إن كلا منهما مساوٍ للآخر في إباحة الجلوس إليه ، ويكون معناه على قوله : سواء ضربت لهم مثلا بهذا أو بهذا ، فهو مطابق لحالهم .

قلت : وهذا يكون باعتبار جنس المنافقين؛ فإنهم أصناف،ولهم أحوال وصفات كما ذكرها الله تعالى في سورة براءة ؛ ومنهم ؛ ومنهم ؛ ومنهم – يذكر أحوالهم وصفاتهم ، وما يعتمدونه من الأفعال والأقوال ؛ فجعل هذين المثلين لصنفين منهم أشدّ مطابقة لأحوالهم وصفاتهم.والله أعلم ؛ كما ضرب المثلين في سورة النور لصنفي الكفار الدّعاة والمقلدين ؛ في قوله تعالى[٢] : (والذين كفروا أعمالهم كسرابٍ بقيعة . . .) إلى أن قال : (أو كظلمات في بحر لجّي . . .) الآية ؛ فالأول للدّعاة الذين هم في جَهْل مركّب . والثاني لذوي الجهل البسيط من الأتباع المقلدين . والله أعلم بالصواب][٣] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) ﴾ .

شرع تبارك وتعالى في بيان وَحْدانية ألوهيته بأنه تعالى هو المنعِمُ على عَبيده بإخراجهم من العَدَم إلى الوجود ، وإسباغه عليهم النعمَ الظاهرة والباطنة ، بأنْ جعل لهم الأرضَ فِراشا ؛ أي مَهْداً كالفراش مقدرة[٤] موطّأة ، مثبتة بالرواسي

(١) الكشاف : ١ – ٣٣
(٢) سورة النور ، آية ٣٩ ، ٤٠
(٣) إلى هنا ليس في ز .
(٤) في ب : مقررة . والمثبت في ا ، ز .

الشامخات ، والسماء بناء وهو السقف ، كما قال فى الآية الأخرى[١] : (وجعلنا السماءَ سَقْفًا محفوظا وهم عن آياتها مُعْرِضون) ؛وأنزل لهم من السماء ماءً ؛ والمرادُ به السحاب هاهنا فى وقته عند احتياجهم إليه ؛ فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد ، رزْقاً لهم ولأنعامهم ، كما قرر هذا فى غير موضع من القرآن .

ومِنْ أشبه آيةٍ بهذه الآية قولُه تعالى[٢] : (الذى جعلَ لكم الأرضَ قَراراً والسماءَ بناءً وصوَّركم فأحسن صُوَركم ورزقكم من الطيبات ذلكم اللهُ ربُّكم فتبارك الله ربُّ العالمين) .

ومضمونُه أنه الخالقُ الرازق ، مالك الدار وساكنيها ، ورازقهم ؛ فبهذا يستحقُّ أنْ يُعْبَد وحده ، ولا يُشْرك به غيره ؛ ولهذا قال[٣] : (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) .

وفى الصحيحين ، عن ابن مسعود[٤] ؛ قال : قلتُ : يا رسولَ الله ، أَىُّ الذنبِ أعظم عند الله ؟ قال : « أن تجعلَ لله نِدًّا وهو خلَقك . . . » الحديث .

وكذا حديث معاذ : أتدرى ما حقُّ اللهِ على عباده ؟ « أَنْ يعبدوه ولا[٥] يُشْركوا به شيئا . . . » الحديث .

وفى الحديث الآخر[٦] : « لا يقولنَّ أحدكم ما شاء الله وشاء فلان، ولكن ليقُلْ ما شاء الله ثم شاء فلان » .

وقال حماد[٦] بن سلمة : حدثنا عبد الملك بن عُمير ، عن رِبْعىّ بن حِرَاش ، عن

---

(١) سورة الأنبياء ، آية ٣٢ (٢) سورة غافر ، آية ٦٤

(٣) سورة البقرة ، آية ٢٢ ، أندادا : أمثالا .

(٤) مسند أحمد : ١ – ٣٨٠ (٥) فى ز : لايشركوا .

(٦) سنن ابن ماجه : ٦٨٤ ، ومسند أحمد : ٥ – ٧٢ ، والدر المنثور : ١ – ٣٥

الطفيل بن سَخْبَرة أخى عائشة أم المؤمنين لأمها ؛ قال : رأيتُ فيما يرى النائم كأنى أتيتُ على نفرٍ من اليهود ؛ فقلتُ : من أنتم ؟ قالوا : نحن اليهود . قلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون:عُزَير ابن الله . قالوا : وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد .

قال : ثم مررتُ بنفرٍ من النصارى ، فقلت : مَنْ أنتم ؟ قالوا : نحن النصارى . قلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله . قالوا : وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد .

فلما أصبحت أخبرتُ بها مَنْ أخبرت ، ثم أتيتُ النبي ﷺ فأخبرته ؛ فقال : « هل أخبرت بها أحدا ؟ » قلت: نعم، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فإنّ طُفَيلا رأى رؤيا أخبر بها مَنْ أخبر منكم ، وإنكم قلتم كلمةً كان يمنعنى كذا وكذا أنْ أنهاكم عنها ؛ فلا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا : ما شاء الله وحده » .

هكذا رواه ابن مَرْدويه فى تفسير هذه الآية من حديث حماد بن سلمة، به. وأخرجه ابنُ ماجه (١) من وَجْه آخر ، عن عبد الملك بن عُمير ، به ، بنحوه .

وقال سفيان بن سعيد الثورى ، عن الأجلح بن عبد الله الكندى ، عن يزيد ابن الأصم ، عن ابن عباس ؛ قال : قال رجل للنبي ﷺ [٤٥]:ما شاء الله وشئت . فقال : « أجعلتنى لله ندّا ؟ قل ما شاء الله وحْده » . رواه ابن مَرْدويه ، وأخرجه النسائى ، وابن ماجه (٢) ، من حديث عيسى بن يونس عن الأجلح، به .

وهذا كلُّه صيانة وحماية لجناب التوحيد . والله أعلم .

---

(١) سنن ابن ماجه : ٦٨٤ ، ومسند أحمد : ٥ – ٧٢ ، والدر المنثور : ١ – ٣٥

(٢) سنن ابن ماجه : ٦٨٤ ، والدر المنثور : ١ – ٣٥

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى محمد بن أبى محمد ، عن عِكْرِمة أو سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس ؛ قال: قال الله تعالى : (يأيها الناس اعبدوا ربَّكم) : للفريقين جميعا من الكفار والمنافقين ؛ أى وحِّدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم .

وبه عن ابن عباس:(فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تَعْلمون) ؛ أى لاتشركوا بالله غيره من الأنداد التى لاتنفع ولا تضر،وأنتم تعلمون أنه لاربّ لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أنَّ الذى يدعوكم إليه الرسولُ ﷺ من التوحيد[1] هو الحقُّ الذى لاشكّ فيه ؛ وهكذا قال قتادة .

وقال ابنُ أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عمرو بن أبى عاصم ، حدثنا أَبى عمرو ، حدثنا أَبى الضحاك بن مخلد أبو عاصم ، حدثنا شبيب بن بشر ، حدثنا عِكْرمة ، عن ابن عباس ـ فى قول الله عز وجل:(فلا تجعلوا لله أندادا) ـ قال الأنداد : هو الشِّرْك أخفى من دَبيب النمل على صَفَاةٍ سوداء فى ظلمة الليل ، وهو أن يقول : واللهِ وحياتك يافلان ، وحياتى . ويقول : لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص البارحة . ولولا البطُّ فى الدار لأتى اللصوص . وقول الرجل لصاحبه : ما شاء اللهُ وشئت . وقول الرجل : لولا الله وفلانٌ ـ لاتجعل فيها « فلان » ؛ هذا كلّه به شِرْك .

وفى الحديث أن رجلا قال لرسول الله ﷺ: ماشاء الله وشئت. قال: « أجعلتنى لله ندًّا » .

وفى الحديث الآخر[2] : « نعم القوم أنتم لولا أنكم تنَدِّدُون : تقولون : ما شاء الله وشاء فلان » .

قال أبو العالية : فلا تجعلوا لله أندادا ؛ أى عدلاء شركاء .

---

(١) فى ز : من توحيده .

(٢) سنن النسائى: ٧ ـ ٧

وهكذا قال الربيعُ بن أنس ، وقَتَادة ، والسدّى ، وأبو مالك ، وإسماعيل ابن أبى خالد .

وقال مجاهد: (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) ـ قال : تعلمون أنه إله واحد فى التوراة والإنجيل .

ذكر حديث فى معنى هذه الآية الكريمة

قال الإمام[١] أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا أبو خلف موسى بن خلف ، وكان يُعَدُّ من البُدَلاء[٢] ، حدثنا يحيى بن أبى كثير، عن زيد بن سلام،عن جده ممْطور، عن الحارث الأشعرى ـ أنّ نبى الله ﷺ قال:« إنَّ الله عز وجل أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات أَنْ يعملَ بهنّ، وأَنْ يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهنّ ، وأنه كاد أن[٣] يبطئ بها ، فقال له عيسى عليه السلام : إنكَ قد أُمِرت بخمس كلمات أن تعملَ بهن، وتأمر بنى إسرائيل أنْ يعملوا بهن ، فإما أن تبلغهنّ ، وإما أن أبلغهن . فقال: يا أخى ، إنى أخشى إنْ سبقتنى أن أعذَّب أو يُخسَفَ بى . قال : فجمع يحيى بن زكريا بنى إسرائيل فى بيت المقدس حتى امتلأ المسجد،فقعد على الشرف، فحمد الله وأثنى عليه؛ ثم قال : إن اللهَ أمرنى بخمس كلمات أن أعملَ بهن ، وآمركم أَنْ تعملوا بهنّ :[أولهن][٤] أنْ تعبدوا الله ولا تُشركوا به شيئا ، فإن مثَلَ ذلك كمثلِ[٥] رجل اشترى عَبْدًا من خالص ماله بوَرِق أو ذهب ، فجعل يعمل ويؤدى

(١) مسند أحمد : ٤ ـ ٢٠٢

(٢) الأبدال : قوم يقيم بهم الله عز وجل الأرض وهم سبعون لايموت أحدهم إلا قام مكانه آخر من سائر الناس (القاموس) .

(٣) فى المسند : فكاد أن يبطىء .

(٤) ليس فى المسند .

(٥) فى المسند : مثل .

غلّته إلى غير سيده ، فأيكم يسرُّه أن يكونَ عبده كذلك ؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأمركم بالصلاة فإنّ الله ينصبُ وجهه لوَجْه عبده مالم يلتفت ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا .

وأمركم بالصيام ؛ فإنّ مثل ذلك كمثل رجل معه صُرّة من مسك في عصابة كلُّهم يجد ريحَ المسك . وإن خَلُوفَ فم الصائم عند الله أطيبُ من ريح المسك .

وأمركم بالصدقة ؛ فإنّ مثل ذلك كمثل رجُل أسره العدوُّ فشدّوا يديه إلى عنقه، وقدّموه ليضربوا عنقه . وقال[١] لهم : هل لكم أنْ أفتدى نفسى منكم ؟ فجعل يَفْتَدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فكّ نفسه .

وأمركم بذِكْرِ الله كثيرا . وإنّ مَثَل ذلك كمثل رجل طلبه العدوُّ سِرَاعا فى أثره فأتى حصنا حصينا فتحصَّن فيه ؛ وإنّ العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان فى ذِكْر الله » .

قال : وقال رسول الله ﷺ : « وأنا آمركم بخمسٍ اللهُ أمرنى بهن : الجماعة[٢] ، والسمع ، والطاعة ، والهجرة ، والجهاد فى سبيل الله ؛ فإنه مَنْ خرج من الجماعة قيدَ شِبْر فقد خلع رِبْقَةَ الإسلام من عنقه إلا أنْ يرجع[٣] . ومن دعا بدَعْوى جاهلية فهو من جُثَى[٤] جهنم » .

قالوا : يا رسول الله ؛ وإن صام وصلّى ؟ فقال : « وإن صلَّى وصام ، وزعم أنه مُسْلم ؛ فادعوا المسلمين بأسمائهم على ما سمّاهم الله عزّ وجل المسلمين المؤمنين عباد الله .

---

(١) فى المسند : فقال . (٢) فى المسند : بالجماعة ، وبالسمع ... كلها مسبوقة بالباء .

(٣) فى ب : يراجع .

(٤) فى المسند : من جثاء جهنم . والجثا : جمع جثوة - بالضم - وهو الشىء المجموع (النهاية) .

هذا حديث حسن ، والشاهدُ منه فى هذه الآية قوله : « وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا » .

[1][وهذه الآيةُ دالّة على توحيده تعالى بالعبادة وحْدَه لا شريكَ له، وقد استدلّ بها كثير من المفسرين كالرازى وغيره على وجود الصانع تعالى ، وهى دالّةٌ على ذلك بطريق الأولى ؛ فإنّ من تأمّل هذه الموجودات السُّفلية والعلوية ، واختلافَ أشكالها وألوانِها وطباعِها ، ومنافعها ، ووضْعها فى مواضع النفع بها محكمة ـ عَلِم قُدْرةَ خالقها ، وحِكْمته وعلمه ، وإتقانه ، وعظيمَ سلطانه ، كما قال بعضُ الأعراب ـ وقد سئل : ما الدليلُ على وجود الرب تعالى ؟ فقال : يا سبحان الله ! إنّ البعر ليدلّ على البعير ، وإنّ أثر الأقدام لتدلّ على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فِجَاج ، وبحار ذات أمواج ! ألَا يدلُّ ذلك على وجود اللطيف الخبير !

وحكى الرازى عن الإمام مالك ـ أن الرشيد سأله عن ذلك ، فاستدلّ له باختلاف اللغات والأصوات والنغمات .

وعن أبى حنيفة أنّ بعض الزنادقة سألوه عن وجود البارى تعالى ، فقال لهم : دعونى فإنى مفكر فى أمْرٍ قد أخبرت عنه ، ذكروا لى أن سفينة فى البحر موقَرة فيها أنواعٌ من المتاجر ، وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها ، وهى مع ذلك تذهب وتجىء وتسير بنفسها ، وتخترق الأمواجَ العِظَام حتى تتخلّص منها ، وتسير حيث شاءت بنفسها من غَيْرِ أنْ يسوقها أحد .

فقالوا : هذا شىء لا يقوله عاقل . فقال : ويحكم ! هذه الموجوداتُ بما فيها من العالم العلوى والسفلى ، وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانعٌ . فبُهِت القوم ، ورجعوا إلى الحق ، وأسلموا على يديه .

(١) من هنا ليس فى ز .

وعن الشافعى أنه سئل عن وجود الصانع ، فقال : هذا ورق التوت طعْمُه واحد ، تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم ، وتأكله النحل فيخرج منه العَسل ، وتأكله الشاةُ والبقر والأنعام فتلقيه بَعَرا وَرَوْثا ، وتأكله الظِّباء فيخرج منه المسك ، وهو شىء واحد .

وعن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عن ذلك ، فقال : هاهنا حِصْنٌ حصين أملس ، ليس له باب ولا مَنْفذ ، ظاهرُه كالفضة البيضاء ، وباطنُه كالذهب الإبريز ؛ فبينا هو كذلك إذ انصدع جداره ، فخرج منه حيوان سميع بصير ، ذو شكل حسن وصوت مَليح ــ يعنى بذلك البيضة إذا خرج منها الدجاجة .

وسئل أبو نواس عن ذلك ، فأنشد[1] :

تأمّل فى نبات الأرضِ وانْظُرْ   إلى آثار ما صنع المليكُ
عيون من لُجَيْن شاخصات   بأحداق هى الذهَبُ السَّبِيك
على قُضب الزبرجد شاهدات   بأنَّ اللهَ ليس له شريكُ

وقال ابن المعتز[2] :

فيا عجبا كيف يعصى الإلــه   أم كيف يجحده الجاحدُ
وفى كل شىء له آيةٌ   تدلُّ على أنه واحدُ

وقال آخرون : مَنْ تأمَّل هذه السموات فى ارتفاعها واتساعها ، وما فيها من الكواكب الكبار والصغار النيِّرة من السيارة ومن الثوابت ، وشاهدَها كيف تَدُور مع الفلك العظيم فى كل يوم وليلة دويرة ، ولها فى أنفسها سير يخصُّها ، ونظر إلى البحار المكتنفة للأرض من كلّ جانب ، والجبال الموضوعة فى الأرض لتقرّ

(١) لم أقف عليه فى ديوانه .
(٢) ولم أعثر عليهما فى ديوانه . والبيت الثانى فى المحتسب ١ ــ ١٥٣ منسوبا إلى أبى العتاهية .

ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها ، كما قال تعالى[(١)] : (ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحُمْر مختلفٌ ألوانها وغَرَابِيب سُود . ومن الناس والدوابّ والأنعام مختلفٌ ألوانه كذلك إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء) .

وكذلك هذه الأنهار السارحة من قُطْر إلى قطر المنافع ؛ وما ذَرأ فى الأرض من الحيوانات المتنوعة ، والنبات المختلف الطعوم والأرابيح والأشكال ، مع اتحاد طبيعة التُّربة والماء ، استدلَّ على وجود الصانع ، وقدرته العظيمة ، وحِكْمته ، ورحمته ولُطْفه بهم ، وإحسانه إليهم ، وبرّه بهم ، لا إله غيره ، ولا رَبَّ سواه ، عليه توكلت وإليه أنيب .

والآيات فى القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جدًّا][(٢)] .

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) . فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا [٤٦] وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) ﴾ .

ثم شرع تعالى فى تقرير النبوّة بعد أن قرّر أنه لا إله إلا هو ؛ فقال مخاطبا للكافرين : (وإن كُنْتُم فى رَيْب مما نزّلنا على عَبْدنا) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم — فأتوا بسورة من مِثْلِ ما جاء به إنْ زعمتُم أنه مِنْ عند غير الله ، فعارِضُوه بمثل ما جاء به ، واستعينوا على ذلك بمَنْ شئتم من دون الله ، فإنكم لا تستطيعون ذلك .

(١) سورة فاطر ؛ آية ٢٧ ، ٢٨ ، وجدد : طرائق مختلفة الألون ، وغرابيب : شديدة السواد . وإذا قيل : غرابيب سود يجعل السود بدلا من غرابيب (المعجم) .

(٢) إلى هنا ساقط فى ز .

قال ابن عباس : شهداءكم : أعوانكم .

وقال السُّدِّى ـ عن أبى مالك : شركاءكم [١]؛ [أى قوما آخرين يساعدونكم على ذلك ؛ أى استعينوا بآلهتكم فى ذلك يمدُّونكم وينصرونكم] [١] .

وقال مجاهد : وادعوا شهداءكم ، قال : ناس يشهدون به [١]؛ [يعنى حكام الفصحاء] [١] .

وقد تحدَّاهم الله تعالى بهذا فى غير موضع من القرآن ، فقال فى سورة القصص [٢] : (قل فأتوا بكتابٍ من عند الله هو أَهْدَى منهما أَتَّبِعْهُ إنْ كُنْتُمْ صادقين) .

وقال فى سورة سبحان [٣] : (قل لئن اجتمعت الإنْسُ والجِنُّ عَلَى أَنْ يأْتُوا بمثلِ هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظَهِيرا) .

وقال فى سورة هود [٤] : (أم يقولون افْتَرَاه قل فأْتُوا بعَشْرِ سُوَرٍ مثله مُفْتَرَيات وادْعُوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) .

وقال فى سورة يونس [٥] : (وما كان هذا القرآنُ أن يُفْتَرَى من دون الله ولكن تصديقَ الذى بين يديه وتفصيلَ الكتابِ لا رَيْبَ فيه من رب العالمين . أم يقولونَ افتراه قُلْ فأتوا بسورة مثله وادْعُوا مَنِ استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) .

وكلُّ هذه الآيات مكية .

ثم تحدَّاهم بذلك أيضاً فى المدينة ؛ فقال فى هذه الآية : (وإن كُنْتُمْ فى ريب) ، أى شكٍّ ـ (مما نزَّلنا عَلَى عبْدنا) ؛ يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم ـ (فأْتُوا بسورة

(١) ما بين القوسين ليس فى ز .
(٢) سورة القصص ، آية ٤٩
(٣) سورة الإسراء ، آية ٨٨
(٤) سورة هود ، آية ١٣ ، افتراه : اختلقه .
(٥) سورة يونس ، آية ٣٧ ، ٣٨

من مثله) : يعنى من مِثْلِ القرآن ؛ قاله مجاهــــد ، وقتادة ، واختاره ابن جرير [(١) الطبرى(٢) ، والزمخشرى ، والرازى ، ونقله عن عمر، وابن مسعود، وابن عباس، والحسن البصرى ، وأكثر المحققين ؛ ورجّح ذلك بوجوه ؛ من أحسنها أنه تحدّاهم كلهم متفرقين ومجتمعين، سواء فى ذلك أمِّيهم وكتابيهم ؛ وذلك أكملُ فى التحدّى؛ وأشملُ من أنْ يتحدّى آحادهم الأميين ممن لا يكتب ولا يعانى شيئاً من العلوم](٣)، وبدليل قوله تعالى(٤): (فأتوا بعَشْر سُوَرٍ مِثله) . وقوله(٥) : (لا يَأْتُونَ بمثله) .

وقال بعضهم : مِنْ مِثْلِ محمد صلى الله عليه وسلم ، يعنى من رجل أمىٍّ مثله .

والصحيح الأول ؛ لأنّ التحدّى عام لهم كلِّهم ، مع أنهم أفصح الأمم ، وقد تحدّاهم بهذا فى مكة والمدينة مراتٍ عديدةً مع شــدة عداوتهم له ، وبُغْضهم لدينه ، ومع هذا عجزوا عن ذلك ؛ ولهذا قال تعالى : (فإنْ لم تفعلوا ولن تفْعلوا) ، ولنْ لنفى التأبيد(٦) [فى المستقبل](٦) ؛ أى : ولن تفعلوا ذلك أبدا .

وهذه أيضاً معجزةٌ أخرى ، وهو أنه أخبر(٦) [خبرا جازما قاطعا مُقْدِما غــير خائف ولا مشفق](٦) أنَّ هذا القرآنَ لا يُعارَض بمثــله أبد(٧) [الآبدين ودَهْر الداهرين](٨)؛ وكذلك وقع الأمْرُ ، لم يعارَضْ من لدنه إلى زماننا هذا ، ولا يمكن؛ وأنَّى يتأتَّى ذلك لأحَدٍ والقرآنُ كلام الله خالقِ كل شئ ؟ وكيف يشبه كلامَ الخالق كلامُ المخلوقين .

(٨)[ومَنْ تدبَّرَ القرآنَ وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونا ظاهرة وخفية، من حيث اللفظ ، ومن جهة المعنى ؛ قال الله تعالى(٩) : (الر كتاب أُحْكِمَتْ آياته ثم فُصِّلَتْ

---

(١) من هنا ليس فى ز .
(٢) تفسير الطبرى : ١ – ١٢٨
(٣) إلى هنا ليس فى ز .
(٤) سورة هود ، آية ١٣
(٥) سورة الإسراء ، آية ٨٨
(٦) ليس فى ز .
(٧) فى ز : أبدا .
(٨) من هنا ليس فى ز .
(٩) سورة هود ، آية ١

من لَدُنْ حكيم خَبِير) ؛ فأحكمت ألفاظُه ، وفصّلت معانيه ، أو بالعكس على الخلاف ؛ فكلٌّ من لفظه ومعناه فصيح لا يحاذَى ولا يُدَانَى ؛ فقد أخبر عن مُغَيبات ماضيةٍ، وكانت ووقعت طِبْقَ ما أخبر سواء بسواء ، وأمر بكل خير، ونهى عن كل شر ؛ كما قال تعالى [1] : (وتمت كلمةُ ربِّك صِدْقا وعَدْلا) ؛ أى صدقا فى الأخبار ، وعَدْلا فى الأحكام ؛ فكلُّه حق وصدق ، وعدل وهدى ، ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء ، كما يوجد فى أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التى لا يَحْسُنُ شعرُهم إلا بها ؛ كما قيل فى الشعر : إنَّ أَعْذَبه أكذبه .

وتجد القصيدةَ الطويلةَ المديدة قد استعمل غالبها فى وصف النساء ، أو الخيل ، أو الخمر ، أو فى مَدْح شخص معين ، أو فرس ، أو ناقة ، أو حرب ، أو كائنة ، أو مخافة ، أو سبُع ، أو شىء من المشاهدات المتعيّنة التى لا تفيد شيئاً إلا قدرةَ المتكلم المعين على الشىء الخفىّ أو الدقيق ، أو إبرازه إلى الشىء الواضح . ثم تجد له فيه بيتاً أو بيتين أو أكثر هى بيوتُ القصيد ، وسائرُها هذَر لا طائل تحته .

وأما القرآن فجميعُه فصيح فى غاية نهايات البلاغة عند مَنْ يعرف ذلك تفصيلا وإجمالا ممن فَهِم كلام العرب وتصاريف التعبير ؛ فإنه إنْ تأملت أخبارَه وجدتَها فى غاية الحلاوة ، سواء كانت مبسوطة أو وجيزة ، وسواء تكررت أم لا ؛ وكلما تكرّر حَلَا وعلا ، لا يَخْلَق عن كَثْرةِ الردّ ، ولا يملّ منه العلماء ؛ وإن أخذ فى الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعرُّ منه الجبالُ الصمُّ الراسياتُ ؛ فما ظنك بالقلوب الفاهمات ؛ وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان، ويشوق إلى دار السلام ، ومجاورة عرش الرحمن ؛ كما قال فى الترغيب [2] : (فلا تعلم نفسٌ ما أُخْفِيَ لهم من قرة أعين

---

(١) سورة الأنعام ، آية ١١٥ (٢) سورة السجدة ، آية ١٧

جزاء بما كانوا يعملون) ﴾ وقال[١] : (وفيها ما تشتهيه الأنفسُ وتلذُّ الأعينُ وأنتم فيها خالدون) .

وقال فى الترهيب[٢] : (أفأمنتم أنْ يخسف بكم جانبَ البرّ) . ([٣] أأمنتم مَنْ فى السماء أنْ يَخْسِفَ بكم الأرضَ فإذا هى تمورُ . أم أمنتم مَنْ فى السماء أنْ يُرْسِلَ عليكم حاصبًا فستعلمون كيفَ نَذِير) .

وقال فى الزجر[٤] : (فكلًّا أخذْنَا بذَنْبه) .

وقال فى الوعظ[٥] : (أفرأيتَ إنْ متَّعناهم سنين . ثم جاءهم ما كانوا يُوعَدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يُمَتَّعون) .

إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة .

وإن جاءت الآياتُ فى الأحكام والأوامر والنواهى اشتملت على الأمرِ بكل معروف حسَن نافع طيب محبوب ؛ والنهى عن كل قبيح رذيل دنىء ؛ كما قال ابن مسعود وغيره من السلف : إذا سمعْتَ اللهَ تعالى يقول فى القرآن : (يأيها الذين آمنوا) فأرْعِها سَمْعك ، فإنها خير يأمر به ، أو شرٌّ ينهى عنه ؛ ولهذا قال تعالى[٦] : (يأمرُهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحلُّ لهم الطيبات ، ويحرِّم عليهم الخبائث ، ويضَعُ عنهم إصْرَهم والأغلالَ التى كانت عليهم ...) الآية .

وإن جاءت الآيات فى وصف المعاد وما فيه من الأهوال ، وفى وصف الجنة

---

(١) سورة الزخرف ، آية ٧١ (٢) سورة الإسراء ، آية ٦٨

(٣) سورة الملك ، آية ١٦ ، ١٧ . تمور : مار الشىء : تحرك وذهب وجاء . الحاصب : الريح المهلكة بالحصى أو غيره .

(٤) سورة العنكبوت ، آية ٤٠ (٥) سورة الشعراء ، آية ٢٠٥ – ٢٠٧

(٦) سورة الأعراف ، آية ١٥٧ . إصرهم ؛ أى التكاليف الشاقة .

والنار ، وما أعدّ الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذّ والعذاب الأليم - بشّرت به ، وحذّرت وأنذرت ؛ ودَعَتْ إلى فعل الخيرات ، واجتناب المنكرات ، وزهّدت فى الدنيا ، ورغّبت فى الأخرى ، وثبّتت على الطريقة المُثْلى ، وهدَتْ إلى صراط الله المستقيم ، وشَرْعه القويم ، ونفَتْ عن القلوب رِجْس الشيطان الرجيم](١).

ولهذا ثبت فى الصحيحين ، عن أبى هريرة رضى الله عنه - أنّ رسولَ الله ﷺ - قال(٢) : «ما مِنْ نبى(٣) من الأنبياء إلا قد أُعْطِىَ من الآيات ما آمَن على مثله البَشَر ، وإنما كان الذى أوتيته وَحْيا أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » - لفظ مسلم(٢) .

وقوله ﷺ : وإنما كان الذى أُوتيتُه وَحْيا ؛ أى الذى اختصصت به من بينهم هذا القرآن المُعْجز للبشر أن يعارضوه ، بخلاف غيره من الكتب الإلهية فإنها ليست معجزة (٤)[عند كثير من العلماء](٤) . والله أعلم .

وله عليه الصلاة والسلام مِن الآيات الدالّة على نبوته وصِدْقه فيما جاء به ما لا يدخلُ تحت حصر . ولله الحمد والمنة .

(٤)[وقد قرر بعضُ المتكلمين الإعجازَ بطريق يشمل قولَ أهل السنة وقولَ المعتزلة فى الصَّرْفة ؛ فقال : إن كان هذا القرآن مُعْجِزا فى نفسه لا يستطيع البشَر الإتيانَ بمثله ، ولا فى قُواهم معارضَته ، فقد حصل المدَّعى وهو المطلوب . وإنْ كان فى إمكانهم معارضته بمثله ، ولم يفعلوا ذلك ، مع شدّةِ عداوتهم له ، كان ذلك دليلا على أنه مِنْ عند الله لصَرْفِه إياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك . وهذه الطريقة ، وإن لم

(١) إلى هنا كله ليس فى ز . (٢) صحيح مسلم : ١٣٤
(٣) فى صحيح مسلم : ما من الأنبياء من نبى . . .
(٤) ليس فى ز .

تكنْ مرضيةً ؛ لأنّ القرآنَ فى نفسه معجز ، لايستطيع البشر معارضَته كما قررنا ، إلا أنها تصلُح على سبيل التنزّل والمجادلة ، والمنافحة عن الحق ؛ وبهذه الطريقة أجاب الرازى فى تفسيره عن سؤاله فى السور القِصَار كالعصر ، وإنا أعطيناك الكوثر][1].

وقوله تعالى:(فاتّقُوا النارَ التى وَقودُها الناسُ والحِجارة أُعِدّت للكافرين) : أمّا الوَقود ـ بفتح الواو ـ فهو ما يُلْقَى فى النار لإضرامها ، كالحطب ونحوه ، كما قال تعالى[2] : (وأمّا القاسِطُون فكانوا لجهنم حَطَبا) . وقال تعالى[3] : (إنكم وما تعبُدونَ من دون الله حَصَبُ جهنّمَ أنتم لها وَارِدون . لو كان هؤلاء آلهةً ماوردُوها وكلٌّ فيها خالدون) .

والمراد بالحجارة هاهنا هى حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المنتنة ، وهى أشدُّ الأحجار حَرّا إذا حميت ، أجارنا الله منها .

وقال عبْد الملك بن مَيْسرة الزراد ، عن عبد الرحمن بن سابط ، عن عمرو ابن ميمون ، عن عبد الله بن مسعود ـ فى قوله تعالى : (وَقُودها الناس والحجارة)؛ قال : هى حجارة من كبريت خلقها اللهُ يوم خلَق السمواتِ والأرضَ فى السماء الدنيا يُعِدّها للكافرين .

رواه ابن جرير[4] ؛ وهذا لفظه ، وابن أبى حاتم ، والحاكم فى مستدركه ؛ وقال : على شرط الشيخين .

---

(١) ليس فى ز .
(٢) سورة الجن ، آية ١٥ . القاسطون : قسط : جار ، أو حاد عن الحق ، فهو قاسط ، أى ظالم ، وجمعه قاسطون .
(٣) سورة الأنبياء ، آية ٩٨ ، ٩٩
(٤) تفسير الطبرى : ١ ـ ١٣١

وقال السدّى فى تفسيره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ؛ وعن مُرّة ، عن ابن مسعود ؛ وعن ناس من الصحابة : اتقُوا النارَ التى وقودها الناس والحجارة ؛ أما الحجارةُ فهى حجارةٌ فى النار من كبريت أسود يعذَّبون به مع النار .

وقال مجاهد : حجارة من كبريت أنْتَن من الجيفة .

وقال أبو جعفر محمد بن على : حجارة من كبريت .

وقال ابن جُريج : حجارة من كبريت أسود فى النار .

قال لى عمرو بن دينار : أصلب من هذه الحجارة وأعظم .

[(١) وقيل : المراد بها حجارةُ الأصنام والأنداد التى كانت تُعْبَد من دون الله ، كما قال تعالى(٢) : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصَبُ جهنم . . .) الآية ، حكاه القرطبى(٣) ، والرازى ، ورجّحه على الأول ؛ قال : لأنّ أخْذَ النار فى حجارة الكبريت ليس بمستنكر ، فجَعْلها هذه الحجارة أولى .

وهذا الذى قاله ليس بقوى ؛ وذلك أنّ النارَ إذا أُضرمت بحجارة الكبريت كان ذلك أشدّ لحرها ، وأقوى لسعيرها ، ولا سيما على ما ذكره السلف من أنها حجارةٌ من كبريتٍ مَعَدّة لذلك ؛ ثم إن أخْذَ النار بهذه الحجارة أيضا مشاهَدٌ ؛ وهذا الجصّ يكون أحجارا ، فيعمل فيه بالنار حتى يصير كذلك . وكذلك سائر الأحجار تفخرها النار وتحرقها ؛ وإنما سِيق هذا فى حرّ النار التى وعدوا بها وشدة ضرامها وقوة لهبها ؛ كما قال تعالى(٤) : (كلما خبت زِدْناهم سَعِيرا) .

(١) ليس فى ز .
(٢) سورة الأنبياء ، آية ٩٨ ، ٩٩
(٣) تفسير القرطبى : ١ ـ ٢٣٥
(٤) سورة الإسراء ، آية ٩٧

وهكذا[١] رجّحَ القرطبى أنَّ المراد بها الحجارة التى تسعّر بها النار لتحمرّ ويشتد لهبها ؛ قال : ليكون ذلك أشدَّ عذابا لأهلها .

قال : وقد جاء فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال[٢] : « كل مؤذٍ فى النار ». وهذا الحديث ليس بمحفوظ ولا معروف ؛ ثم قال القرطبى[٢] : وقد فُسِّر بمعنيين : أحدهما ـ أن كلَّ من آذى الناس دخل النار . والآخر أن كلَّ ما يؤذى فى النار يتأذّى به أهلُها من السباع والهوام وغير ذلك][٣] .

وقوله تعالى : (أُعِدَّتْ للكافرين) : الأظهر أنَّ الضمير فى « أُعِدَّتْ » عائد إلى النار التى وقودها الناس والحجارة . ويحتمل عَوْدُه إلى الحجارة، كما قال ابن مسعود . ولا منافاةَ بين القولين فى المعنى ؛ لأنهما متلازمان .

و(أُعِدَّت): أى أُرصدت وحصلت للكافرين بالله ورسوله، كما قال ابن إسحاق، عن محمد ، عن عِكْرِمة أو سعيد بن جُبَير ، عن ابنِ عباس : (أُعِدَّت للكافرين)؛ أى لمن كان على مِثْل ما أنتم عليه من الكفر[٤] .[٥][وقد استدلَّ كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أنَّ النارَ موجودة الآن ، لقوله تعالى : (أُعِدَّت) ؛ أى أرصدت وهُيِّئت ، وقد وردت أحاديثُ كثيرة فى ذلك منها[٦] : « تحاجَّت الجنةُ والنار ». ومنها[٧] : « استأذنت النارُ ربَّها فقالت: ربِّ أ كلَ بعضى بعضا، فأذِن لها بنفَسين: نفس فى الشتاء ونفس فى الصيف » . وحديث ابن مسعود[٨] : سمعنا وَجْبةً ، فقلنا :

(١) تفسير القرطبى : ١ ـ ٢٣٥ (٢) تفسير القرطبى : ١ ـ ٢٣٦
(٣) إلى هنا ليس فى ز . (٤) والدر المنثور : ١ ـ ٣٦ (٥) من هنا ليس فى ز .
(٦) صحيح البخارى : ٦ ـ ١٧٣ ، وتفسير القرطبى : ١ ـ ٢٣٧
(٧) صحيح مسلم : ٤٣٢ ، وتفسير القرطبى : ١ ـ ٢٣٦
(٨) صحيح مسلم : ٢١٨ ، هذا ، وراوى الحديث فى صحيح مسلم هو أبو هريرة .

ما هذه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هذا حَجر ألقى به من شَفير جهنم منذ سبعين سنة الآن وصل إلى قعرها ». وهو عند مسلم، وحديث صلاة الكسوف، وليلة الإسراء[١]، وغير ذلك من الأحاديث المتواترة في هذا المعنى . وقد خالفت المعتزلةُ بجهلهم في هذا، ووافقهم القاضي مُنْذر بن سعيد البلّوطي قاضي الأندلس .

تنبيه ينبغي الوقوف عليه

قوله تعالى : (فأتوا بسُورة مِنْ مثله) . وقوله في سورة يونس[٢] : (بسورة مثله) يعمُّ كلَّ سورةٍ في القرآن طويلة كانت أو قصيرة ؛ لأنها نكرة في سياق الشرط فتعمّ ، كما هي في سياق النفي عند المحققين من الأصوليين ، كما هو مقرر في موضعه ؛ فالإعجازُ حاصل في طوال السور وقِصَارها ؛ وهذا ما لا أعلم فيه نزاعا بين الناس سلَفا وخلفا .

وقد قال الرازي في تفسيره : فإنْ قيل : قوله تعالى : (فأتوا بسورة مِن مثله) يتناول سورةَ الكوثر، وسورة العصر، وقل يأيها الكافرون ؛ ونحن نعلم بالضرورة أنَّ الإتيانَ بمثله ، أو بما يقرب منه ممكن .

فإن قلتم : إن الإتيانَ بمثل هذه السور خارج عن مقدار البشر كان مكابرةً ، والإقدام على هذه المكابرات مما يطرق بالتهمة إلى الدين .

قلنا : فلهذا السبب اخترنا الطريقَ الثاني ، وقلنا : إنْ بلغت هذه السورة في الفصاحة حدَّ الإعجازِ فقد حصل المقصودُ ؛ وإن لم يكن كذلك كان امتناعُهم من المعارضة مع شدّةِ دواعيهم إلى تَهْوِين أمره معجزا ؛ فعلى التقديرين يحصلُ المعجز . هذا لفظه بحروفه .

---

(١) في ب : الأسرى . (٢) سورة يونس ، آية ٣٨

والصوابُ أنّ كل سورة من القرآن معجزة ، لا يستطيع البشر معارضتها طويلةً كانت أو قصيرة .

قال الشافعي رحمه الله : لو تدبَّر الناسُ هذه السورة لكفتهم : [1](والعَصْر . إنَّ الإنسان لفى خُسْر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصَوْا بالحقّ وتَوَاصَوْا بالصبر) .

وقد روَينا عن عمرو بن العاص أنه وفد على مُسَيْلِمة الكذاب قبل أنْ يُسلِم، فقال له مسيلمة : ماذا أُنزل على صاحبكم بمكة فى هذا الحين ؟ فقال له عمرو : لقد أُنزل عليه سورة وَجيزة بليغة . فقال : وما هى ؟ فقال : (والعَصْرِ . إنّ الإنسانَ لفى خُسْر) ؛ ففكَّر ساعةً ، ثم رفع رأسه ، فقال : ولقد أُنزل علىّ مثلها ؛ فقال : وما هو ؟ فقال : يا وَبْر . يا وَبْر ، إنما أنت أذنان وصَدْر ، وسائرك حقر فقر ، ثم قال : كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله إنكَ لتعلم أنى لأَعلم أنكَ تكذِبُ][2] .

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى [٤٧] مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ (٢٥) ﴾ .

لما ذكر تعالى ما أعدَّه لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرُسله من العذاب والنَّكال عطَفَ بذِكْرِ[3] حالِ أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله الذين صدقوا إيمانَهم بأعمالهم الصالحة ؛ وهذا معنى تسمية القرآن مَثَانِى على أصحِّ أقوال العلماء ؛ كما سنبسطه فى موضعه ؛ وهو أنْ يذكر الإيمانَ ويتبع بذكر الكفر أو عكسه ، أو حال السعداء ، ثم الأشقياء ، أو عكسه .

---

(١) سورة العصر ، آية ١ ـ ٣ (٢) إلى هنا ليس فى ز . (٣) فى ب : يذكر حال ...

وحاصله ذِكْرُ الشيء ومقابله.

وأما ذِكْرُ الشيء ونظيره فذاك التشابُه، كما سنوضحه إن شاء الله؛ فلهذا قال تعالى: (وبَشِّر الذين آمَنُوا وعملوا الصالحات أنَّ لهم جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار)؛ فوصفها بأنها تجرى من تحتها الأنهار، [(1) كما وصف النـــار بأن وقودها الناس والحجارة. ومعنى تجرى من تحتها الأنهار:](1)؛ أى من تحت أشجارها وغُرفها.

وقد جاء فى الحديث(2) أنّ أنهارها تَجْرى فى غير أُخدود. وجاء فى الكوثر أنّ حافتيه قِبَابُ اللؤلؤ المجوّف؛ ولا منافاة بينهما؛ فطينُها المسك الأَذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والجوهر، نسأل الله من فضله إنه هو البَرّ الرحيم.

وقال ابن أبى حاتم: قرأ علىَّ الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا أبو ثَوْبان، عن عطاء بن قُرة، عن عبد الله بن ضَمْرة، عن أبى هريرة؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ(3): «أنهارُ الجنة تفجّر من تحت تلال، أو من تحت جِبَال المسك».

وقال أيضاً: حدثنا أبو سعيد، حدثنا وَكيع، عن الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق؛ قال: قال عبد الله(3): أنهار الجنة تفجر من جَبَلِ مِسك.

وقوله تعالى: (كلما رُزقوا منها من ثمرة رِزْقا قالوا هذا الذى رُزِقْنا من قبل): قال السدى فى تفسيره، عن أَبى مالك؛ وعن أبى صالح، عن ابن عباس؛ وعن مُرّة، عن ابن مسعود؛ وعن ناس من الصحابة؛ قالوا(2): هذا الذى رُزقنا من قبل؛ قال: إنهم أُتوا بالثمرة فى الجنة، فلما نظروا إليها قالوا: هذا الذى رُزقنا من قبل فى الدنيا.

وهكذا قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلَم، ونَصَره ابن جرير(4).

---

(1) من ا، ز.
(2) والدر المنثور: ١ – ٣٨
(3) والدر المنثور: ١ – ٣٧
(4) تفسير الطبرى: ١ – ١٣٣

وقال عِكْرِمة : (قالوا هذا الذى رُزقنا من قَبْل) ؛ قال : معناه مثل الذى كان بالأمس[1] . وكذا قال الربيع بن أنس .

وقال مجاهد : يقولون : ما أشبهه به[1] .

قال ابن جرير[2] : وقال آخرون : بل تأويلُ ذلك الذى رُزقنا من قبل [من][3] ثمار الجنة من قبل هذا ، لشدة مشابهة بعضه بعضا ؛ لقوله تعالى : (وأُتُوا به مُتَشابِهاً) ؛ قال سُنَيد بن داود : حدثنا شيخٌ من أهل المصّيصة ، عن الأوزاعى ، عن يحيى بن أبى كثير ؛ قال[2] : يؤتى أحَدُهم بالصحفة من الشىء ، فيأكل منها ، ثم يُؤْتَى بأخرى ، فيقول : هذا الذى أتينا به من قَبْل ، فتقول الملائكةُ : كُلْ ، فاللونُ واحد ، والطعم مختلف .

وقال ابنُ أبى حاتم : حدثنا أبىّ ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا عامر بن يَساف ، عن يحيى بن أبى كثير ، قال : عُشْب الجنة الزعفران ، وكثبانها المسك ، ويطوفُ عليهم الولدان بالفواكه ، فيأكلونها ، ثم يؤتون بمثلها ؛ فيقول لهم أهلُ الجنة : هذا الذى أُتيتمونا آنفا به ؛ فتقول لهم الولدان : كلُوا فاللونُ واحد ، والطعم مختلف ؛ وهو قول الله تعالى : (وأُتُوا به مُتَشابِها) .

وقال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية : (وأُتُوا به متشابها) : قال : يُشْبِهُ بعضُه بعضا ، ويختلف فى الطعم .

قال ابنُ أبى حاتم : ورُوى عن مجاهد ، والربيع بن أنس ، والسدّى ، نحو ذلك .

وقال ابن جرير[2] بإسناده عن السدى فى تفسيره عن أبى مالك ، وعن

---

(١) والدر المنثور : ١ ـ ٣٨ (٢) تفسير الطبرى : ١ ـ ١٣٣

(٣) من تفسير الطبرى .

أبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن مُرّة عن ابن مسعود ؛ وعن ناس من الصحابة في قوله تعالى : (وأُتوا به متشابها) : يعني في اللون والمرأى ، وليس يشتبه في الطعم. وهذا اختيارُ ابْنِ جرير[1] .

وقال عِكْرِمة : (وأُتُوا به مُتَشابها) ، قال : يُشْبِه ثمر الدنيا ، غير أنّ ثمر الجنةِ أطيب .

وقال سفيان الثورى ، عن الأعمش ، عن أبي ظِبْيان ، عن ابن عباس : لا يشبه شيء مما في الجنة في الدنيا إلا في الأسماء .

وفي رواية : ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء ، ورَوَاه ابن[2] جرير من رواية الثورى ، وابن أبي حاتم ، من حديث أبي معاوية ، كلاهما عن الأعمش ، به .

وقال عبد الرحمن بن زَيْد بن أسلم - في قوله تعالى : (وأُتُوا به متشابها) ؛ قال: يعرفون أسماءه كما كانوا في الدنيا : التفاح بالتفاح ، والرمّان بالرمّان ، قالوا في الجنة : هذا الذى رُزِقنا من قبل في الدنيا ، وأُتوا به متشابها يعرفونه ، وليس هو مثله في الطعم .

وقوله تعالى : (ولهم فيها أزواجٌ مطَهَّرة) : قال ابن أبي طلحة ، عن ابن عباس: مطَهَّرة من القذَر والأذى .

وقال مجاهد : من الحيض والغائط، والبول والنخام والبُزَاق ، والمنيّ والولد .

وقال قتادة : مطهَّرة من الأذى والمأثم . وفي رواية عنه : لا حَيْضَ ولا كلف.

وروى عن عطاء ، والحسن ، والضحاك ، وأبي صالح ، وعطية ، والسدّى نحو [٤٨] ذلك .

---

(١) تفسير الطبرى : ١ - ١٣٥ (٢) تفسير الطبرى : ١ - ١٣٧

وقال ابنُ جرير[١] : حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، أنبأنا ابن وهب ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، قال : المطهرة التى لا تحيض ، قال[٢] : وكذلك خُلقت حوّاء عليها السلام ، فلما عصت[٣] قال الله تعالى : إنى خلقتك مطهّرة وسأُدْميك كما أدميتِ هذه الشجرة . وهذا غريب .

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدويه : حدثنا إبراهيم بن محمد ، حدثنى جعفر بن محمد ابن حرب ، وأحمد بن محمد الجورى[٤] ؛ قالا : حدثنا محمد بن عبيد الكندى ، حدثنا عبد الرزاق بن عمر البَزِيعى ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن أبى نَضْرة ، عن أبى سعيد ، عن النبى ﷺ فى قوله تعالى : (ولهم فيها أزواجٌ مطهّرة) ؛ قال : من الحيض والغائط ، والنخاعة والبُزَاق .

هذا حديث غريب . وقد رواه الحاكم فى مستدركه عن محمد بن يعقوب ، عن الحسن بن على بن عفان ، عن محمد بن عبيد ، به . وقال : صحيح على شرط الشيخين .

وهذا الذى ادّعاه فيه نظر ؛ فإن عبد الرزاق بن عمر البَزِيعى هذا قال فيه أبو حاتم ابن حبان البُستى : لا يجوز الاحتجاجُ به .

قلت : والأظهر أن هذا من كلام قتادة كما تقدم . والله أعلم .

وقوله تعالى : (وهم فيها خالدون) : هذا هو تمام السعادة ، فإنهم مع هذا النعيم فى مقام أمين من الموت والانقطاع ، فلا آخر له ، ولا انقضاء ؛ بل فى نعيم سَرْمَدِى أبدىّ على الدوام . والله المسئول أن يحشرنا فى زُمْرتهم ، إنه جواد كريم برّ رحيم .

---

(١) تفسير الطبرى : ١ – ١٣٧ (٢) فى تفسير الطبرى : قال ابن زيد ...

(٣) فى ز : حتى عصت . والمثبت فى تفسير الطبرى .

(٤) فى ب : الخوارمى . والمثبت فى ميزان الاعتدال : ١ – ١٣٣

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ (٢٦) . ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (٢٧) ﴾ .

قال السدّي فى تفسيره ، عن أبى مالك، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة : لما ضرب اللهُ هذين المثلين للمنافقين ـ يعنى قوله تعالى : (مثَلُهم كمثل الذى استوْقد نارا) ، وقوله : (أو كصيِّبٍ من السماء . . .) الآيات الثلاث ـ قال المنافقون : اللهُ أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال ؛ فأنزل اللهُ هذه الآية إلى قوله تعالى : (هم الخاسرون) .

وقال عبد الرزاق ، عن مَعْمر ، عن قَتادة : لما ذكر الله تعالى العنكبوت والذُّباب قال المشركون : مابالُ العنكبوت والذباب يذكران ؟ فأنزل الله:(إنَّ الله لايستحيي أن يَضْرِبَ مثلا ما بَعُوضةً فما فوقها) .

وقال سعيد ، عن قتادة : أى إنَّ الله لايستحيي من الحق أنْ يذكرَ شيئا ما قلّ أو كثر ، وإنّ الله حين ذكر فى كتابه الذبابَ والعنكبوتَ قال أهلُ الضلالة: ما أراد الله من ذكرِ هذا ! فأنزل الله:(إنالله لايستَحْيِي أنْ يضربَ مثلا ما بعوضة فما فوقها) .

قلت : العبارةُ الأولى عن قتادة فيها إشعار أنّ هذه الآيةَ مكية ، وليس كذلك ؛ وعبارة روايةِ سعيد عن قتادة أقرب . والله أعلم .

وروى ابنُ جُرَيج ، عن مجاهد نحو هذا الثانى عن قتادة .

وقال ابن أبى حاتم : رُوِىَ عن الحسن ، وإسماعيل بن أبى خالد نحوُ قول السدّى ، وقتادة .

وقال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس فى هذه الآية — قال : هذا مثلٌ ضربه اللهُ للدنيا أن البعوضة تحيا ما جاعت، فإذا سمنت ماتت ؛ وكذلك مثَلُ هؤلاء القوم الذين ضرب لهم المثل فى القرآن: إذا امتلئوا من الدنيا رِيًّا أخذهم اللهُ عند ذلك؛ ثم تلا[١] : (فلما نَسُوا ما ذُكِّرُوا به فتَحْنَا عليهم أبوابَ كلِّ شىء) .

هكذا رواه ابن جرير[٢] ، ورواه ابن أبى حاتم من حديث أبى جعفر ، عن الربيع [بن أنس][٣] ، عن أبى العالية بنحوه . فالله أعلم .

فهذا اختلافُهم فى سبب النزول .

وقد اختار ابنُ جرير[٢] ما حكاه السدّى ؛ لأنه أمسُّ بالسورة ؛ وهو مناسب .

ومعنى الآية أنه تعالى أخبر أنه لا يَسْتَحْيِى؛ أى لا يستنكف . وقيل: لايخشى، أنْ يَضْرِب مثلا ما ؛ أى أىَّ مثل كان بأى شىء كان صغيرا كان أو كبيرا .

و « ما » هاهنا للتقليل ، وتكون « بعوضة » منصوبة على البدل ، كما تقول : لأضربنّ ضَرْباً ما ؛ فيصدق بأدنى شىء ، [٣][أو تكون « ما » نكرة موصوفة ببعوضة][٣] .

واختار[٤] ابنُ جرير أنّ « ما » موصولة ، و « بعوضة » معربة بإعرابها ؛ قال : وذلك سائغ فى كلام العرب أنهم يعربون صلةَ «ما» ومَنْ بإعرابهما ؛ لأنهما يكونان معرفة تارةً ونكرة أخرى ، كما قال حسان بن ثابت[٤] :

---

(١) سورة الأنعام ، آية ٤٤ (٢) تفسير الطبرى : ١ — ١٣٨ (٣) ليس فى ز .
(٤) تفسير الطبرى : ١ — ١٤٠ ، ولم أقف عليه فى ديوانه .

وكفى [1] بنا فضلا على مَنْ غيرنا حبّ النبيّ محمد إيانا

قال : ويجوز أن تكونَ « بعوضة » منصوبة بحذف الجار ؛ وتقديرُ الكلام : إن الله لا يستحيي أنْ يضربَ مثلا ما بين بعوضة إلى ما فوقها . [وهذا الذى اختاره الكسائى والفراء .

وقرأ الضحاك [2]، وإبراهيم بن أبي عَبْلة « بعوضةٌ » - بالرفع . قال ابنُ جنى [2] : وتكون صلةً لما ، وحُذِف العائد ، كما فى قوله [3] : (تماماً علَى الذى أَحْسَنُ) ؛ أى على الذى هو أحسن .

وحكى سيبويه : ما أنا بالذى قائل لك شيئا ؛ أى بالذى هو قائل لك شيئا] [4].

وقوله تعالى : (فما فوقها) : فيه قولان :

أحدهما - فما دونها فى الصغر والحقارة ؛ كما إذا وُصف رجل باللؤم والشحّ ، فيقول السامع : نعم ، وهو فوق ذلك - يعنى فيما وصفت . [4][وهذا قولُ الكسائى ، وأبى عبيد ؛ قاله الرازى ، وأكثر المحققين .

وفى الحديث [5] : « لو أنّ الدنيا تَزِنُ عند الله جناحَ بعوضة لما سقى كافراً منها شَرْبَةَ ماء »] [4].

والثانى - فما فوقها : فما هو أكبر منها ؛ لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة ؛ [4][وهذا قول قَتادة بن دِعَامة ، و] [4] اختيارُ ابن جرير ؛ [4][فإنه يؤيِّده ما رواه مسلم عن عائشة رضى الله عنها - أن رسولَ الله ﷺ قال : « ما مِنْ مسلم يشاكُ شوكةً فما فوقها إلا كُتب له بها درجة ، ومُحيت عنه بها خطيئة »] [4]؛ فأخبر أنه لايستصغر

(١) فى ب : يكفى . (٢) فى المحتسب : ١ - ٦٤ (٣) سورة الأنعام ، آية ١٥٤ ، وقراءة حفص : أحسن - بفتح النون (٤) مابين القوسين ليس فى ا ، ز . (٥) صحيح مسلم : ١٩٩١

شيئاً يَضْرِب به مثلا ؛ ولو كان فى الحقَارةِ [٤٩] والصغر كالبعوضة ، [(١) وكما لا يستنكف عن خَلْقها ، كذلك لا يستنكف من ضَرْبِ المثل بها](١) ، كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت فى قوله(٢) : (يأيها الناس ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمِعُوا له إنّ الذين تَدْعُون من دون الله لن يَخْلُقوا ذُبابا ولو اجتمعوا له وإنْ يَسْلُبهم الذبابُ شيئاً لا يَسْتَنْقِذُوه منه ضَعُفَ الطالبُ والمطلوب) . وقال(٣) : (مَثَلُ الذين اتخذوا مِنْ دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذَتْ بيتاً وإنَّ أَوْهَنَ البيوتِ لبَيْتُ العنكبوت لو كانوا يعلمون) . وقال تعالى(٤) : (ألم تر كيفَ ضرب اللهُ مثلا كلمةً طيبةً كشجرة طيبةٍ أَصْلُها ثابتٌ وفَرْعُها فى السماء . تُؤْتى أُكُلَها كلَّ حين بإذْنِ ربِّها ويضربُ اللهُ الأمثالَ للناس لعلهم يتذكرون . ومثَلُ كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثة اجْتُثَّتْ من فوق الأرضِ ما لها من قَرَار . يثبِّتُ الله الذين آمَنُوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويُضِلُّ اللهُ الظالمين ويفعَلُ اللهُ ما يشاء) . وقال تعالى(٥) : (ضرب اللهُ مَثَلًا عَبْدًا مملوكاً لا يقْدِرُ على شىء...) الآية . ثم قال(٦) :(وضرب اللهُ مثلا رجلين أحدُهما أبْكَمُ لا يقدِرُ على شيء وهو كَلٌّ على مولاه أينما يوجِّهْه لا يأتِ بخير . هل يستوى هو ومَنْ يأمر بالعدل . . .) الآية . كما قال(٧) : (ضربَ لكم مثلًا من أنفسكم هل لكم ممّا ملكَتْ أيمانُكم مِنْ شركاء فيما رزقناكم . . .) الآية .

---

(١) مابين القوسين ليس ا ، ز .
(٢) سورة الحج ، آية ٧٣
(٣) سورة العنكبوت ، آية ٤١
(٤) سورة إبراهيم ، آية ٢٤ - ٢٦
(٥) سورة النحل ، آية ٧٥
(٦) سور النحل ، آية ٧٦ . الكل : من يعتمد على غيره فى معيشته .
(٧) سورة الروم ، آية ٢٨

وقال[١] : (ضربَ اللهُ مثلا رجلا فيه شركاء مُتَشاكِسُون ...) الآية .

وقال[٢] : (وتلك الأمثالُ نضربُها للناس وما يَعْقلها إلا العالِمُون) .

وفى القرآن أمثال كثيرة .

قال بعض السلف : إذا سمعْتُ المثلَ فى القرآن فلم أفهمه بكيتُ على نفسى ؛ لأن الله قال[٢] : (وتلك الأمثالُ نضربها للناس وما يَعْقِلها إلا العالمون) .

وقال مجاهد ـ فى قوله تعالى : (إنّ الله لايستَحْيِي أنْ يضربَ مثلا مابعوضةً فما فوقها) الأمثالُ صغيرها وكبيرها يؤمِنُ بها المؤمنون ، ويعلمون أنها الحقُّ من ربهم ، ويهديهم الله بها .

وقال قتادة : (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحقُّ من ربهم) ؛ أى يعلمون أنه كلامُ الرحمن ، وأنه من عند الله .

وروى عن مجاهد ، والحسن ، والربيع بن أنس ، نحو ذلك .

وقال أبو العالية : (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحقُّ من ربهم) ؛ يعنى هذا المثل ،(وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد اللهُ بهذا مثلا)؛ كما قال فى سورة المدثر[٣] : (وما جعلنا أصحابَ النارِ إلا ملائكةً وما جعلنا عِدَّتَهم إلّا فتنةً للذين كفروا ليستَيْقِنَ الذين أُوتوا الكتابَ ويَزْدادَ الذين آمنوا إيمانا ، ولا يرتابَ الذين أوتوا الكتابَ والمؤمنون، وليقولَ الذين فى قلوبهم مرَضٌ والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يُضِلُّ اللهُ من يشاء ويَهْدِى مَنْ يشاء وما يعلم جنودَ ربِّك إلا هُو) .

---

(١) سورة الزمر ، آية ٢٩ ـ تشاكس القوم : تعاسروا وتخالفوا ، فهم متشاكسون .
(٢) سورة العنكبوت ، آية ٤٣ (٣) سورة المدثر ، آية ٣١

وكذلك قال هاهنا : (يُضِلُّ به كثيراً ويَهْدِى به كثيراً ، وما يضلُّ به إلا الفاسقين) .

وقال السُّدِّى ـ فى تفسيره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مُرّة ، عن ابن مسعود ؛ وعن ناسٍ من الصحابة : يُضِلُّ به كثيراً ، يعنى [به][1] المنافقين ؛ ويهدى به كثيراً ، يعنى [به][1] المؤمنين ؛ فيزيد هؤلاء ضلالةً إلى ضلالتهم[2] ؛ لتكذيبهم بما قد علموه حقًّا يقينا من المَثَلِ الذى ضربه اللهُ بما ضرب لهم ، وأنه لما ضُرِب له موافق ، فذلك إضلالُ الله إياهم به . ويهدى به ـ يعنى المثل ـ كثيراً من أهل الإيمان والتصديق ؛ فيزيدهم هُدًى إلى هداهم ، وإيمانا إلى إيمانهم ؛ لتصديقهم بما قد علموه حقّا يقينا أنه موافق لما ضربه اللهُ له مثلا ، وإقرارهم به ؛ وذلك هدايةٌ من الله لهم به .

(وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين) . قال : هم المنافقون . وقال أبو العالية : (وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين) : قال هم أهلُ النفاق ، وكذا قال الربيع بن أنس .

وقال ابن جُرَيج ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : (وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين) ؛ قال : يقول يعرفُه الكافرون فيكفرون به .

وقال قتادة : (وما يضِلُّ به إلا الفاسقين) ؛ فَسَقوا ، فأضلّهم الله على فِسْقهم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا[3] أبى ، عن إسحاق بن سليمان ، عن أبى سِنَان ، عن عمرو بن مرة ، عن مُصْعب بن سعد ، عن سعد (يضِلُّ به كثيرا) ؛ يعنى الخوارج .

وقال شُعْبة ، عن عمرو بن مُرة ، عن مُصْعب بن سعد ، قال : سألت أبى ، فقلت :

---

(١) ليس فى ز (٢) فى ز : ضلالهم

(٣) فى ز : حدثت عن إسحاق .

قوله تعالى[١] : (الذين ينقضون عَهْدَ الله مِنْ بعد ميثاقه . . .) إلى آخر الآية ؛ فقال : هم الحَرُورية[٢] .

وهذا الإسنادُ وإن[٣] صحّ عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، فهو تفسير على المعنى ، لا أنَّ الآية أُريد منها التنصيص على الخوارج الذين خرجوا على علىّ بالنَّهْرَوان؛ فإنَّ أولئك لم يكونوا حالَ نزول الآية؛وإنما هم داخلون بوصفهم فيها مع مَنْ دخل؛لأنهم سُمُّوا خوارج ، لخروجهم عن طاعة الإمام،والقيام بشرائع الإسلام .

والفاسق فى اللغة : هو الخارج عن الطاعة أيضا . وتقول العرب : فَسَقَت الرطبة ، إذا خرجت من قِشْرتها ؛ ولهذا يقال للفأرة فُوَيسقة لخروجها عن جُحْرها [٥٠] للفساد .

وثبت فى الصحيحين عن عائشة ـ أنّ رسول الله ﷺ قال[٤] : « خمس فَوَاسق يُقْتلن فى الحلّ والحرم : الغراب ، والحدأة ، والعقرب، والفأرة، والكلب العَقُور»؛ فالفاسقُ يشمل الكافر والعاصى ، ولكن فسق الكافر أشدّ وأفحش ، والمراد به من الآية الفاسق الكافر ، والله أعلم ؛ بدليل أنه وصفَهم بقوله تعالى : (الذين يَنْقُضُونَ عَهْدَ الله من بعد ميثاقه ويَقْطَعُون ما أمر الله به أنْ يوصَل ويُفْسِدُونَ فى الأرض أولئك هم الخاسرون) .

وهذه الصفاتُ صفاتُ الكفار المباينة لصفات المؤمنين ، كما قال تعالى فى سورة الرعد[٥] : (أفمَنْ يعلمُ أنما أُنْزِلَ إليكَ من ربك الحقّ كمن هو أعمى إنما يتذكر

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٧ ، وسيأتى تفسيرها .

(٢) الحرورية ، نسبة إلى حروراء ، وهو موضع على ميلين من الكوفة كان أول اجتماع الخوارج به ، فنسبوا إليه (اللباب) .

(٣) فى ز : إن ـ بدون واو .

(٤) صحيح مسلم : ٨٥٦ ، ٨٥٧

(٥) سورة الرعد ، آية ١٩ ـ ٢١

أولو الألباب . الذين يُوفون بعهد الله ولا ينقُضونَ الميثاق . والذين يَصِلُون ما أمر الله به أن يُوصَل ويخشَوْنَ ربَّهم ويخافون سُوءَ الحساب...) الآيات - إلى أن قال[١] : (والذين يَنْقُضُونَ عَهْدَ الله مِنْ بعـد ميثاقه ويَقْطَعُون ما أمر اللهُ به أَنْ يُوصَلَ ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنةُ ولهم سوء الدار) .

وقد اختلف أهلُ التفسير فى معنى العَهْدِ الذى وُصف هؤلاء الفاسقين بنَقْضِه ؛ فقال بعضُهم : هو وصيةُ الله إلى خلقه ، وأَمْرُه إياهم بما أمرهم به من طاعته ، ونَهْيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته فى كتُبه وعلى لسان رُسله ؛ ونَقْضُهم ذلك: هو ترْكُهم العملَ به .

وقال آخرون : بل هى فى كفّار أهل الكتاب والمنافقين منهم ؛ وعَهْدُ الله الذى نقضوه هو ما أخذَه اللهُ عليهم فى التوراة من العمل بما فيها ، واتِّباع محمد ﷺ إذا بُعث ، والتصديق به وبما جاء به مِن عند ربهم ؛ ونَقْضُهم ذلك: هو جحودُهم به بعد معرفتهم بحقيقته ، وإنكارُهم ذلك ، وكِتْمانُهم عِلْمَ ذلك الناس بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاقَ ليبيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه؛ فأخبر تعالى أنهم نبذُوه وراءظهورهم، واشتروا به ثمنا قليلا .

وهذا اختيار ابن جرير[٢] رحمه الله ، و [هو][٣] قول مقاتل بن حيّان .

وقال آخرون : بل عنى بهذه الآية جميعَ أهْلِ الكفر والشِّرْك والنفاق . وعَهْدُه إلى جميعهم فى توحيده ما وضع لهم من الأدلة الدالّة على رُبوبيته ؛ وعَهْده إليهم فى أمره ونهيه ما احتجّ به لرسُله من المعجزات التى لا يقدرُ أحدٌ من الناس غيرهم أنْ يأتىَ بمثلها[٤] الشاهدة لهم على صدقهم ؛ قالوا : ونَقْضُهم ذلك ترْكُهم الإقرار بما قد تبيّنت

(١) سورة الرعد ، آية ٢٥ (٢) تفسير الطبرى : ١ - ١٤٣
(٣) ليس فى ز . (٤) فى ا ، ب : بمثله .

لهم صحته بالأدلة ، وتكذيبهم الرسلَ والكتب مع علمهم أنَّ ما أتوا به حق .

وروى عن مقاتل بن حيان [أيضا] [١] نحو هذا . وهو حسن . [٢] [وإليه مال الزمخشرى [٣] ؛ فإنه قال : فإن قلت : فما المراد بعهد الله ؟ قلت : ما ركز فى عقولهم من الحجة على التوحيد، كأنه أمر وصّاهم به ، ووثَّقه عليهم ؛ وهو معنى قوله تعالى [٤] : (وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم؟ قالوا : بلى) ، إذ أخذ الميثاق عليهم من الكتب المنزلة عليهم ، كقوله [٥] : (وأوفوا بعهدى أُوفِ بعهدكم)] [٢] .

وقال آخرون : العَهْدُ الذى ذكره تعالى : هو العَهْدُ الذى أخذه عليهم حين أخرجهم من صُلْب آدم الذى وصف فى قوله [٦] : (وإذْ أَخذ ربُّك من بنى آدمَ من ظهورهم ذرِّيَّتَهم وأَشْهَدَهُم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا : بلى شهدنا ...) الآيتين. ونَقْضُهم ذلك : تَرْكُهم الوفاء به .

وهكذا رُوى عن مقاتل بن حيان أيضا ، حكى هذه الأقوال ابنُ جرير [٧] فى تفسيره .

وقال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية - فى قوله تعالى : (الذين ينقضون عَهْدَ الله من بعد ميثاقه...) - إلى قوله : (أولئك هم الخاسرون) ؛ قال : هى ستُّ خصال من المنافقين ؛ إذا كانت فيهم الظَّهْرَة على الناس أظهروا هذه الخصال : إذا حدّثوا كذبوا ، وإذا وَعَدوا أخلفوا ، وإذا اؤتمنوا خانوا ، ونقَضُوا عَهْدَ الله من بعد ميثاقه ، وقطعوا ما أمر الله به أنْ يوصل ، وأفسدوا فى الأرض ؛ وإذا كانت الظَّهْرَة عليهم أظهروا الخصال الثلاث : إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا اؤتمنوا خانوا .

---

(١) ليس فى ز . (٢) مابين القوسين ليس فى ا ، ز . (٣) الكشاف : ١ - ٤٨
(٤) سورة الأعراف ، آية ١٧٢ (٥) سورة البقرة ، آية ٤٠
(٦) سورة الأعراف ، آية ١٧٢ (٧) فى تفسير الطبرى : ١ - ١٤٢ ، ١٤٣

وكذا قال الربيع بن أنس أيضا .

وقال السدى فى تفسيره بإسناده . قوله تعالى: (الذين ينقضون عَهْدَ الله من بعد ميثاقه) ؛ قال : هو ما عُهِد إليهم فى القرآن ، فأقرّوا به ، ثم كفروا فنقضوه .

وقوله : (ويقطعون ما أمر الله به أنْ يُوصل) : قيل المراد به صِلَة الأرحام والقرابات ، كما فسره قتادة ؛ كقوله تعالى[1] : (فهل عسيتم إنْ توليتم أَنْ تفْسِدُوا فى الأرض وتقطّعُوا أرحامكم) . ورجّحه ابن جرير .

وقيل: المراد أعمّ من ذلك؛ فكلّ ما أمر الله بوَصْله وفعله فقطعوه[2] وتركوه.

وقال مقاتل بن حيان ، فى قوله تعالى: (أولئكَ هم الخاسرون) ؛ قال:فى الآخرة. وهذا كما قال تعالى[3] : (أولئك لهم اللعنةُ ولهم سوء الدار) .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : كلّ شىء نسبه الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل « خاسر » فإنما يعنى به الكفر ، وما نسبه إلى أهل الإسلام فإنما يعنى به الذنب .

وقال ابن جرير[4] فى قوله تعالى : (أولئكَ هم الخاسرون) : الخاسرون جمع خاسر ، وهم الناقصون أنفسهم حظوظَهم بمعصيتهم الله من رحمته ، كما يخسر الرجل فى تجارته ، بأن يوضع من رأس ماله فى بَيْعه . وكذلك المنافق والكافر خسر بحرمان الله إياه رحمتَه التى خلقها لعباده فى القيامة أحوج ما كانوا إلى رحمته . يقال منه : خسر الرجل يخسر خَسْرًا وخُسْرانا وخَساراً ، كما قال جرير بن عطية[5] [٥١] :

إنّ سليطا فى الخسار إنه أولادُ قَوْم خلقوا أَقِنَّه

---

(١) سورة محمد ، آية ٢٢

(٢) فى ز : قطعوه .

(٣) سورة الرعد ، آية ٢٥

(٤) تفسير الطبرى : ١ – ١٤٥

(٥) تفسير الطبرى : ١ – ١٤٥ ، وديوانه : ٥٩٨

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) ﴾ .

يقول تعالى – محتجًّا على وجوده وقدرته ، وأنه الخالقُ المتصرِّف في عباده : (كيف تكفرون بالله) ؟ أي كيف تجْحدون وجودَه ، أو تعبدون معه غيره ؟ (وكنتم أمواتا فأحياكم) ؛ أي وقد كنتم عَدما فأخرجكم إلى الوجود ، كما قال تعالى[1] : (أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم خَلَقوا السموات والأرض ، بل لا يُوقنون) . وقال تعالى[2] : (هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكُنْ شيئا مَذْكوراً) . والآيات في هذا كثيرة .

وقال سفيان الثوري : عن أبي إسحاق ، عن أبي الأحوص ، عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه : ([3]قالوا ربنا أَمتَّنا اثنتين وأَحْيَيْتَنَا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا) ؛ قال : هي التي في البقرة : (وكنتم أمواتا فأحياكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم) .

وقال ابن جُريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس : كنتم أمواتا فأحياكم : أمواتا في أصلاب آبائكم ، لم تكونوا شيئا حتى خلقكم ، ثم يميتكم مَوْتةَ الحق ، ثم يحييكم حين يبعثكم ، قال : وهي مثلُ قوله تعالى[3] : (أمتَّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس ، في قوله تعالى[3] : (ربَّنا أمتَّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) ؛ قال : كنتم ترابا قبل أن يَخْلُقكم ، فهذه ميتة ؛ ثم أحياكم فخلقكم ، فهذه حياةٌ ؛ ثم يميتكم فترجعون إلى القبور ؛ فهذه ميتة أخرى ؛ ثم يبعثكم يوم القيامة

(١) سورة الطور ، آية ٣٥ ، ٣٦ (٢) سورة الإنسان ، آية ١

(٣) سورة غافر ، آية ١١

فهذه حياةٌ أخرى ؛ فهذه ميتتان وحياتان ؛ فهو كقوله : (كيف تكفرُون بالله وكنْتمُ أمواتا فأحيا كم ثم يميتكم ثم يحييكم) .

وهكذا رُوِى عن السدّى بسنده عن أبى مالك ؛ وعن أبى صالح، عن ابن عباس؛ وعن مرة ، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة ، وعن أبى العالية، والحسن[1]، ومجاهد ، وقتادة ، وأبى صالح ، والضحاك ، وعطاء الخراسانى نَحْوُ ذلك .

وقال الثورى ، عن السدى ، عن أبى صالح : (كيف تكفرون بالله وكنْتمُ أمواتا فأحياكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه تُرْجعون)؛ قال : يُحييكم فى القبر ، ثم يميتكم .

وقال ابن جرير[2]، عن يونس، عن ابن وَهْب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ قال : خلقهم فى ظَهْرِ آدم ، ثم أخذ عليهم الميثاق ، ثم أماتهم ، ثم خلقهم فى الأرحام ، ثم أماتهم ، ثم أحياهم يوم القيامة ؛ وذلك كقوله تعالى[3] : (قالوا ربَّنا أمتَّنا اثنتين وأحيَيْتنا اثنتين) . وهذا غريب ، والذى قبله .

والصحيح ماتقدّم عن ابن مسعود ، وابن عباس، وأولئك الجماعة من التابعين؛ وهو كقوله تعالى[4] : (قُلِ الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لارَيْبَ فيه . . .) الآية [٥ كما قال تعالى فى الأصنام[6] : (أمواتٌ غَيْرُ أحياء وما يشعرون...) الآية . وقال[7] : (وآية لهم الأرضُ الميتةُ أحييناها، وأَخْرَجْنَا منها حَبًّا فمنه يأكلون)]٥ .

(١) فى ز : والحسن البصرى .
(٢) تفسير الطبرى : ١ — ١٤٨
(٣) سورة غافر ، آية ١١
(٤) سورة الجاثية ، آية ٢٦
(٥) مابين القوسين ليس فى ز .
(٦) سورة النحل ، آية ٢١
(٧) سورة يس ، آية ٣٣

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٢٩) ﴾ .

لما ذكر تعالى دلالةً مِنْ خلقهم ، وما يشاهدونه من أنفسهم ، ذكر دليلا آخر مما يشاهدونه من خَلْقِ السموات والأرض ؛ فقال : (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسوّاهُنَّ سَبْعَ سموات) ؛ أى قصد إلى السماء . والاستواء هاهنا : مضمن[١] معنى القَصْد والإقبال؛ لأنه عدّى بإلى . فسواهن؛ أى فخلق السماء سَبْعا .

والسماء ها هنا : اسْمُ جنس ؛ فلهذا قال : (فسوّاهنّ سَبْعَ سموات ، وهو بكل شىء عليم) ؛ أى وعِلْمُه محيط بجميع ما خلق ؛ كما قال[٢] : (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خلق) .

وتفصيلُ هذه الآية فى سورة حم السجدة ؛ وهو قوله تعالى[٣] : (قل أئنكم لتكْفُرونَ بالذى خلق الأرضَ فى يومين ، وتجعلون له أنداداً ذلك رَبُّ العالمين . وجعل فيها رَوَاسِيَ من فوقها وبارَكَ فيها وقدَّرَ فيها أقواتَها فى أربعة أيام سواءً للسائلين . ثم اسْتَوى إلى السماء وهى دُخَان فقال لها وللأرضِ ائتيا طَوْعاً أو كَرْهاً قالتا : أَتينا طائعين . فقضاهُنَّ سَبْعَ سموات فى يومين وأَوْحى فى كلّ سماء أمْرَها وزيَّنا السماءَ الدنيا بمصابيح وحِفْظاً ، ذلك تقديرُ العزيز العليم) .

ففى هذه دلالةٌ على أنه تعالى ابتدأ بخَلْقِ الأرض أولا ، ثم خلق السموات سبعا ؛ وهذا شأنُ البناء أنْ يبدأ بعمارة أسافله ، ثم أعاليه بعد ذلك .

وقد صرح المفسرون بذلك ، كما سنذكره بعد هذا إن شاء الله .

---

(١) فى ز : تضمن . (٢) سورة الملك ، آية ١٤
(٣) سورة فصلت ، آية ٩ – ١٢

فأما قوله تعالى[١] : (أأنتم أشدُّ خَلْقا أم السماء بناها . رَفَع سَمْكَها فسوّاها . وأَغْطَش ليْلَها وأخرج ضُحاها. والأرضَ بعد ذلك دَحاها. أَخْرجَ منها ماءها ومَرْعاها. والجبالَ أرساها . متاعاً لكم ولأنعامكم) ؛ فقد قيل : إن « ثُمّ » هاهنا إنما هى لعطف الخبر على الخبر ، لا لعطف الفعل على الفعل ؛ كما قال الشاعر[٢] :

قل لمَنْ سادَ ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبْل ذلك جدّه

وقيل: إن الدَّحْى كان بعد خلق السموات [والأرض][٣]؛ رواه على بن أبى طلحة، عن ابن عباس .

وقد قال السُّدِّى فى تفسيره ، عن أبى مالك ؛ وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ؛ وعن [٥٢] مُرّة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من الصحابة: (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سَبْعَ سموات وهو بكل شىء عليم): قال : إن اللهَ تبارك وتعالى كان عَرْشُه على الماء ، ولم يخلق شيئا غير ما خلق قبل الماء؛ فلما أراد أن يخلقَ الخلْقَ أخرج من الماء دُخانا ، فارتفع فوق الماء ، فسما عليه ، فسماه سماء ، ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة ، ثم فتقها فجعلها سَبْعَ أرضين فى يومين ؛ فى الأحد والاثنين ؛ فخلق الأرضَ على حُوت، والحوتُ هو الذى ذكره فى القرآن[٤]: (نٓ والقلم) . والحوتُ فى الماء ، والماء على ظهر صَفاة ، والصَّفاة على ظهر مَلَك ، والملك على صخرة ، والصخرةُ فى الريح ؛ وهى الصُخرةُ التى ذكر لقمان ليست فى السماء ولا فى الأرض ، فتحرّكَ الحوتُ فاضطرب ، فتزلزلت الأرض ، فأرسى عليها الجبال، فقرَّت ؛ فالجبالُ تَفْخَر على الأرض ؛ فذلك قوله تعالى[٥] : (وجعلنا فى الأرضِ رَوَاسِيَ

---

(١) سورة النازعات ، آية ٢٧ ـ ٣٣ ، أغطش ليلها : أظلمه دحاها : بسطها ومهدها للسكنى ، والتقلب فى أقطارها . (٢) المغنى : ١ ـ ١٠٥ (٣) ليس فى ز .
(٤) سورة القلم ، آية ١ (٥) سورة الأنبياء ، آية ٣١

أن تميد بهم) ، وخلق الجبالَ فيها، وأقوات أهلها، وشجرها، وما ينبغى لها فى يومين، فى الثلاثاء والأربعاء ، وذلك حين يقول[١] : (قل أئنكم لتكفرُونَ بالذى خلقَ الأرضَ فى يومين وتجعلونَ له أنداداً ذلك ربُّ العالمين. وجعل فيها رواسِيَ من فوقها وباركَ فيها) : يقول أنبت شجرَها ؛ (وقَدّر فيها أقواتَها) لأهلها (فى أربعة أيامٍ سواءً للسائلين) : يقول: مَنْ سأل فهكذا الأمر ؛ (ثم استوى إلى السماء وهى دُخان)؛ وذلك الدُّخان من تنفُّس الماء حين تنفس ، فجعلها سماء واحدة ، ثم فتقها فجعلها سَبْعَ سموات فى يومين ، فى الخميس والجمعة ؛ وإنما سُمّى يوم الجمعة ؛ لأنه جمع فيه خَلْقَ السموات والأرض ؛ (وأَوْحَى فى كل سماءٍ أمْرَها) ؛ قال : خلق اللهُ فى كل سماء خَلْقها من الملائكة ، والخَلْق الذى فيها من البحار وجبال البَرد ومما لا يعلم ، ثم زَيّنَ السماء الدنيا بالكواكب ، فجعلها زينةً وحِفْظا تحفظ من الشياطين .

فلما فرغ من خَلْقِ ما أحبَّ استوى على العرش ؛ فذلك حين يقول[٢] : (خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش) . ويقول[٣] : (كانَتَا رَتْقا فَفَتَقْنَاهما وجعلنا منَ الماءِ كلَّ شيء حَيٍّ) .

وقال ابن جرير[٤] : حدثنى المثنى ، حدثنا عبدالله بن صالح ، حدثنى أبو معشر ، عن سَعِيد بن أبى سعيد ، عن عبد الله بن سَلَام ــ أنه قال : إنّ الله بدأ الخَلْقَ يوم الأحد ، فخلق الأرضين فى الأحد والاثنين ؛ وخلق الأقواتَ والرواسيَ فى الثلاثاء والأربعاء ، وخلق السمواتِ فى الخميس والجمعة ، وفرغ فى آخِرِ ساعةٍ من يوم الجمعة ، فخلق فيها آدمَ على عَجَل ؛ فتلك الساعة التى تقومُ فيها الساعة .

(١) سورة فصلت ، آية ٩ ــ ١٢ (٢) سورة الحديد ، آية ٤
(٣) سورة الأنبياء ، آية ٣٠ . رتق الفتق : ضمه ولأمه ، مرتوقتين : كانتا ذاتى رتق .
(٤) تفسير الطبرى : ١ ــ ١٥٣

وقال مجاهد فى قوله تعالى : (هو الذى خلقَ لكم ما فى الأرضِ جميعا) ؛ قال: خلق اللهُ الأرضَ قبل السماء ، فلما خلق الأرض ثار[1] منها دُخان ؛ فذلك حين يقول: (ثم استَوَى إلى السماء فسوّاهنّ سبْعَ سموات) ؛ قال : بعضهن فوق بعض ؛ وسبع أرضين - يعني بعضها تحت بعض .

[2][وهذه الآيةُ دالّةٌ على أنّ الأرضَ خُلقت قبل السماء، كما قال فى آية السجدة[3] : (قل أَئنكم لتَكْفُرُون بالذى خلق الأرضَ فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها روَاسِيَ من فوقها وباركَ فيها وقَدَّرَ فيها أقواتَها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دُخانٌ فقال لها وللأرض : ائتيا طَوْعًا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهُنَّ سبع سمواتٍ فى يومين وأَوْحَى فى كل سماء أَمْرَها وزيَّنَّا السماءَ الدنيا بمصابيح وحِفْظاً ذلك تقديرُ العزيز العليم) ؛ فهذه وهذه دالّتان على أنّ الأرض خُلقت قبل السماء ، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعا بين العلماء إلا ما نقله ابن جرير[4] عن قتادة - أنه زعم أنّ السماء خُلقت قبل الأرض ، وقد توقف فى ذلك القرطبى[5] فى تفسيره لقوله تعالى[6] : (أأنتم أَشَدُّ خلقاً أم السماء بناها . رفَعَ سَمْكَهَا فسوّاها . وأَغْطَشَ لَيْلَهَا وأَخْرَجَ ضُحاها. والأرض بعد ذلك دَحاها. أَخْرَج منها ماءها ومَرْعاها. والجبال أرساها) - قالوا: فذكر خلق السماء قبل الأرض.

وفى صحيح البخارى أنّ ابن عباس سُئل عن هذا بعينه ، فأجاب بأنّ الأرضَ خُلقت قبل السماء ، وأنّ الأرض إنما دُحيت بعد خلق السماء .

وكذلك أجاب غَيْرُ واحد من علماء التفسير قديما وحديثا . وقد حرّرْنَا ذلك فى سورة النازعات .

(١) فى ز : بان . (٢) من هنا ليس فى ز . (٣) سورة فصلت ؛ آية ٩ - ١٢ .
(٤) تفسير الطبرى : ١ - ١٥٣ (٥) تفسير القرطبى : ١ - ٢٥٥ ، ١٩ - ٢٠٤
(٦) سورة النازعات ، آية ٢٧ - ٣٢

وحاصل ذلك أنّ الدّحى مفسر بقوله تعالى : (والأرضَ بَعْدَ ذلك دَحاها . أخرج منها ماءها ومَرْعَاها. والجبالَ أرساها) ؛ ففسر الدّحى بإخراج ما كان مودَعاً فيها بالقوة إلى الفعل ، لَمّا أُكملت صورة المخلوقات الأرضية ثم السماوية دَحى بعد ذلك الأرضَ ، فأخرجت ما كان مودَعا فيها من المياه ، فنبتت النباتات على اختلاف أصنافها وصفاتها ، وألوانها وأشكالها ، وكذلك جرت هذه الأفلاكُ ، فدارت بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارة . والله سبحانه وتعالى أعلم] .

وقد ذكر ابنُ أبى حاتم ، وابن مَرْدويه فى تفسير هذه الآية الحديث الذى رَوَاه مسلم ، والنسائى ، فى التفسير أيضا ، من رواية ابن جُريج ؛ قال : أخبرنى إسماعيل ابن أميّة ، عن أيوب بن خالد ، عن عبد الله بن رافع مولى أمّ سلمة ، عن أبى هريرة ، قال[1] : أخذ رسولُ الله ﷺ بيدى ، فقال : « خلقَ الله التُّربةَ يوم السبت ، وخلق الجبالَ فيها يوم الأحد ، وخلق الشجرَ فيها يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخَلق النّور يوم الأربعاء ، وبثّ فيها الدوابَّ يوم الخميس ، وخلق آدمَ بعد العصر من يوم الجمعة من آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل » .

وهذا الحديثُ من غرائب صحيح مسلم ؛ وقد تكلم عليه على بن المدينى ، والبخارى ، وغَيْرُ واحد من الحفاظ ، وجعلوه من كلام كعب ، وأن أبا هُريرة إنما سمعه من كلام كَعْب الأحبار ؛ وإنما اشتبه على بَعْضِ الرّواة فجعلوه مرفوعا ؛ وقد حرّر ذلك البيهقى .

---

(١) صحيح مسلم : ٢١٤٩

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾.

يخبر تعالى بامتنانه على بنى آدم بتنويهه بذكرهم فى الملأ الأعلى قبل إيجادهم؛ فقال تعالى: (وإذ قال ربُّكَ للملائكة) ، أى: واذكر يا محمد إذ قال ربك الملائكة، واقصص على قومك ذلك.

وحكى ابنُ جرير[1] عن بعض أهل العربية [2][وهو أبو عبيدة][2] أنه زعم أن « إذ » هاهنا زائدة ، وأن تقدير الكلام : وقال ربُّك. وردَّهُ ابن جرير[1].

[2][قال القرطبى[3]: وكذا ردَّه جميع المفسرين، حتى قال الزجاج : هذا اجتراء من أبى عبيدة][2].

(إنى جاعلٌ فى الأرضِ خليفة) ؛ أى قوما يخلف بعضُهم بعضا ، قَرْنًا بعد قَرْن ، وجيلا بعد جيل؛ كما قال تعالى [4] : (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض). وقال[5] : (ويجعلكم خلفاء الأرض). وقال[6]:(ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكةً فى الأرض يَخْلُفون) . وقال[7] : (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِم خَلْف).

[8][وقرئ فى الشاذ : (إنى جاعل فى الأرض خَلِيقة) ــ حكاها الزمخشرى[9] وغيره . ونقله[10] القرطبى عن زَيْد بن على][8] .

وليس المراد هاهنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط، [8][كما يقوله طائفةٌ من المفسرين،

(١) تفسير الطبرى : ١ ــ ١٥٣
(٢) ليس فى ز ، والطبرى
(٣) تفسير القرطبى : ١ ــ ٢٦٢
(٤) سورة الأنعام ، آية ١٦٥
(٥) سورة النمل ، آية ٦٢
(٦) سورة الزخرف ، آية ٦٠
(٧) سورة الأعراف ، آية ١٦٩
(٨) ما بين القوسين ليس فى ز .
(٩) الكشاف : ١ ــ ٥٠
(١٠) فى ب : ونقل . وهو فى تفسير القرطبى : ١ ــ ٢٦٣

وعزاه القرطبى إلى ابن عباس ، وابن مسعود ، وجميع أهل التأويل . وفى ذلك نظر ؛ بل الخلاف فى ذلك كثير ؛ حكاه الرازى فى تفسيره وغيره . والظاهر أنه لم يرد آدم عينا] ؛ إذ لو كان ذلك لما حسُنَ قولُ الملائكة : (أتجعَلُ فيها من يُفسِد فيها ويَسْفِكُ الدماء) ؛ فإنهم [إنما](١) أرادوا [٥٣] أنّ مِنْ هذا الجنس مَنْ يفعلُ ذلك ، وكأنهم علموا ذلك بعلمٍ خاص ، أو فهموه من الطبيعة البشرية ؛ فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف مِنْ صَلْصال من حَمَإٍ مسنون ؛ (٢)[أو فهموا من الخليفة أنه الذى يفصِلُ بين الناس فيما يقَعُ بينهم من المظالم ، ويَرْدَعهم عن المحارم والمآثم ؛ قاله القرطبى](٢) ؛ أو أنهم قاسوهم على مَنْ سبق ، كما سنذكر أقوال المفسرين فى ذلك .

وقولُ الملائكةِ هذا ليس على وَجْه الاعتراض على الله ، ولا على وَجْه الحسد لبنى آدم كما قد يتوهّمه بَعْضُ المفسرين ؛ (٢)[وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول ؛ أى لا يسألونه شيئا لم يأْذَنْ لهم فيه ؛ وهاهنا لما أعلمهم بأنه سيخلقُ فى الأرض خلقا ؛ قال قتادة : وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها ، فقالوا : (أتجعلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها ويسفك الدماء . . .) الآية](٢) .

وإنما هو سُؤال استعلامٍ واستكشاف عن الحكمة فى ذلك ، يقولون : يا ربنا ؛ ما الحكمةُ فى خَلْق هؤلاء مع أنَّ منهم مَنْ يُفسد فى الأرض ، ويَسْفِكُ الدماء ؟ فإنْ كان المراد عبادتك فنحن نسبِّحُ بحمدك ونقدِّسُ لك ، أى نصلِّى لك كما سيأتى ؛ أى ولا يصدر منّا شىء من ذلك ، وهلّا وقع الاقتصارُ علينا ؟

قال الله تعالى ـ مُجيبا لهم عن هذا السؤال : (إنى أعلم ما لا تَعْلَمُون) ؛ أى إنى

(١) هذا فى ا . وفى ز : لما .　　(٢) ما بين القوسين ليس فى ز .

أعلم من المصلحة الراجحة فى خَلْقِ هذا الصنف على المفاسد التى ذكرتموها مالا تعلمون أنتم ؛ فإنّى سأجعلُ فيهم الأنبياء ، وأُرسِلُ فيهم الرسلَ ، ويوجد منهم الصدّيقون والشهداء والصالحون ، والعبّاد والزّهاد ، والأولياء والأبرار والمقرّبون ، والعلماء العاملون والخاشعون ، والمحبّون له تبارك وتعالى المتّبعون رسُلَه صلوات الله وسلامه عليهم .

[1][وقد ثبت فى الصحيح أنّ الملائكةَ إذا صعدت إلى الرب تعالى بأعمال عباده يسألهم ــ وهو أعلم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلّون، وتركناهم وهم يصلّون . وذلك لأنهم يتعاقبون فينا ، ويجتمعون فى صلاة الصبح وفى صلاة العصر ، فيمكث هؤلاء ويصعد أولئك بالأعمال ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « يُرْفَع إليه عَمَلُ الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل » .

فقولهم : أتيناهم وهم يصلّون وتركناهم وهم يصلون من تفسير قوله لهم:(إنى أعلم مالا تعلمون) .

وقيل معنى قوله تعالى ــ جوابا لهم : (إنّى أعْلَمُ مالا تعلمون) : إنى لى حكمة مفصّلة فى خَلْقِ هؤلاء والحالة ما ذكرتم لاتعلمونها .

وقيل : إنه جواب (ونحن نسبّحُ بحَمْدِك ونقدّس لك) ، فقال : (إنى أعلم مالا تعلمون) ؛ أى من وجود إبليس بينكم ، وليس هو كما وصفتم أنفسكم به .

وقيل : بل تضمّن قولهم : (أتجعل فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدّس لك) طلباً منهم أن يسكنوا الأرضَ بدلَ بنى آدم ؛ فقال الله تعالى لهم : (إنى أعلم مالا تعلمون) من أنّ بقاءكم فى السماء أصلح لكم وأليق بكم . ذكره الرازى مع غيرها من الأجوبة . والله أعلم][2] .

(١) من هنا ليس فى ز .
(٢) إلى هنا ليس فى ز .

ذكر أقوال المفسرين ببسط ما ذكرناه

قال ابنُ جرير[١] : حدثنى القاسم بن الحسن[٢] ، حدثنى الحجاج ، عن جرير ابن حازم ؛ ومبارك عن الحسن ، وأبى بكر[٣] ، عن الحسن وقتادة ؛ قالوا : قال اللهُ للملائكة : « إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة » . قال لهم : إنى فاعل هذا ، ومعناه أنه أخبرهم بذلك .

وقال السدّى : استشار الملائكةَ فى خَلْقِ آدم ، رواه ابنُ أبى حاتم ؛ وقال : وروى عن قتادة نحوه ؛ وهذه العبارة إن لم ترجع إلى معنى الإخبار ففيها تساهل . وعبارةُ الحسنِ وقتادة فى رواية ابن جرير أحسن . والله أعلم .

(فى الأرض) : قال ابنُ أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا حماد ، عن[٤] عطاء بن السائب ، عن عبد الرحمن بن سابط ــ أنّ رسولَ الله ﷺ قال : « دُحيت الأرضُ من مكة ، وأول مَنْ طاف بالبيت الملائكة ؛ فقال الله : إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة ــ يعنى مكة » .

وهذا مرسل ، وفى سنده ضعف ، وفيه مُدْرَج ؛ وهو أنّ المراد بالأرض مكة . والله أعلم ؛ فإن الظاهر أنّ المراد بالأرض أعمّ من ذلك .

(خليفة) : قال السدّى فى تفسيره ، عن أبى مالك ؛ وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وعن مُرّة عن ابن مسعود ، وعن ناسٍ من الصحابة ــ إن الله تعالى قال للملائكة[٥] : إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة . قالوا : رَبَّنا ، وما يكون ذلك الخليفة ؟ قال :

---

(١) تفسير الطبرى : ١ ــ ١٥٦

(٢) فى الطبرى : حدثنا القاسم بن الحسن ؛ قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ..

(٣) فى تفسير الطبرى : وأبى بكر ــ يعنى الهذلى .

(٤) فى ب : حماد بن عطاء ــ تحريف .

(٥) وتفسير الطبرى : ١ ــ ١٥٧

يكون له ذريةٌ يُفْسِدون فى الأرض ، ويتحاسدون ، ويقتل بعضهم بعضا .

قال ابن[١] جرير : فكأن تأويل الآية على هذا : إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة منّى يخلفنى فى الحكم [بالعدل][٢] بين خَلْقى ، وإنّ ذلك الخليفة هو آدم ومَنْ قام مقامه فى طاعةِ الله والحكم بالعدل بين خَلْقه . وأما الإفسادُ وسَفْكُ الدماء بغير حقها فمِنْ غير خلفائه .

قال ابنُ جرير[٣] : وإنما معنى الخلافة التى ذكرها اللهُ إنما هى خلافةُ قَرْنٍ منهم قرنا[٤] .

قال[٥] : والخليفة : الفعيلة ، مِن قولك : خلف فلانٌ فلانا فى هذا الأمر ، إذا قام مقامه فيه بعده ؛ كما قال تعالى[٦] : (ثم جعلنا كم خلائفَ فى الأرض مِنْ بَعْدِهم لنَنْظُرَ كيف تعملون) . ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم خليفة ؛ لأنه خلف الذى كان قَبْله ، فقام بالأمر [مقامه][٧] ، فكان منه خَلفا .

قال: وكان محمد بن إسحاق يقول فى قوله تعالى:(إنّى جاعلٌ فى الأرض خليفة): يقول : ساكناً وعامرا يعمرها ويسكنها خلقا ليس منكم .

قال ابن جرير[٥] : وحدثنا أبو كُريب ، حدثنا عثمان بن سعيد ، حدثنا بِشر ابن عمارة ، عن أبى رَوْق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس؛ قال: إنّ أول مَنْ سكن الأرضَ الجن، فأفسدوا فيها ، وسفكوا فيها الدماء ، وقتل بعضهم بعضا ؛ قال: فبعث اللهُ إليهم إبليس ، فقتلهم إبليس ومَنْ معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطرافِ

(١) وتفسير الطبرى : ١ – ١٥٧
(٢) ليس فى ز ، والطبرى .
(٣) تفسير الطبرى : ١ – ١٥٨
(٤) فى تفسير الطبرى : قرنا غيرهم .
(٥) تفسير الطبرى : ١ – ١٥٦
(٦) سورة يونس ، آية ١٤
(٧) من تفسير الطبرى .

الجبال ، ثم خلق آدمَ فأسكنه إياها ؛ فلذلك قال : (إنّى جاعلٌ فى الأرض خليفة) .

وقال سفيان الثورى ، عن عطاء بن السائب ، عن ابن سابط : (إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة قالوا : أتجعلُ فيها من يُفْسِد فيها ويسفك الدماء) ؟ قال : يعنون به بنى آدم .

وقال عبد الرحمن بن زَيْد بن أسلم : قال الله للملائكة : إنى أريد أَنْ أَخلقَ فى الأرض خَلْقا ، وأجعل فيها خليفة ، وليس لله عزّ وجل خَلْق إلا الملائكة ، والأرض ، وليس فيها خلق . قالوا : أتجعلُ فيها من يُفْسد فيها .

وقد تقدم مارواه السدّى ، عن ابن عبّاس ، وابن مسعود وغيرهما من الصحابة: أنّ الله أعلم الملائكةَ بما تفعله ذُرِّية آدم ؛ فقالت الملائكة ذلك .

وتقدم آنفا مارواه الضحاك ، عن ابن عباس ـ أن الجنّ أفسدوا فى الأرض قَبْلَ بنى آدم ؛ فقالت الملائكة ذلك ، فقاسُوا هؤلاء بأولئك .

وقال ابنُ أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن محمد الطَّنَافِسى ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن بُكَيْر بن الأخنس ، عن مجاهد ، عن عبدالله بن عَمْرو ؛ قال : كان الجنّ[1] بنو الجان فى الأرض قَبْلَ أَنْ يخلق آدم بألفى سنة ، فأفسدوا فى الأرض وسفكوا الدماء ، فبعث اللهُ جُنْدا من الملائكة ، فضربوهم حتى ألحقوا[2] بجزائر البحور ؛ فقال الله [٥٤] للملائكة : إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة. قالوا : أتجعلُ فيها مَنْ يُفسد فيها ويسفك الدماء ؟ قال : إنى أعلم مالا تعلمون .

وقال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ـ فى قوله تعالى :

(١) فى ز : الحن ـ بالحاء المهملة . وفى القاموس : الحن ـ بالكسر : حى من الجن ، وفى ا : كان بنو الجان . وكلمة الجن ساقطة فيها .

(٢) فى ز : ألحقوهم .

(إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة...) - إلى قوله: (وأعلم ماتُبْدُونَ وما كنتم تكتمونَ)؛ قال : خلق الله الملائكةَ يوم الأربعاء ، وخلق الجن[1] يوم الخميس ، وخلق آدمَ يوم الجمعة ، فكفر قومٌ من الجن ، فكانت الملائكةُ تهبط إليهم فى الأرض فتقاتلهم ببَغْيهم[2]،وكان الفساد فى الأرض ؛ فمن ثمّ قالوا : (أتجعلُ فيها من يُفْسد فيها) ؛ كما أفسدت الجنّ ويَسْفِك الدماء كما سفكوا ؟

قال ابنُ أبى حاتم : وحدثنا الحسن بن محمد الصباح ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا مبارك بن فَضَالة ، أخبرنا[3] الحسن ؛ قال : قال اللهُ للملائكة : إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة . قال لهم : إنى فاعل ، فآمَنُوا بربهم ، فعلّمهم علماً ، وطوى عنهم علماً عَلِمه ولم يعلموه ، فقالوا بالعلم الذى علّمهم : (أتجعلُ فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء) ؟ قال : (إنى أعلم مالا تعلمون) .

قال الحسن : إنَّ الجن كانوا فى الأرض يُفْسدون،ويسفكون الدماء ، ولكن جعل اللهُ فى قلوبهم أنَّ ذلك سيكون ؛ فقالوا بالقول الذى علّمهم .

وقال عبدالرزاق عن مَعْمَر ، عن قَتادة - فى قوله : (أتجعل فيها مَنْ يفسدُ فيها) كان اللهُ أعلمهم أنه إذا كان فى الأرض خَلْقٌ أفسدوا فيها وسفكوا الدماء ، فذلك حين قالوا : (أتجعلُ فيها مَنْ يُفْسد فيها) ؟

وقال ابنُ أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هشام الرازى ، حدثنا ابن المبارك ، عن معروف - يعنى ابن خَرَّبُوذ المكى ، عمَّنْ سمع أبا جعفر محمد بن على يقول : السجلُّ[4] ملك ، وكان هاروتُ وماروت من أعوانه ، وكان له فى كلّ يوم ثلاث

(١) هذا فى ا ، وفى ز : الحن - بالحاء المهملة ، وانظر الهامش السابق رقم ١ صفحة ٢٢٩
(٢) هذا فى ب . وفى ز : فكانت الدماء بينهم .
(٣) فى ز : حدثنا .
(٤) السجل فى قوله تعالى : يوم نطوى السماء كطى السجل للكتاب . . .

لحات [ينظرهن][1] فى أم الكتاب ؛ فنظر نظرةً لم تكن له ، فأبصر فيها خَلْقَ آدم وما [كان][2] فيه من الأمور ، فأسَرّ ذلك إلى هاروت وماروت ، وكانا من أعوانه ؛ فلما قال تعالى : (إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة) ـ قالا : (أتجعلُ فيها من يُفْسِد فيها ويسفك الدماء) ؟ قالا ذلك استطالةً على الملائكة .

وهذا أثر غريب . وبتقدير صحته إلى أبى جعفر محمد بن على بن الحسين الباقر فهو نَقله عن أَهْلِ الكتاب ، وفيه نكارة توجب ردّه . والله أعلم .

ومقتضاه أنّ الذين قالوا ذلك إنما كانوا اثنين فقط ، وهو خلافُ السياق .

وأغربُ منه مارواه ابنُ أبى حاتم أيضا حيث قال : حدثنا أبى ، حدثنا هشام ابن أبى عبيد[3] الله ، حدثنا عبد الله بن يحيى بن أبى كثير ؛ قال : سمعتُ أبى يقول : إن الملائكة الذين قالوا : (أتجعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها ويسفِكُ الدماء ونحن نسبّحُ بحمدك ونقدّسُ لك) كانوا عشرةَ آلاف ، فخرجت نارٌ من عند الله فأحرقتهم .

وهذا أيضا إسرائيلىّ منْكَر كالذى قبله . والله أعلم .

قال ابن جُريج : إنما تكلّموا بما أعلمهم اللهُ أنه كائن من خَلْقِ آدم ، فقالوا : (أتجعلُ فيها مَنْ يفسد فيها ويسفك الدماء) ؟

قال ابن جرير[4] : وقال بعضهم : إنما قالت الملائكةُ ماقالت : (أتجعلُ فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء) ؛ لأنّ الله أذِنَ لهم فى السؤال عن ذلك بعد ما أخبرهم أنّ ذلك كائن من بنى آدم ، فسألته الملائكة ، فقالت على التعجّب منها :

(١) من ا ، ز . (٢) ليس فى ز .
(٣) فى ز : بن أبى عبد الله . (٤) تفسير الطبرى : ١ ـ ١٦٥

وكيف يعصونك يارب وأنت خالقهم ؟ فأجابهم ربهم : (إنى أعلم مالا تعلمون) ؛ يعنى أنّ ذلك كائن منهم ، وإن لم تعلموه أنتم ومن بعض[١] ماترونه لى طائعا .

قال[٢] : وقال بعضهم ذلك من الملائكة على وجه الاسترشاد عما لم يعلموا من ذلك ، فكأنهم قالوا : يارب ، خبّرنا ـ مسألة استخبار منهم ، لاعلى وجه الإنكار . واختاره ابن[٢] جرير .

[٣] [وقال سعيد ، عن قتادة ؛ قوله تعالى : (وإذ قال ربُّك الملائكة إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة) ـ قال : استشار الملائكةَ فى خلق آدم ، فقالوا : (أتجعلُ فيها مَنْ يُفسِدُ فيها ويسفك الدماء) ؟ وقد علمت الملائكةُ أنه لاشىء أكرَه عند الله من سَفْك الدماء والفساد فى الأرض ـ ونحن نسبِّح بحمدك ، ونقدِّسُ لك . قال : إنى أعلم مالا تعلمون ، فكان فى عِلْم الله أنه سيكونُ من ذلك الخليفة أنبياء ورسُل وقومٌ صالحون وساكنو الجنة ؛ قال : وذُكِر لنا عن ابن عباس أنه كان يقول : إنَّ الله لما أخذ فى خَلْقِ آدم عليه السلام قالت الملائكة : مالله خالق خَلْقاً أكرمَ عليه منّا ، ولاأعْلَمَ منّا ؛ فابتلوا بخلْقِ آدم ، وكلّ خَلْق مبتلى ، كما ابتليت السموات والأرض بالطاعة ، فقال الله تعالى[٤] : (ائْتِيَا طَوْعاً أو كَرْهاً قالتا أتينا طائعين)][٣] .

وقوله تعالى : (ونحن نسبِّحُ بحمدك ونقدِّسُ لك) : قال عبدالرزاق ، عن مَعْمَر ، عن قتادة ، قال : التسبيح التسبيح . والتقديس : الصلاة .

وقال السُّدّى عن أبى مالك ؛ وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ؛ وعن مُرّة ،

---

(١) فى الطبرى : ومن بعض من ترونه لى طائعا . وفى ز : ومن يعصينى ممن ترونه .
(٢) تفسير الطبرى : ـ ١ ١٦٥ (٣) مابين القوسين ليس فى ز .
(٤) سورة فصلت ، آية ١١

عن ابن مسعود ؛ وعن ناسٍ من الصحابة : (ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك) قال: يقولون : نصلّى لك .

وقال مجاهد : (ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك) قال : نعظمك ونُكبّرك .

وقال الضحاك : التقديس التطهير .

وقال محمد بن إسحاق : (ونحن نسبّحُ بحمدك ونقدّسُ لك)؛ قال:لا نَعْصى ، ولا نأتى شيئاً تكرهه .

وقال ابن[1] جرير : التقديس : هو التعظيم والتطهير . ومنه قولهم : سُبُّوح قُدّوس : يعنى بقولهم : سبوح:تنزيه له ، وبقولهم قدوس طهارة وتعظيم له ،ولذلك[2] قيل للأرض أرض مقدسة ، يعنى بذلك المطهرة ؛ فمعنى قول الملائكة إذاً : (ونحن نسبّحُ بحمدك) : ننزهك ونبرئك مما يُضيفُه إليك أهلُ الشرك بك . (ونقدّسُ لك) : ننسبكَ إلى ماهو مِنْ صفاتكَ من الطهارة من الأدناس ؛ وما أضاف إليك أهلُ الكفر بك .

[3][وفى صحيح[4] مسلم، عن أبى ذَر رضى الله عنه-أن رسولَ الله ﷺ سُئل أىُّ الكلام أفضلُ ؟ قال : « ماصطفى اللهُ لملائكته : سبحان الله وبحمده » .

وروى البيهقى عن عبدالرحمن بن قُرْط-أنَّ رسولَ الله ﷺ ليلة أسرى به سمع تسبيحاً فى السموات العلا « سبحان العلى الأعلى ، سبحانه وتعالى[3]] .

(قال : إنّى أعلَمُ مالا تَعْلَمُون) : قال قَتادة : فكان فى عِلْمِ اللهِ أنه سيكون فى تلك الخليقةأنبياء ورسلٌ ، وقوم صالحون وساكنو الجنة .

وسيأتى عن ابن مسعود ، وابن عباس ، وغَيْر واحد من الصحابة والتابعين أقوالٌ

(١) تفسير الطبرى : ١ - ١٦٧ (٢) فى ب : وكذلك . والمثبت فى الطبرى أيضا .
(٣) مابين القوسين ليس فى ز . (٤) صحيح مسلم : ٢٠٩٣

فى حكمة قوله تعالى : (قال إنى أعلم ما لا تعلمون) [٥٥] .

[1][وقد استدل القرطبىّ[2] وغيره بهذه الآية على وجوب نَصْبِ الخليفة ، ليفصلَ بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ويقطع تنازعهم ، وينتصر لمظلومهم مِنْ ظالمهم ، ويقيم الحدودَ ، ويزجُرَ عن تعاطى الفواحش، إلى غير ذلك من الأمور المهمة التى لا تمكنُ إقامتها إلا بالإمام ، وما لا يتم الواجبُ إلا به فهو واجب .

والإمامةُ تنال بالنص ، كما يقوله طائفة من أهل السنة فى أبى بكر ، أو بالإيماء إليه ، كما يقول آخرون منهم ، أو باستخلاف الخليفة آخَرَ بعده ، كما فعل الصدّيق بعمر بن الخطاب ، أو بتركه شُورَى فى جماعةٍ صالحين كذلك كما فعله عمر ، أو باجتماع أهْلِ الحلّ والعقد على مبايعته، أو بمبايعة واحدٍ منهم له ؛ فيجب التزامها عند الجمهور ؛ وحكى الإجماعَ على ذلك إمامُ الحرمين والله أعلم. أو بقَهْر واحدٍ من الناس على طاعته ، فتجب ، لئلا يؤدِّى ذلك إلى الشقاق والاختلاف . وقد نص عليه الشافعىّ ؛ وهل يجب الإشهادُ على عَقْد الإمامة ؟ فيه خلاف ؛ فمنهم مَنْ قال : لا يشترط . وقيل : بلى ؛ ويكفى شاهدان . وقال الجبّائى[3] : يجب أربعة ، وعاقد ، ومعقود له ، كما ترك عُمر رضى الله عنه الأمْرَ شورى بين ستة ؛ فوقع الأمرُ على عاقد ، وهو عبدالرحمن بن عوف ، ومعقود له وهو عثمان ، واستنبط وجوبَ الشهود من الأربعة الباقين ، وفى هذا نَظَر . والله أعلم .

ويجب أن يكونَ ذكراً حرًّا بالغا ، عاقلا مسلما ، عَدْلا مجتهدا ، بصيرا سليم

(١) ما بين القوسين ليس فى ز .

(٢) تفسير القرطبى : ١ - ٢٦٤

(٣) الجبائى : أبو على محمد بن عبد الوهاب الجبائى ، وابنه أبو هاشم ، وأبو على صاحب مقالات المعتزلة . ولد سنة خمس وثلاثين ومائتين . ومات سنة ثلاث وثلاثمائة (اللباب) .

الأعضاء ، خبيرا بالحروب والآراء ، قُرشيا على الصحيح ؛ ولا يشترط الهاشمى ولا المعصوم من الخطأ خلافا للغُلاة الروافض .

ولو فسق الإمامُ هل ينعزلُ أم لا ؟ فيه خلاف . والصحيحُ أنه لا ينعزلُ ، لقوله عليه الصلاة والسلام[1] : « إلاّ أنْ تروا كُفْرا بَواحاً عندكم مِنَ الله فيه بُرهان » .

وهل له أن يعزلَ نفسه ؛ فيه خلاف ، وقد عزل الحسنُ بن على رضى الله عنه نَفْسَه ، وسلّم الأمر إلى معاوية ؛ لكن هذا لعُذْر ؛ وقد مُدِح على ذلك .

فأما نَصْبُ إمامين فى الأرض أو أكثر فلا يجوزُ ، لقوله عليه الصلاة والسلام[2] : « مَنْ جاءكم وأمْرُكم جميع يريد أن يفرّقَ بينكم فاقتلوه كائنا مَنْ كان » .

وهذا قول الجمهور ، وقد حكى الإجماعَ على ذلك غَيْرُ واحد، منهم إمام الحرمين.

وقالت الكرّامية[3] : يجوز اثنان[4] فأكثر ، كما كان علىّ ومعاوية إمامين واجبى الطاعة ؛ قالوا : وإذا جاز بَعْثُ نبيين فى وَقْتٍ واحد وأكثر جاز ذلك فى الإمامة ؛ لأنَّ النبوةَ أعلى رتبة بلا خلاف .

وحكى إمامُ الحرمين عن الأستاذ أبى إسحاق أنه جوّز نَصْبَ إمامين فأكثر إذا تباعدت الأقطارُ ، واتسعت الأقاليم بينهما . وتردَّد إمامُ الحرمين فى ذلك .

قلت : وهذا يُشْبه حالَ الخلفاء بنى العباس بالعراق والفاطميين بمصر، والأُمويين بالمغرب ، ولنقرر هذا كله فى موضع آخر من كتاب الأحكام إنْ شاءَ الله تعالى] .

---

(١) صحيح مسلم : ١ – ١٤٧٠ . بواحا : جهارا .

(٢) صحيح مسلم : ١٤٨٠ . وأمركم جميع : مجتمع .

(٣) الكرامية : نسبة إلى أبى عبد الله محمد بن كرام ، كان أبوه يحفظ الكرم ، فقيل له كرام . وأحدث محمد مذهبا تبعه عليه عالم لا يحصون بنيسابور وهراة ونواحيهما ، ويقال لكل منهم كرامى . ومات سنة ثلاث وثمانين (اللباب) .

(٤) فى ب : اثنين .

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣١). قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٣٢). قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) ﴾ .

هذا مقامٌ ذكَرَ اللهُ تعالى فيه شرفَ آدم على الملائكة بما اختصَّه من علْمِ أسماء كلّ شيء دونهم . وهذا كان بعد سجودِهم له ؛ وإنما قدم هذا الفصل على ذاك لمناسبة ما بين هذا المقام وعدمِ علمهم بحِكْمة خَلْقِ الخليقة حين سألوا عن ذلك، فأخبرهم تعالى بأنه يعلمُ ما لا يعلمون ؛ ولهذا ذكر اللهُ هذا المقامَ عقيب هذا ، ليبيّن لهم شرفَ آدم بما فُضّل به عليهم فى العلم ، فقال تعالى : (وعلَّمَ آدمَ الأسماء كلَّها) .

قال السُّدِّى ، عمن حدثه ، عن ابن عباس : (وعلم آدمَ الأسماء كلها) ـ قال[١] : علّمه أسماء وَلدِه إنسانا إنسانا، والدوابّ ؛ فقيل : هذا الحمار ، هذا الجمل ، هذا الفرس .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس: (وعلّم آدم الأسماءَ كلَّها) ـ قال: هى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس ؛ إنسان ، ودواب[٢] ، وسماء ، وأرض ، وسهل ، وبحر ، وخيل[٣] ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها .

وروى ابنُ أبى حاتم ، وابن جرير[٤]، من حديث عاصم بن كليب ، عن سعيد

(١) فى ز : عرض عليه أسماء . . .
(٢) فى ز : ودابة .
(٣) فى ز : وجمل .
(٤) تفسير الطبرى : ١ ـ ١٧٠

ابن مَعْبد ، عن ابن عباس : (وعلَّم آدمَ الأسماء كلَّها) ـ قال : علَّمه اسْمَ الصحفة والقِدْر ؟قال : نعم حتى الفَسْوة والفُسَيّة .

وقال مجاهد : (وعلم آدم الأسماء كلها) ـ قال : علَّمه اسْمَ كل دابة ، وكلَّ طير ، وكل شيء .

وكذلك رُوى عن سَعيد بن جُبير، وقتادة وغيرهم مِن السلف ، أنه علَّمه أسماء كل شيء .

وقال الربيع ـ في رواية عنه ـ أسماء الملائكة .

وقال حميد الشامي : أسماء النجوم . وقال عبد الرحمن بن زيد : علمه أسماء ذرّيته كلهم .

واختار ابْنُ جرير[1] أنه علمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية ؛ لأنه قال : (ثم عرضهم) ؛ وهذا عبارة عما يعقل .

وهذا الذى رجّح به ليس بلازم ؛ فإنه لا يَنْفِي أن يدخل معهم غيرهم ، ويعبّر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب ، كما قال تعالى[2] : (واللهُ خلقَ كلَّ دابّة مِنْ ماء ، فمنهم مَنْ يمشى على بَطْنِه ، ومنهم مَنْ يمشى على رِجْلين ، ومنهم مَنْ يمشى على أربع ، يخلقُ اللهُ ما يشاء إنّ الله على كل شيء قدير) .

[3][وقد قرأ عبْدُ الله بن مسعود : ثم عرضهنّ . وقرأ أُبىّ بن كعب : ثم عرضها؛ أى المسميات][3] .

والصحيحُ أنه علمه أسماء الأشياء كلها ؛ ذواتها [3][وصفاتها][3] وأفعالها ، كما قال ابْنُ عباس[4] : حتى الفسوة والفُسَيّة ، يعنى أسماء الذوات والأفعال المكبر

(١) تفسير الطبرى : ١ ـ ١٧١

(٢) سورة النور ، آية ٤٥

(٣) مابين القوسين ليس فى ز .

(٤) وتفسير القرطبى : ١ ـ ٢٨٣

والمصغر ؛ ولهذا قال البخارى فى تفسير هذه الآية فى كتاب التفسير من صحيحه[١] : حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا هشام ، عن[٢] قتادة ، عن أنس بن مالك — أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : وقال لى خليفة : حدثنا يزيد بن زُرَيْع ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، عن أنس ، عن النبى ﷺ ، قال : « يجتمع المؤمنونَ يوم القيامة ، فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا ؟ فيأتون آدم فيقولون : أَنْتَ أبو الناس ، خلقك اللهُ بيده ، وأسجد لك ملائكتَه ، وعلَّمك أسماءَ كلّ شىء ، فاشفَعْ لنا إلى[٣] ربك حتى يُرِيحنا من مكاننا هذا . فيقول : لستُ هناكم ، ويذكر ذَنْبَه فيستحيى ؛ ائتوا نوحا ، فإنه أوّل رسولٍ بعثه الله إلى أهل الأرض ؛ فيأتونه فيقول : لستُ هُناكم ، ويذكر سؤاله ربَّه ما ليس له به علم فيستحيى ؛ فيقول : ائتوا خليلَ الرحمن فيأتونه فيقول : لَسْتُ هُناكم ، فيقول : ائتوا موسى عَبْدا كلَّمه الله ، وأعطاه التوراة ؛ فيأتونه ، فيقول : لسْتُ هُنَاكم . ويَذْكُر قَتْلَ النفس بغير نَفْس فيستحيى من ربه ؛ فيقول : ائتوا عيسى عَبْدَ الله ورسوله ، وكلمةَ اللهِ وروحَه ، فيأتونه فيقول : لستُ هنا كم ، ائتوا محمدا عَبْداً غفر اللهُ له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ، فيأتونى ، فأنطلق حتى أستأذِنَ على ربى فيأذن[٤] لى ، فإذا رأيتُ ربى وقعتُ ساجدا ، فيَدعنى ما شاء اللهُ ، ثم يقال : ارفع رأسك ، وسَلْ تعطه ، وقُلْ يسمع ، واشفع تشفّع ؛ فأرفَعُ رأسى فأحمده بتحميدٍ يعلّمنيه ، ثم أشفع ، فيحدّ لى حدّا ، فأدخلهم الجنة ، ثم أعود إليه ؛ فإذا رأيت ربى مثْلَه ؛ ثم اشفع فيحدّ لى حدّا فأدخلهم الجنة ، ثم أعود الثالثة ، ثم أعود الرابعة ، فأقول : ما بَقِيَ فى النار إلا مَنْ حبسه القرآن ، ووجب عليه الخلود .

هكذا ساق البخارى هذا الحديثَ هاهنا ، وقد رواه مسلمٌ ، والنسائى من حديث

---

(١) صحيح البخارى : ٦ — ٢٣ ، ٩ — ١٤٩

(٢) فى ز : حدثنا .

(٣) فى ز : عند .

(٤) فى ز : فيؤذن

هشام ، وهو ابْنُ أبى عبد الله الدَّسْتُوائى ، عن قَتادة ، به . وأخرجه مسلم[١] ، والنسائى ، وابن ماجه [١] من حديث سعيد ، وهو ابْنُ أبى عَروبة ، عن قتادة .

ووَجْه إيراده هاهنا ، والمقصود منه قوله عليه الصلاة والسلام : فيأتون آدم فيقولون : أنْتَ أبو الناس ؛ خلقك اللهُ بيده ، وأسجد لكَ ملائكته ، وعلّمك أسماء كل شىء .

فدلّ هذا على أنه علّمه أسماء جميع المخلوقات ؛ ولهذا قال : (ثم عرضهم على الملائكة) : يعنى المسميات ، كما قال عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن قتادة ؛ قال : ثم عرض تلكَ الأسماء على الملائكة ، (فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كُنْتُمُ [٥٦] صادقين) .

وقال السدّى فى تفسيره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ؛ وعن مرة ، عن ابن مسعود ؛ وعن ناس من الصحابة : (وعلّم آدم الأسماء كلّها) ، ثم عرض الخَلْقَ على الملائكة .

وقال ابن جُريج ، عن مجاهد : ثم عرضَ[٢] أصحابَ الأسماء على الملائكة .

وقال ابن جرير[٣] : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنى الحجاج ، عن جرير ابن حازم ، ومبارك بن فَضالة ، عن الحسن وأبى بكر ، عن الحسن ، وقتادة ؛ قالا : علّمه اسْمَ كلّ شىء ، وجعل يسمى كلّ شىء باسمه ، وعرضت عليه أمّة أمة .

وبهذا الإسناد عن الحسن وقتادة ــ فى قوله تعالى : (إنْ كنتم صادقين) : إنى لم أخلق خلقا إلا كُنْتُمْ أعلم منه ، فأخبرونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : (إن كنتم صادقين) : إن كنتم تعلمون أنى لم أجعَلْ فى الأرض خليفة .

(١) صحيح مسلم : ١٨٠ ، وابن ماجه : ١٤٤٠

(٢) فى ز : ثم عرضهم عرض . (٣) تفسير الطبرى : ١ ـ ١٧١

وقال السدّى ، عن أبى مالك ؛ وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ؛ وعن مُرّة ، عن ابن مسعود ؛ وعن ناس من الصحابة : إن كنتم صادقين أنَّ بنى آدم يُفْسِدون فى الأرض ويسفكون الدماء .

وقال ابن جرير[1] : وأولى الأقوال فى ذلك تأويل ابن عباس ومَنْ قال بقوله، ومعنى ذلك : فقال أَنْبئونى بأسماء مَنْ عرضْتُه عليكم أيها الملائكة القائلون : أَتجعل فيها مَنْ يُفْسد فيها ويسفِكُ الدماء ؟ مِنْ غيرنا أم منّا ؟ فنحن نسبِّحُ بحمدك و نقدّس لك . إن كنتم صادقين فى قيلكم : إنى إنْ جعلتُ خليفتى فى الأرض من غيركم عصانى وذريّته ، وأفسدوا[2] ، وسفكوا الدماء ، وإن جعلتكم فيها أطعتمونى ، واتبعتم أمرى بالتعظيم لى والتقديس ؛ فإذا كنتم لاتعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضْتُ عليكم وأنتم تشاهدونهم فأنتم بما هو غَيْرُ موجود من الأمور الكائنة التى لم توجد أَحْرَى أن تكونوا غير عالمين .

(قالوا : سبحانك لاعِلْمَ لنا إلا ما علَّمتنا إنكَ أنتَ العليمُ الحكيم) : هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أنْ يُحيط أحدٌ بشىء من علمه إلا بما شاء ، وأن يعلموا شيئا إلا ماعلمهم الله تعالى ؛ ولهذا قالوا : (سبحانكَ لاعِلْمَ لنا إلا علَّمتنا إنكَ أنتَ العليمُ الحكيم) ؛ أى العليم بكل شىء ، الحكيم فى خَلْقك وأَمْرك ، وفى تعليمك ماتشاء ومنعك ما تشاء ، لك الحكمة فى ذلك ؛ والعَدْل التام .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشجّ ، حدثنا حفص بن غِياث ، عن حجاج ، عن أبى ابن مُليكة ، عن ابن عباس : سبحان الله ، قال : تنزيهُ الله نَفْسه عن السوء ؛ ثم قال عمر لعلى وأصحابه عنده : «لا إله إلا الله» قد عرفناها ، فما سبحان الله؟

(١) تفسير الطبرى : ١ - ١٧٣

(٢) فى تفسير الطبرى : وأفسدوا فيها .

فقال له عليٌّ : كلمةٌ أحبَّها اللهُ لنفسه ، ورَضِيها ، وأحب أن تُقال .

قال : وحدثنا أبي ، حدثنا ابن نُفَيل[(١)] ، حدثنا النضر بن عدى ، قال : سأل رجلٌ ميمون بن مِهْران عن سبحان الله . قال : اسمٌ يعظِّم الله به ، ويحاشي به من السوء .

وقوله تعالى:(قال يا آدمُ أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال:ألم أقلْ لكم إنى أعلمُ غيبَ السموات والأرضِ وأعلمُ ماتبُدون وما كنتم تكتمون) .

قال زيد بن أسلم : قال : أنتَ جبرائيل ، أنتَ ميكائيل ، أنت إسرافيل ، حتى عدَّدَ الأسماءَ كلها حتى بلغ الغراب .

وقال مجاهد ــ فى قول الله : (قال يا آدمُ أنبئهم بأسمائهم) ــ قال : اسم الحمامة والغراب ، واسمُ كل شيء .

وروى عن سعيد بن جُبَير ، والحسن، وقتادة نحو ذلك .

فلما ظهر فَضْلُ آدم عليه السلام على الملائكة عليهم السلام فى سَرْدِه ما علّمه اللهُ تعالى من أسماء الأشياء قال الله تعالى للملائكة : (ألم أقلْ لكم إنى أعلمُ غَيْبَ السموات والأرض وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون)؛ أى ألمْ أتقدم إليكم أنى أعلمُ الغيبَ الظاهر والخفى ؛ كما قال تعالى[(٢)] : (وإنْ تجْهَرْ بالقولِ فإنه يعلمُ السرَّ وَأَخْفَى) . وكما قال تعالى إخبارا عن الهدهد أنه قال لسليمان[(٣)] : (ألّا يسجدوا للهِ الذى يُخْرِج الخَبْءَ فى السموات والأرضِ ويعلمُ ماتُخْفُون وما تُعْلِنون . اللهُ لا إله إلا هو ربُّ العرشِ العظيم) .

وقيل فى قوله تعالى : (وأعلم ماتُبْدُونَ وما كنتم تكتمون) غير ما ذكرناه ؛

(١) فى ب : ابن فضيل ــ تحريف . وفى ا ، ز : ابن نفيل ، حدثنا النضر . كما أثبتناه .
(٢) سورة طه ، آية ٧ (٣) سورة النمل ، آية ٢٥ ، ٢٦

فروَى الضحاك عن ابن عباس : (وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون) ـ قال : أعلم السرَّ كما أعلم العلانية ، يعنى ما كتَم إبليسُ فى نفسه من الكِبْر والاغترار .

وقال السدى ، عن أبى مالك ؛ وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ؛ وعن مُرّة ، عن ابن مسعود ؛ وعن ناس من الصحابة ؛ قال : قولهم : (أتجعل فيها من يُفْسد فيها ويسفكُ الدماء . . .) الآية ، فهذا الذى أبدوا ؛ (وما كنتم تكتمون) : يعنى ما أسَرَّ إبليس فى نفسه من الكبر .

وكذلك قال سعيد بن جُبير ، ومجاهد ، والسدّى ، والضحاك ، والثورى . واختار ذلك ابن جرير[1] .

وقال أبو العالية ، والربيع بن أَنس ، والحسن ، وقَتادة : هو قولهم : لم يخلق ربُّنا خَلْقا إلا كنّا أعلم منه ، وأكرم عليه منه .

وقال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس : (وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون) : فكان الذى أبدوا هو قولهم : أتجعل فيها من يُفْسد فيها ويسفك الدماء ؛ وكان الذى كتموا بينهم هو قولهم : لن يخلق ربُّنا خَلْقا إلا كنا أعلم منه وأكرم ؛ فعرفوا أنّ الله فضَّل عليهم آدم فى العلم والكرم .

وقال ابن جرير[2] ، حدثنا يونس ، حدثنا ابن وهب ، عن عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم ، فى قصة الملائكة وآدم : فقال اللهُ للملائكة [٥٧] : كما لم تعلموا هذه الأسماء فليس لكم علم ، إنما أردتُ أن أجعلهم ليفسدوا فيها ، هذا عندى قد علمتُه ، فكذلك[3] أخفيتُ عنكم أنى أجعل فيها مَنْ يعصينى ومن يطيعنى .

---

(١) تفسير الطبرى : ١ – ١٧٦ ، ١٧٧

(٢) تفسير الطبرى : ١ – ١٧٦

(٣) فى ز : فلذلك والمثبت فى تفسير الطبرى أيضا .

قال : وقد سبق من الله:[١] (لأملأنّ جهنّمَ من الجنّة والناس أجمعين) . قال : ولم تعلم الملائكة ذلك ، ولم يَدْرُوه . قال : فلما رأوا ما أعطى الله آدمَ من العلم أقرّوا له بالفَضْل .

وقال ابن جرير[٢] : وأَوْلى الأقوال فى ذلك قولُ ابن عبّاس ؛ وهو أن معنى قوله تعالى : (وأعلم ماتُبْدُون) : وأعلم - مع علمى غَيْبَ السموات والأرض - ماتظهرونه بألسنتكم ، وما كنتم تخفون فى أنفسكم ، فلا يخفى علىّ شىء ، سواء عندى سرائركم وعلانيتكم . والذى أظهروه بألسنتهم قولُهم : أتجعل فيها من يُفْسد فيها ، والذى كانوا يكتمون ما كان منطويا عليه إبليسُ من الخلاف على الله فى أوامره ، والتكبّر عن طاعته .

قال[٢] : وصح ذلك كما تقولُ العربُ : قُتل الجيش وهزموا ، وإنما قُتِل الواحد أو البعض ، وهُزم الواحد أو البعض ؛ فيخرج الخبر عن المهزوم منه والمقتول مُخْرجَ الخبر عن جميعهم ؛ كما قال تعالى[٣] : (إنّ الذين ينادونكَ مِنْ وراءِ الحُجُراتِ) : ذُكِرَ أن الذى نادى إنما كان واحدا من بنى تميم ، قال : وكذلك قوله : (وأَعْلَمُ ماتُبْدون وما كنتم تكتمونَ) .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٣٤) ﴾ .

وهذه كرامة عظيمةٌ من الله تعالى لآدم امتنّ بها على ذريته حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم ، وقد دلّ على ذلك أحاديث كثيرة أيضا ؛ منها حديث

(١) سورة هود ، آية ١١٩
(٢) تفسير الطبرى : ١ - ١٧٦
(٣) سورة الحجرات ، آية ٤

الشفاعة المتقدم ، وحديث موسى عليه السلام: « رَبِّ أرنى آدم الذى أخرجَنا ونَفْسَه من الجنة ؛ فلما اجتمع به قال : أنْتَ آدمُ الذى خلقه اللهُ بيده ، ونفخَ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته » ؟ قال : وذكر الحديث كما سيأتى إنْ شاء الله .

وقال ابن جرير[1] : حدثنا أبو كُريب ، حدثنا عثمان بن سعيد ، حدثنا بشر ابن عمارة ، عن أبى رَوْق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ؛ قال : كان إبليس من حىّ من أحياء الملائكة يقال لهم الجن[2]، خُلقوا من نار السَّمُوم من بين الملائكة؛ وكان اسمه الحارث ، وكان خازنا من خزّان الجنة؛قال : وخُلقت الملائكة كلُّهم من نور غير هذا الحى ؛ قال : وخلقت الجنّ الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار، [3] وهو لسانُ النار الذى يكون فى طرفها إذا أُلهبت ؛ قال : وخُلق الإنسانُ من طين][3] .

فأوّل مَنْ سكن الأرضَ الجنُّ ، فأفسدوا فيها ، وسفكوا الدماء ، وقتل بعضُهم بعضا ؛ قال : فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة ، وهم هذا الحىُّ الذين يقال لهم الجن[2] ، فقتلهم إبليس ومَنْ معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال ؛ فلما فعل إبليسُ ذلك اغْتَرَّ فى نفسه ؛ فقال : قد صنعتُ شيئاً لم يصنعه أحد ؛ قال : فاطّلع اللهُ على ذلك من قلبه ، ولم تطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه ؛ فقال الله تعالى للملائكة الذين [3][كانوا][3] معه : إنى جاعل فى الأرض خليفة .

فقالت الملائكة ــ مجيبين له : أتجعَلُ فيها مَنْ يفسد فيها ويسفك الدماء ، كما أفسدت الجنُّ وسفكت الدماء ؛ وإنما بعثتنا عليهم لذلك ؟

---

(١) تفسير الطبرى : ١ ــ ١٧٨

(٢) هذا فى ا . وفى ز : الحن ــ بالحاء المهملة . وانظر هامش رقم ١ صفحة ٢٢٩ والمثبت فى تفسير الطبرى أيضا .

(٣) ما بين القوسين ليس فى ز .

فقال الله تعالى : (إنى أعلمُ ما لا تعلمون). يقول : إنى قد اطلعتُ من قلب إبليس على ما لم تطّلعوا عليه من كِبْره واغتراره .

قال : ثم أمر بتُرْبَةِ آدم ، فرُفعت ؛ فخلق الله آدمَ من طين لازب ، واللازب : اللازج الطيب[1] من حمإٍ مسنون مُنْتِن ؛ وإنما كان حمأ مسنوناً بعد التراب ، فخلق منه آدم بيده .

قال : فمكث أربعين ليلة جسداً مُلْقى ، وكان إبليس يأتيه فيضرب برجله فيصلصل فيصوّت ؛ فهو قول الله تعالى[2] : (مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّار) ؛ يقول : كالشيء المنفرج الذى ليس بمُصْمَت .

قال : ثم يدخل فى فيه ، ويخرج من دُبره ، ويدخل من دُبره ويخرج من فيه ، ثم يقول : لستَ شيئاً للصلصلة ، ولشيء ما خُلقت ، ولئن سلّطْتُ عليكَ لأهلكنك ، ولئن سلّطْتَ علىّ لأعصينك .

قال : فلما نفخ اللهُ فيه من رُوحه أتت النفخةُ من قِبَل رأسه ، فجعل لا يجرى شيء منها فى جسده إلا صار لحماً ودماً ، فلما انتهت النفخةُ إلى سُرَّته نظر إلى جسده ، فأعجبه ما رأى من جسده ، فذهب لينهضَ ، فلم يقدر ؛ فهو قول الله تعالى[3] : (وكان الإنسان عَجُولا) ؛ قال : ضَجِراً لا صَبْرَ له على سرّاء ولا ضرّاء ، قال : فلما تمت النفخةُ فى جسده عطس ، فقال : « الحمد لله رب العالمين » بإلهام الله ؛ فقال الله له : « يرحمكَ الله يا آدم » .

قال : ثم قال تعالى للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة دون الملائكةِ الذين

(١) فى ز : الصلب . وفى المعجم : لزب الطين يلزب : اشتد وتماسكت أجزاؤه فهو لازب .
(٢) سورة الرحمن ، آية ١٤
(٣) سورة الإسراء ، آية ١١ ، وفى ا ، ز : وخلق الإنسان عجولا !

فى السموات : اسْجُدوا لآدم ، فسجدوا كلّهم أجمعون إلا إبليس أبى واستكبر لما كان حدّث نفسه من الكِبْر والاغترار ؛ فقال : لا أسجد له ، وأنا خير منه ، وأكبر سنًّا ، وأقوى خَلْقًا ؛ خَلَقْتنى من نار وخلقتَه من طين ؛ يقول : إن النار أقوى من الطين .

قال : فلما أبى إبليس أنْ يسجد أبلسه الله؛ [أى][1] آيسه ، من الخير كله ، وجعله شيطانا رجيما عقوبةً لمعصيته .

ثم علّم آدم الأسماء [٥٨] كلها ، وهى هذه الأسماء التى يتعارفُ بها الناس : إنسان ، ودابة ، وأرض ، وسهل ، وبحر ، وجبل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها ؛ ثم عرض هذه الأسماء على أولئك الملائكة - يعنى الملائكةَ الذين كانوا مع إبليس الذين خُلِقوا من نار السموم ؛ وقال لهم : (أَنبئونى بأسماء هؤلاء) ؛ أى يقول : أخبرونى بأسماء هؤلاء (إنْ كنتم صادقين) : إن كنتم تعلمون لِمَ أجعل فى الأرض خليفة .

قال : فلما علمت الملائكةُ مَوْجِدة الله عليهم فيما تكلّمُوا به من علم الغيب الذى لا يعلمه غيره الذى ليس لهم به علم (قالوا سُبْحانَكَ) ؛ تنزيهاً لله من أن يكونَ أحد يعلم الغيب غيره ، تُبْنَا[2] إليك ، (لا عِلْمَ لنا إلّا ما علّمتنا) ؛ تبريا منهم من علم الغيب ، إلا ما علّمتنا كما علمتَ آدم ؛ فقال : (يا آدمُ أنبئهم بأسمائهم) : يقول أخبرهم بأسمائهم ، (فلما أنبأهم بأسمائهم قال : أَلَمْ أَقُلْ لكم) أيتها الملائكة خاصة : (إنى أعلمُ غَيْبَ السمواتِ والأرضِ) ، ولا يعلم غيرى ؛ (وأعلم ما تبدون) ؛ يقول : ما تظهرون ، (وما كنتم تكتمون) ؛ يقول : أعلم السر كما أعلم العلانية ، يعنى ما كتم إبليسُ فى نفسه من الكِبْر والاغترار .

---

(١) ساقط فى ا . (٢) فى ز : وتبنا .

هذا سياق غريب ، وفيه أشياء فيها نظَر يطولُ مناقشتها ؛ وهذا الإسنادُ إلى ابن عباس يروى به تفسير مشهور .

وقال السدى فى تفسيره ، عن أبى مالك ؛ وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ؛ وعن مُرّة ، عن ابن مسعود ؛ وعن أناس من أصحاب النبى ﷺ : لما فرغ اللهُ من خَلْقِ ما أحبّ استوى على العرش ، فجعل إبليس على ملك السماء الدنيا ، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن ؛ وإنما سموا الجنَّ لأنهم خزّان الجنة ؛ وكان إبليس مع مُلكه خازنا ، فوقع فى صَدْره [كِبْر][1] ؛ وقال : ما أعطانى اللهُ هذا إلا لمزيَّة لى على الملائكة . فلما وقع ذلك الكِبْر فى نفسه اطَّلع اللهُ على ذلك منه ؛ فقال الله للملائكة : (إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة) ؛ فقالوا : ربَّنا ، وما يكون ذلك الخليفة ؟ قال : يكون له ذرية يُفْسِدون فى الأرض ، ويتَحاسدون ، ويقتلُ بعضهم بعضا . قالوا : ربنا ؛ أتجعلُ فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبِّحُ بحمدك ، ونقدِّس لك ؟ قال : إنى أعلم مالا تعلمون ؛ يعنى من شأن إبليس .

فبعث اللهُ جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها ، فقالت الأرض : إنى أعوذُ بالله منك أنْ تنقص[2] منى ، أو تَشينني . فرجع ولم يأخذ ، وقال : يا رب ؛ إنها عاذت بك فأعَذْتُها . فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها ؛ فرجع ، فقال كما قال جبريل . فبعث ملكَ الموت فعاذت منه ، فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجعَ ولم أنفّذ أمره ، فأخذ من وَجْه الأرض ، وخلط ولم يأخذ من مكان واحد ، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء ؛ فلذلك خرج بنو آدم مختلفين ، فصعد به ؛ فبَلّ التراب حتى عاد طينا لازبا ؛ واللازب : هو الذى يلتزق بعضه ببعض ، ثم قال للملائكة[3] : (إنى خالقٌ بشَرًا

(١) من تفسير الطبرى .
(٢) فى ز : تقبض . والمثبت فى تفسير الطبرى أيضا .
(٣) سورة ص ، آية ٧١ ، ٧٢

من طين . فإذا سوَّيْتُه ونفختُ فيه من رُوحى فَقَعُوا له ساجدين) ؛ فخلقه الله بيده لئلا يتكبَّر إبليسُ عنه ، ليقول له : تتكبَّرُ عما عملتُ بيدى ، ولم أتكبَّر أنا عنه بخلقه[1] بشَرًا ؛ فكان جسداً من طين أربعين سنة مِن مقدار يوم الجمعة ، فمرَّت به الملائكةُ ، ففزعوا منه لما رأوه ؛ فكان[2] أشدهم فزَعا منه إبليس ؛ فكان يمر به فيضربه فيصوّت الجسد كما يصوّت الفخار يكون[2] له صَلْصَلة ؛ فذلك حين يقول[3] : (مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّار) ؛ ويقول : لأمرٍ ماخلقت . ودخل من فيه فخرج من دُبره . وقال للملائكة : لا ترهبوا من هذا ، فإنّ ربكم صَمد ، وهذا أجوف ؛ لئن سلّطت عليه لأهلكنّه .

فلما بلغ الحين الذى يريد اللهُ عز وجل أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة : إذا نفخت فيه من روحى فاسجدوا له .

فلما نفخ فيه الروح ، فدخل الروح فى رأسه عطس؛فقالت الملائكة : قل الحمد لله ، فقال : الحمد لله ، فقال له الله : « يرحمك ربُّك ».فلما دخلت الروحُ فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة ، فلما دخل الروحُ إلى جوفه اشتهى الطعام ، فوثب قبل أن تبلغَ الروحُ رجليه عجلانَ إلى ثمار الجنة ، فذلك حين يقول الله تعالى[4] : (خُلِق الإنسانُ من عَجَل) ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليسَ أبى أن يكونَ مع الساجدين ، أبى واستكبر وكان من الكافرين .

قال الله له : ما منعكَ أن تسجد إذ أمرتُكَ لما خلقتُ بيدىّ ؟ قال : أنا خير منه ، لم أكن لأسجدَ لبشرٍ[5] خلقتَه من طين ، قال الله له[6] : (فاهْبِطْ منها فما يكونُ لكَ) ؛ يعنى ما ينبغى لك ، (أن تتكبّر فيها فاخْرُجْ إنكَ من الصغرين) ، والصَّغَار : هو الذل .

---

(١) هذا فى ا ، ز . (٢) فى ز : وكان . (٣) سورة الرحمن ، آية ١٤

(٤) سورة الأنبياء ، آية ٣٧ (٥) فى ز : لمن . (٦) سورة الأعراف ، آية ١٣

قال : [(١)] وعلّم آدمَ الأسماء كلها) ، ثم عرض الخَلْق على الملائكة ، (فقال : أَنْبِئونى بأسماء هؤلاء إنْ كنتم صادقين) أنَّ بنى آدم يُفْسِدون فى الأرض ، ويسفكون الدماء ؛ فقالوا : (سبحانكَ لا عِلْمَ لنا إلّا ما علّمتنا إنكَ أنتَ العليم الحكيم . قال) الله : (يا آدم ، أنبئهم بأسمائهم ، فلما [٥٩] أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقُلْ لكم إنى أعلم غيبَ السموات والأرض وأعلم ما تُبْدُون وما كنتم تكتمون) .

قال : قولهم : (أتجعلُ فيها مَنْ يُفْسِد فيها) ، فهذا الذى أبْدَوْا . (وأعلم ما كنتم ما تكتمون) ، يعنى ما أسرَّ إبليسُ فى نفسه من الكبر .

فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور فى تفسير السدى ، ويقع فيه إسرائيليات كثيرة ، فلعل بعضها مُدْرَج [(٢)] ليس من كلام الصحابة ، أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة . والله أعلم .

والحاكم يروى فى مستدركه بهذا الإسناد بعينه أشياء ، ويقول : على شرط البخارى .

والغرضُ أنَّ الله تعالى لما أمر الملائكةَ بالسجود لآدمَ دخل إبليسُ فى خطابهم ، لأنه وإن لم يكن من عنصرهم إلا أنه كان قد تشبَّه بهم ، وتوسّم بأفعالهم ؛ فلهذا دخل فى الخطاب لهم ، وذُمَّ فى مخالفة الأمر . وسنبسط المسألة إن شاء الله تعالى عند قوله [(٣)] : (إلا إبليسَ كان من الجنّ ففَسقَ عن أَمْرِ رَبِّه) .

ولهذا قال محمد بن إسحاق ، عن خلّاد ، عن [(٤)] عطاء ، عن طاوس ، عن

---

(١) سورة البقرة ، آية ٣٢ ، وقد تقدمت .

(٢) المدرج من الحديث أن يذكر فيه الراوى عقيبه كلاما لنفسه أو لغيره ، فيرويه من بعده متصلا بالحديث من غير فصل ، فيتوهم أنه من الحديث .

(٣) سورة الكهف ، آية ٥٠

(٤) فى ب : بن عطاء ـ تحريف . وسيأتى على الصواب بعد قليل .

ابن عباس ؛ قال : كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسْمُه عزازيل ، وكان من سكان الأرض ، وكان من أشدّ الملائكة اجتهاداً ، وأكثرهم عِلماً ؛ فذلك دعاه إلى الكبر ، وكان من حيّ يسمون[1] جِنّاً .

وفى رواية : عن خلاد ، عن عطاء ، عن طاوس أو مجاهد ، عن ابن عباس ، أو غيره ، بنحوه .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا عباد — يعنى ابن العوّام ، عن سفيان بن حسين ، عن يَعْلَى بن مسلم ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس ، قال : كان إبليسُ اسمه عزازيل ، وكان من أشراف الملائكة من ذوى الأجنحة الأربعة ، ثم أبلس بعد .

وقال سُنَيد : عن حجاج ، عن ابن جُريج ؛ قال : قال ابن عباس : كان إبليس من أشراف الملائكة وأكرمهم قبيلةً ، وكان خازنا على الجنان ، وكان له سُلطان سماء الدنيا ، وكان له سلطان الأرض ، وهكذا روى الضحاك وغيره عن ابن عباس سواء .

وقال صالح مولى التَّوْأَمة ، عن ابن عباس : إنّ من الملائكة قبيلا يقال لهم الحن[1] : وكان إبليس منهم ، وكان يسوسُ ما بين السماء والأرض ، فعصى ، فمسخه الله شيطانا رجيما ، رواه ابن جرير[2] .

وقال قتادة عن سعيد بن المسيب : كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا .

وقال ابن جرير[2] : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عدى بن أبى عدى ، عن

(١) الحن : حى من الجن (القاموس) . وفى ب : جنا — بالجيم .
وفى الطبرى : الجن — بالجيم أيضا .
(٢) تفسير الطبرى : ١ — ١٧٩

عَوْف ، عن الحسن ؛ قال : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط ، وإنه لأصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنس .

وهذا إسناد صحيح عن الحسن . وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم سواء .

وقال شَهْر بن حَوْشَب : كان إبليس من الجن الذين طردتهم الملائكة، فأسره بعضُ الملائكة ، فذهب به إلى السماء . رواه ابن جرير[١] .

وقال سُنَيد بن داود : حدثنا هُشَيم ، أنبأنا عبد الرحمن بن يحيى ، عن موسى ابن نُمير ، وعثمان بن سعيد بن كامل ، عن سعد بن مسعود ؛ قال : كانت الملائكة تقاتِلُ الجنّ ، فسُبِي إبليس وكان صغيراً ، فكان مع الملائكة يتعبَّدُ معها ، فلما أُمروا بالسجود لآدم سجدوا ، فأبى إبليس ؛ فلذلك قال تعالى : (إلا إبليس كان من الجنّ) .

وقال ابن جرير[٢] : حدثنا محمد بن سنان القزّاز[٣] ، حدثنا أبو عاصم ، عن شَريك ، عن رجل ، عن عِكْرمة ، عن ابن عباس ؛ قال : إن الله خلق خَلْقاً ، فقال : اسجدوا لآدم ، فقالوا : لا نفعل ، فبعث الله عليهم نارا فأحرقتهم ، ثم خلق خلقا آخر ، فقال[٤] : (إني خالقٌ بشراً مِنْ طِين)، اسجدُوا لآدم. قال: فأبوا ، فبعث الله عليهم ناراً فأحرقتهم ، ثم خلق هؤلاء فقال : اسجدوا لآدم . قالوا : نعم . وكان إبليس من أولئك الذين أبَوْا أن يسجدوا لآدم .

وهذا غريب ولا يكاد يصح إسناده ؛ فإن فيه رجلا مُبْهَما ، ومثْلُه لا يحتج به . والله أعلم .

---

(١) تفسير الطبرى : ١ - ١٧٩ (٢) تفسير الطبرى : ١ - ١٨٠
(٣) فى ب : البزار . والمثبت فى ا ، والتقريب، و تفسير الطبرى أيضا .
(٤) سورة ص ، آية ٧١

[1][وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد[2] الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنا صالح بن عبد الله بن بُريدة ـ قوله تعالى : (وكان من الكافرين): من الذين أبَوْا فأحرقتهم النار .

وقال أبو جعفر[3] رضى الله عنه ، عن الربيع ، عن أبي العالية : (وكان من الكافرين) ؛ يعنى من العاصين .

وقال السدّى : (وكان من الكافرين) الذين لم يخلقهم الله يومئذ، يكونون بعد .

وقال محمد بن كعب القُرَظى : ابتدأ الله خَلْقَ إبليس على الكفر والضلالة وعمل بعمل[4] الملائكة، فصيّره الله إلى ما أَبْدَى عليه خلقه من الكفر؛ قال الله[٦٠] تعالى: (وكان من الكافرين][1] .

وقال قتادة ـ فى قوله تعالى : (وإذْ قُلنا للملائكة اسجدوا لآدم) ، فكانت الطاعةُ لله ، والسجدة لآدم ؛ أكرم الله آدم[5] أن أَسْجَدَ له ملائكته .

[6][وقال بعضُ الناس: كان هذا سجود تحية وسلام وإكرام؛ كما قال تعالى[7] : (وَرَفَعَ أبويه على العرش وخَرّوا له سجّداً ، وقال يا أبت هذا تأويلُ رُؤْيايَ مِن قَبْلُ قد جعلها رَبّى حقًّا) ، وقد كان هذا مشروعا فى الأمم الماضية ، ولكنه نُسِخ فى ملّتنا .

قال معاذ : قدمت الشام ، فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم ، فأنْتَ

---

(١) ما بين القوسين موضعه آخر تفسير الآية فى ز .
(٢) فى ا : ابن سعيد . والمثبت فى التقريب والتهذيب أيضا .
(٣) تفسير الطبرى: ١ ـ ١٨١ (٤) فى ز : عمل . (٥) فى ز : أكرم الله آدم بها.
(٦) من هنا ليس فى ز . (٧) سورة يوسف ، آية ١٠٠

يا رسولَ الله أحقُّ أن يسجدَ لك . فقال : « لا ، لو كنْتُ آمِرًا بشراً أن يسجد لبشر لأمرتُ المرأةَ أن تسجدَ لزوجها من عظم حقّه عليها[١] » ورجحه الرازى .

وقال بعضهم : بل كانت السجدةُ لله وآدم قِبْلَةٌ فيها ، كما قال تعالى[٢] : (أَقِمِ الصلاةَ لدُلُوكِ الشمس) .

وفى هذا التنظير نظر . والأظهر أنّ القولَ الأول أَوْلَى ، والسجدةُ لآدم إكراما وإعظاما ، واحتراما وسلاما ؛ وهى طاعة لله عزّ وجلّ ؛ لأنها امتثالٌ لأمره تعالى .

وقد قوّاه الرازى فى تفسيره ، وضعّفَ ما عداه من القولين الآخرين ؛ وهما كونه جعل قِبْلة ؛ إذ لايظهر فيه شرف ؛ والآخر أنّ المرادَ بالسجود الخضوع لا الانحناء ووَضْع الجبهة على الأرض كما قال][٣] .

وقال [قتادة][٤] : فى قوله تعالى : (فسجدوا إلا إبليس أَبى واستكبر وكان من الكافرين) : حسد عدوُّ اللهِ إبليسُ آدمَ عليه السلام على ما أعطاه اللهُ من الكرامة ؛ وقال : أنا نارىّ وهذا طينى . وكان بدء الذنوب الكِبْر ؛ استكبر عدوُّ الله أنْ يسجدَ لآدم عليه السلام .

[٥][قلت : وقد ثبت فى الصحيح[٦] : « لايدخلُ الجنة مَنْ كان فى قلبه مثقالُ حبة مِنْ خَرْدَلٍ من كبر » . وقد كان فى قلب إبليس من الكبر ، والكفر والعناد ، ما اقتضى طردَه وإبعاده عن جناب الرحمة وحضرة القدس .

قال بعضُ المعربين : وكان من الكافرين ؛ أى وصار من الكافرين بسبب

(١) مسند أحمد : ٤ – ٣٨١
(٢) سورة الإسراء ، آية ٧٨
(٣) إلى هنا ليس فى ا .
(٤) ليس فى ز .
(٥) من هنا إلى آخر تفسير الآية ليس فى ز .
(٦) صحيح مسلم : ٩٣

امتناعه ؛ كما قال[١] : (فكان من المُغْرَقين) . وقال[٢] : (فتكونا من الظالمين)، وقال الشاعر[٣] :

بِتَيْهاء قَفْرٍ والمطىُّ كأنها قَطَا الحَزْنِ قد كانت فِرَاخًا بيوضُها

أى قد صارت .

وقال ابن فُورَك : تقديره : وقد كان فى علم الله من الكافرين .

ورجَّحه القرطبى[٤] ، وذكر هاهنا مسألة ، فقال : قال علماؤنا : من أظهرَ اللهُ على يديه ممن ليس بنبىّ كرامات وخوارق للعادات ؛ فليس ذلك دالّا على ولايته ، خلافا لبعض الصُّوفية والرافضة .

هذا لفظه ، ثم استدل على ما قال بأنا لانقطعُ بهذا الذى جرى الخارق على يديه أنه يوافى الله بالإيمان ، وهو لايقطع لنفسه بذلك ، يعنى والولى الذى يقطع له بذلك فى نفس الأمر .

قلت : وقد استدلّ بعضُهم على أنّ الخارق قد يكون على يدى غير الولى ؛ بل قد يكون على يد الفاجر والكافر أيضا بما ثبت عن ابن صياد أنه قال : هو الدُّخ حين خبأ له رسولُ ﷺ : ([٥]فارتقِبْ يوم تأتى السماء بدُخَانٍ مُبِينٍ) ؛ وبما كان يصدر عنه أنه كان يملأ الطريقَ إذا غضب حتى ضربه عبدُ الله بن عمر ؛ وبما ثبتت به الأحاديثُ عن الدجال بما يكونُ على يديه من الخوارق الكثيرة ؛ من أنه يأمر السماءَ أن تُمْطر فتمطر ، والأرض أن تُنْبت فتنبت ، وتتبعه كنوزُ الأرض مثل

---

(١) سورة هود ، آية ٤٣ (٢) سورة البقرة ، آية ٣٥

(٣) وتفسير القرطبى : ١ – ٢٩٦ ، واللسان – كون .

(٤) تفسير القرطبى : ١ – ٢٩٧ . الدخ : الدخان . قال فى النهاية : وفسر فى الحديث أنه أراد بذلك يوم تأتى السماء بدخان مبين . (٥) سورة الدخان ، آية ١٠

اليعاسيب ؛ وأنه يقتل ذلك الشاب ثمّ يحييه إلى غير ذلك من الأمور المهولة .

وقد قال يونس بن عبد الأعلى الصّدَفى : قلت للشافعى : كان الليث بن سعد يقول : إذا رأيتم الرجلَ يمشى على الماء ، ويطير فى الهواء ،فلا تَغْتَرّوا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة .

فقال الشافعى : قصر الليث رحمه الله ؛ بل إذا رأيتم الرجلَ يمشى على الماء ، ويطير فى الهواء فلا تغترّوا به ، حتى تعرضوا أمْره على الكتاب والسنة[1] .

وقد حكى الرازى وغيره قولين للعلماء :هل المأمور بالسجود لآدمَ خاصٌّ بملائكة الأرض ، أو عام فى ملائكة السموات والأرض؟وقد رجّح كلا من القولين طائفةٌ .
وظاهرُ الآيةِ الكريمة العموم : (فسجد الملائكةُ كلُّهم أجمعون إلا إبليس)؛ فهذه أربعة أوجه مقوّية للعموم . والله أعلم][2] .

تصـــويب

الصفحة	السطر	الصواب	الصفحة	السطر	الصواب
٢٥	١٥	٢ِ٠	١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩١		
٣٩	أعلى الصفحة	الاستعاذة		أعلى الصفحة :	اعبدوا
٩٤ ، ٩٦	«	أنعمت عليهم	٢١٩	٦	مضمن
١٣١	١٤	بالغيب	٢٢٥	٧	فلما
١٧١	٨	١٨	٢٣١	أعلى الصفحة	وإذ

(١) هذه العبارة مثل الأولى . ولعل الأولى : حتى تعرضوا أمره على الكتاب .
(٢) إلى ليس فى ز .

فهرس الجـــــزء الأول*

* هذا فهرس خاص بهذا الجزء للآيات ولبعض المسائل الهامة ، وسنضع مثله عقب كل جزء . أما الفهارس الفنية العامة للكتاب فستكون فى آخره إن شاء الله .